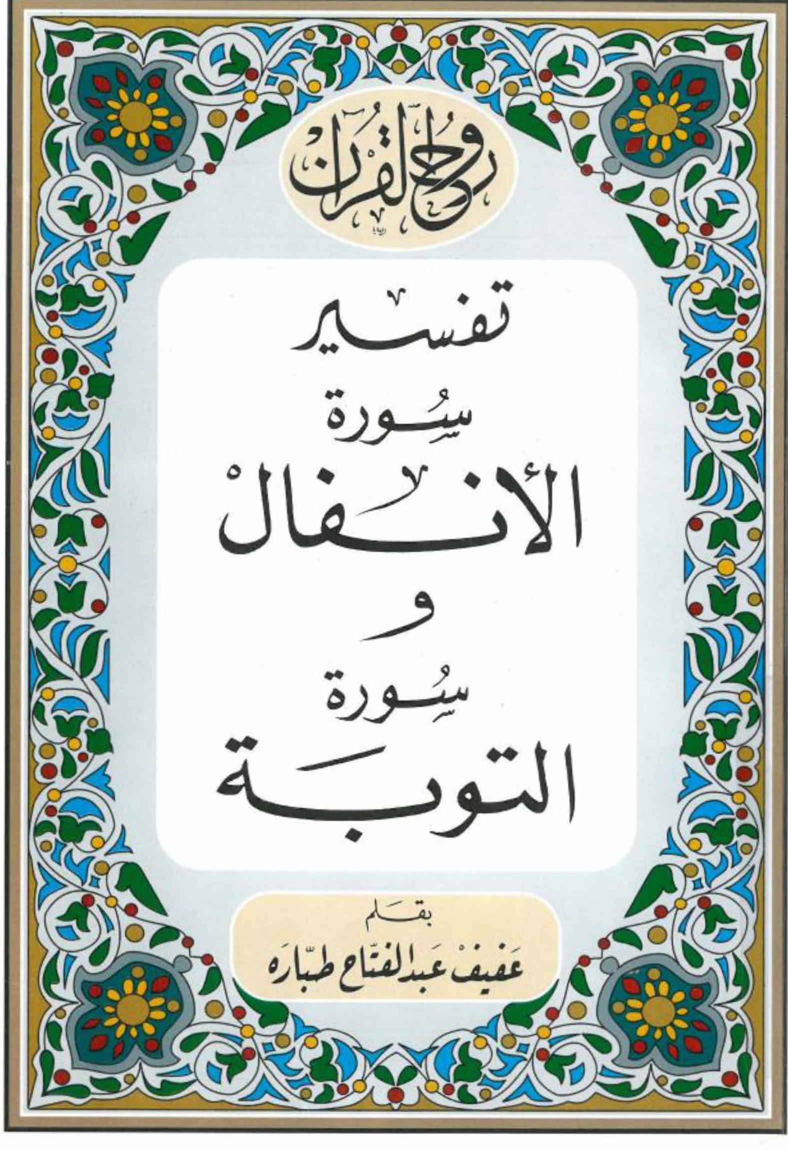
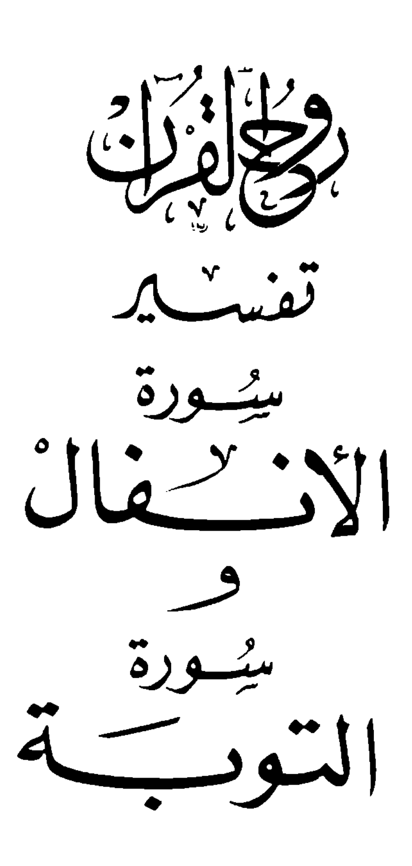

روح القرآن
تفسير
سورة
الأنفال
و
سورة
التوبة
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره

قَالَ رسُولُ اللّهِ مُحمَّدٌ ﷺ:

إنَّ أفضلكم مَن تعلَّم القرآن وعَلَّمَه



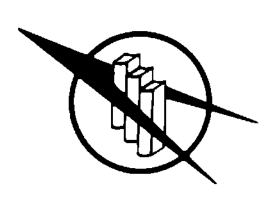
بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - بناية متكو - الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com



الطبعة الأولى

أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لفضيلة القاضي المستشار **الشيخ حسين يوسف غزال**

الحمد لله معز المؤمنين ومذل الكافرين والصلاة والسلام على سيدنا محمد حامل لواء النصر إلى يوم الدين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فإن سورتي الأنفال والتوبة تتميزان باشتمالهما على كيفية مواجهة الكفار والتعامل معهم، فتعرضان المنهج الإسلامي الذي يجب على المسلمين اتباعه وترسمان الطريقة التي تكفل للمسلمين النصر على الأعداء والفوز المبين.

تعالج السورتان موضوع الجهاد مع الكفار، والقتال مع الذين يتربصون بالإسلام والمسلمين الدوائر، وتنفذان من خلال ذلك إلى مواضيع في غاية الأهمية يترتب عليها سلامة الأوطان.

وإن الإسلام في الأساس هو دين سلام ومعاهدات ومواثيق ولكن متى أنس خطراً من أي جهة كانت فإنه يعلنها حرباً لا هوادة فيها حتى يدفع الخطر ويثبت الأمن على قواعد ثابتة لا يطرأ إليها الوهن ولا يعتريها الضعف.

وفي سبيل دفع الخطر، ولتكون كلمة الله هي العليا، ترخص الأرواح وتُبذل النفوس رخيصة في سبيل إحقاق الحق ودحر الباطل، ولهذا يقف الإسلام موقفاً حازماً في وجه الذين يريدون النيل من الإسلام وأهله، ذاك أنه ينبغي أن لا يكون هناك في صفوف المسلمين مذبذب أو منافق من الذين يريدون أن تبقى لهم أدنى علاقة مع الأعداء لغاية في نفوسهم المريضة يسعون إليها، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة: ١٦]. وإن نص الآية حاسم فلا يسوغ للمؤمنين أن يتخذوا من أعدائهم بطانة وأولياء يفشون إليهم أسرارهم بما يعرض مصالحهم العليا للخطر، وهذا ينطبق على بعض الدول الإسلامية وعلى أفرادها مما نشاهده في زماننا الحاضر.

وإن منهج الإسلام في الإعداد لحرب الأعداء واضح، يتجلى في مسلكين: الأول في طلبه من المسلمين إعداد العدة لمجابهة الأعداء حيث قال سبحانه: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. والثاني: في أنه يهيىء الأرواح لتبذل رخيصة في سبيل الله، وقد قال أحد قادة المسلمين مخاطباً قائد الأعداء: «لقد جئناك برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة». هذه هي روح الجهاد التي رباها القرآن في نفوس أبنائه حيث قال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة: ١١١]. وقد جاء رجل يوم غزوة أُحُد فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: في الجنة، فألقى تمرات في يده كان يأكلها ثم قاتل حتى قتل وكأنه يستعجل الجنة. لله ما أروع هذه النفوس المؤمنة التي باعت أرواحها في سبيل الله مطمئنة إلى ما وعدها الله به من النعيم المقيم في جنة عرضها السماوات والأرض.

وفي سورة التوبة دروس وعبر تستوقف التأمل والنظر نشير إلى بعضها إشارة موجزة:

يستوقفنا التوجيه القرآني في معاملة المشركين وأنه إذا طلب أحد المشركين أن نجيره فعلينا أن نجيره وأن نمنع عنه الأذى ونحفظ له سلامته حتى يسمع كلام الله فيتفهم الدين عن كثب ولعلَّ الإيمان يدخل قلبه، حتى إذا أغلقت في وجهه أبواب الخير وأراد الانتقال إلى دار الشرك أُمرنا أن نظل محافظين على سلامته حتى يبلغ مأمنه، قال تعالى:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦].

هذه شيمة الإسلام توجهنا أن لا نغدر ولا نظلم ولا نتخلى عن المبادىء والعهود.

ويستوقفنا ـ وما أكثر ما يستوقفنا ـ نبل الإسلام وسعة أفقه وتمتعه بشمولية واسعة وكيف أنه يستوعب من دخل الإسلام من المشركين حيث يعتبرهم كأنهم مسلمون من زمن بعيد وأن الإسلام يمحو ما قبله من الخطايا قال تعالى:

﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١].

فهؤلاء المشركون الذين أسلموا حديثاً أصبحوا إخواناً للمسلمين في العقيدة

«فإخوانكم في الدين»؛ وبذلك يتساوى من دخل في الإسلام منذ لحظة مع من مضى على إسلامه عدة سنين.

ويستوقفنا ما جاء في سورة التوبة من دعوة المسلمين إلى الجهاد عندما يداهمهم العدو، يقول الله تعالى: ﴿ ٱنفِرُوا[1] خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١]. فالله سبحانه يدعو المسلمين إلى الخروج إلى الجهاد شباناً وشيوخاً، فقراء وأغنياء إذا داهم العدو بلداً من بلاد المسلمين، لأن المسلمين في الأرض أمة واحدة وما يصيب المسلمين في أقصى الأرض من اعتداء أو أذى يستوجب على المسلمين كافة نصرتهم كما جاء في سورة الأنفال: ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ [الآية: ٧٢].

ما أحوجنا اليوم إلى تطبيق هذا الهدي الرباني فيهب المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها لنصرة إخوانهم في فلسطين الذين استفردهم العدو الصهيوني وأمعن فيهم ذبحاً وتقتيلاً وتنكيلاً وتدميراً للمنازل والمقدسات بكل ما ابتكرته التكنولوجيا الحديثة من وسائل الدمار والخراب.

لا أستطيع في هذه الصفحات القليلة أن أستعرض ما اشتملت عليه هاتان السورتان من إرشادات سامية وتوجيهات حكيمة فيها عزة المسلمين وكرامتهم ولكن أترك ذلك للمؤلف الذي أجاد في عرضها.

وقبل أن أنهي كلمتي لا بد لي أن أشيد بالمؤلف بما بذله من جهد في تفسير هاتين السورتين بما عودنا عليه من دقة ودراسة شاملة لمعاني الآيات بتبويب رائع وأسلوب سهل، وتوخي البساطة في عرض الفكرة حتى يدخل المعلومات الصعبة إلى ذهن القارىء بوضوح وبأسطر قليلة وبينما يحتاج شرحها إلى صفحات كثيرة.

نسأل الله سبحانه أن يجعل القرآن الكريم شفاء نفوسنا وجلاء أحزاننا وأن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.

---

(١) انفروا: اخرجوا إلى قتال العدو.

تعريف بسورة الأنفال

سورة الأنفال هي سورة مدنية، أي أنها نزلت في المدينة المنورة. وسبب تسميتها بذلك أنها افتتحت بآية ذكر فيها اسم (الأنفال) وهي الغنائم، كما تسمى أيضاً: (سورة بدر).

وهذه السورة تتحدث بإسهاب عن غزوة محمد ﷺ بدر وهي الموْقِعَةُ الفاصلة في تاريخ الإسلام، وهي أولى الغزوات التي خاضها المسلمون بقيادة نبيهم، وتحقق لهم فيها النصر الكاسح على المشركين، على الرغم من قلة عددهم وكثرة عدد المشركين، فنرى آيات القرآن تذكر ما كان قبلها، وما حدث في أثنائها، وما جرى في أعقابها، كما تذكر تأييد الله للمؤمنين أثناء المعركة بإنزال الملائكة لتثبيت قلوب المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب المشركين.

وهذه السورة تتحدث أيضاً عن بعض أحكام القتال، والبواعث عليه، وأسباب النصر، وأحكام غنائم الحرب وكيفية توزيعها، ووجوب الاستعداد للحرب بأقصى الاستطاعة لإرهاب العدو ولجمه عن الاعتداء على المسلمين، والدعوة إلى وحدة المسلمين واتفاق كلمتهم، ونبذ التنازع فيما بينهم لأنه يفضي إلى الفشل والقضاء على قوة المسلمين.

وفي هذه السورة دعوة للوفاء بالمعاهدات التي أبرمها المسلمون مع أعدائهم ولو أضر ذلك بمصلحة المسلمين، كما تذكر وجوب تأديب ناقضي العهد بالشدة اللازمة، كما أن في هذه السورة الدعوة إلى السلام والميل إليه إذا مال العدو إليه.

وفي هذه السورة مدح وثناء على المهاجرين والأنصار الذين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وبيان لصفات المؤمنين الصادقين.

كما تدعو السورة إلى الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم، وأنهم إذا اتقوا الله يجعل لهم (فرقاناً) أي هداية ونوراً في قلوبهم، يفرقون به بين الحق والباطل.

هذا بعض ما تحتويه السورة من توجيهات وإرشادات، وهناك مواضيع أخرى نتركها للقارىء ليرى ما فيها من روعة البيان والفوائد التي تعود على الإنسان في دنياه وآخرته.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين (١) إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم ءايته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون (٢) الذين يقيمون الصلوة ومما رزقنهم ينفقون (٣) أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجت عند ربهم ومغفرة ورزق كريم (٤) ﴾.

شرح المفردات:

الأنفال: غنائم الحرب والمقصود بها هنا غنائم معركة بدر.

فاتقوا الله: أي اجعلوا لأنفسكم وقاية من عقوبة الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح.

وأصلحوا ذات بينكم: وأصلحوا الصلة بينكم حتى تكون صلة ألفة واتفاق.

وجلت: خافت.

يتوكلون: أي يعتمدون على ربهم ويفوّضون أمرهم إليه.

الكلام عن الغنائم وصفات المؤمنين

تبدأ هذه السورة بالحديث عن غنائم غزوة بدر التي اختلف المسلمون في توزيعها:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ والرَّسُولِ﴾ فالسائلون هم أصحاب رسول الله ﷺ الذين قاتلوا في غزوة بدر، وهم سألوا رسول الله في شأن الأنفال[١] وهي الغنائم. وقد اختلفوا في قسمة غنائم غزوة بدر كيف تُقسّم، ولمن الحكم في قسمتها، فنزلت الآية لبيان أن الحكم في قسمتها يرجع إلى الله ورسوله، يحكم الله فيها، ورسول الله يقسّمها بحسب حكم الله ﴿فاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي إذا كان أمر الغنائم في قسمتها لله وللرسول فخافوا الله أيها القوم واتقوه بطاعته واجتناب معاصيه ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وأصلحوا الحال بينكم، واتركوا النزاع والشحناء، والتزموا المودة والمحبة بينكم ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أمر الغنائم وسواها بامتثال أوامرهما، فرسول الله يطاع في كل أمر لأنه مبلغ عن الله ومبين لما أوحى إليه ﴿إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ هنا شرط حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه. والمراد بالإيمان كماله، أي إن كنتم كاملي الإيمان فالتزموا بما ذُكر فإن كمال الإيمان يدور على هذه الخصال الثلاث التي مر ذكرها في القرآن وهي: طاعة الله ورسوله واتقاء المعاصي وإصلاح الخلاف بينكم بالعدل.

وقد روي في أسباب نزول الآية عن عبادة بن الصامت أنه قال:

نزلت الآية فينا معشر أصحاب رسول الله حين اختلفنا في النَّفَل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله ﷺ فقسّمه بين المسلمين على السواء وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين.

---

(١) الأنفال: الغنائم واحدها نَفَلٌ والنفل: الزيادة. والأنفال مما زاده الله على أمة محمد في الحلال، لأن الغنائم كانت محرمة على من قبلهم، بقول النبي ﷺ: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي».

ثم بيّن الله سبحانه أن المؤمنين لا يكونون مؤمنين حقيقيين إلا إذا توفرت فيهم خمس صفات:

١ ـ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فالمؤمنون الكاملو الإيمان إذا ذُكِرَ الله تعالى خافت قلوبهم وفزعت هيبة من عِظَم قدر الله وجلاله، وحذراً من عقابه.

٢ ـ ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن قوي إيمانهم ويقينهم بربهم، فما من أحد يسمع آيات القرآن ويتدبّر معانيها إلا ازداد إيماناً بأن القرآن من عند الله وليس من تأليف بشر، فبلاغته التي تعلو على كلام البشر، وتأثيره في النفوس، وما احتواه من حكم وشرائع وأخلاق سامية، وقصص الأنبياء، وما كشف عنه من أسرار الخلق، وبيان قدرة الله المسيطرة في الكون، كل ذلك يقوي إيمان المؤمن بخالقه ويزيده يقيناً بأن الإسلام دين الحق.

٣ ـ ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي أنهم يعتمدون على الله وحده ويفوّضون أمورهم إليه. ولا يعني التوكل بأن لا يعمل الإنسان لكسب رزقه اعتماداً على أن الله هو الرازق لا، بل العمل وبذل الجهد والأخذ بالأسباب ضروري للحصول على الرزق. والمؤمن لا يكون متوكلاً إذا خرج عن سنن الله في الكون بأن ينتظر ثمراً من غير غرس، ونجاحاً من غير جهد، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللّهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة»؛ وتقديم الجار والمجرور ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفيد قصر التوكل على الله وحده.

فالتوكل على الله هو تفويض الأمر كله له والاعتماد عليه والإيمان بأنه هو المدبر لأمور الكون، وهو الموفّق لما يسعى إليه الإنسان، ولكن بعد بذل الجهد، وبعد الأخذ بالأسباب.

٤ ـ ﴿الَّذِينَ يُقِيمونَ الصَّلاةَ﴾ أي يؤدون الصلاة مستوفية لشروطها وأركانها كلها في مناجاة لله بخشوع، وفي دعاء وثناء على الله وتمجيد لعظمته.

٥ ـ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ﴾ أي ينفقون من أموالهم لمساعدة الفقراء والمساكين بإعطاء زكاة أموالهم، أو بإعطاء الصدقة المندوبة، كما ينفقون من أموالهم على كل ما يعود بالخير على المجتمع. وقد قرن الإنفاق بقيد: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُم﴾ أي مما رزقهم الله، وذلك يوحي بأن ليس للمؤمنين أن يمتنعوا عن الإنفاق لأن الله الذي رزقهم سيعوض عليهم ما ينفقون وفي هذا جاء في القرآن ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

﴿أولَـئِكَ هُمُ المؤمِنُونَ حَقًّا﴾ أي أولئك الذين ذكرت الآية صفاتهم الخمس الحميدة هم المؤمنون إيماناً حقيقياً، وكل مؤمن لا يتصف بهذه الصفات فهو ليس بمؤمن إيماناً صحيحاً ولا يُرجى منه الخير. فليراجع المسلم نفسه هل هو من أهل الإيمان أم من غيرهم ﴿لَهُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك المؤمنون حقاً لهم مراتب رفيعة عند الله من الكرامة والثواب وعلو المكانة في الجنة حسب أعمالهم ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ولهم عفو من ربهم وستر لذنوبهم كما أن لهم رزقاً كريماً عند ربهم من نعيم الجنة.



﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾.

شرح المفردات:

إحدى الطائفتين: العير أو النفير. فالعير هي القافلة، والنفير هو جيش قريش.

ذات الشوكة: الشوكة هي الشدة والقوة أو السلاح. وذات الشوكة هي جيش قريش.

بكلماته: بأمره لكم بالقتال وبوعده لكم بالنصر.

يقطع دابر الكافرين: يستأصلهم.

معركة بدر الكبرى

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن معركة بدر وما أحاط بها من أحداث:

﴿كَمَا[1] أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ المؤْمِنِينَ لكَارِهُونَ﴾ أي أن المسلمين رضوا بهذا الحكم في الغنائم وإن كانوا كارهين له كما أخرجك ربك يا محمد من المدينة بسبب حق يظهر وهو علو كلمة الإسلام والنصر على أعداء الله، والحال أن فريقاً من المؤمنين لكارهون الخروج معك للقتال إما لعدم استعدادهم لملاقاة جيش قريش أو لميلهم للحصول على قافلة قريش.

وتوضيح ذلك: هو أن النبي ﷺ علم أن قافلة تجارية كبيرة لقبيلة قريش قادمة من

---

(١) ﴿كما أخرجك ربك﴾ الكاف للتشبيه والآية تشبه حالة بحالة. الحالة الأولى هي اختلاف المسلمين حول الغنائم كيف تقسم. والحالة الثانية هي خروج المسلمين لقتال المشركين، وفي كلتا الحالتين كان هناك عدم رضى من المسلمين.

الشام في طريقها إلى مكة وكان على رأسها أبو سفيان بن حرب ويحرسها ثلاثون أو أربعون رجلاً. عزم النبي ﷺ أن يعترض هذه القافلة ويستولي عليها ليفجع قريشاً في تجارتها جزاء سوء معاملتهم للمسلمين في مكة، فدعا أصحابه للخروج معه فلبى دعوته ثلاثماية وثلاثة عشر رجلاً، وهو عدد يكفي لاعتراض القافلة فاكتفى بهم وسلك الطريق المؤدية إلى (بدر) وهي عين ماء كانت تمر عليها القوافل الآتية من الشام إلى مكة.

علم أبو سفيان بخروج النبي ﷺ للاستيلاء على قافلته فأرسل بعض رجاله إلى مكة يعلمهم الخبر ويطلب منهم النجدة، أما هو فقد سلك بالقافلة طريق الساحل وأفلت بقافلته من أيدي المسلمين.

سارع رجالات قريش إلى نجدة أبي سفيان فخرجوا في تسعمائة وخمسين مقاتلاً ومعهم مائة فرس وسبعماية بعير محملة بالزاد والسلاح، وبينما هم في الطريق جاءهم رسول أبي سفيان يخبرهم بنجاة قافلته ويطلب منهم الرجوع إلى مكة، ولكن أبا جهل أحد زعمائهم تحمس للحرب وأبى إلا أن يتقدم ويتابع مسيرة الجيش.

تردد القوم فرجع بعضهم إلى مكة واتبعت سائر قريش رأي أبي جهل ومضوا في طريقهم حتى وصلوا إلى وادي بدر ونزلوا في الجانب الأبعد منه.

ولنرجع إلى الكلام عن المسلمين الذين انطلقوا مسرعين خوفاً من أن تفلت القافلة منهم وهم يحاولون حيث ما مرّوا أن يقفوا على أخبارها حتى أتوا «وادي ذَفِران» فنزلوا فيه وهناك جاءهم الخبر أن قريشاً قد خرجت من مكة في جيش كبير للدفاع عن أموالها، إذ ذاك تغيّر وجه الأَمر فلم يكن قاصراً على ملاقاة قافلة حراسها قليلون، بل ملاقاة جيش كبير لم يأخذوا العدة لملاقاته.

استشار النبي ﷺ جيشه في شأن جيش قريش فتبين له أن بعض جيشه كان يميل إلى الاستيلاء على القافلة فقط، واحتجوا بأنه لما استنفرهم للخروج معه لم يذكر لهم أنه مقدم على قتال جيش قريش بل الاستيلاء على القافلة، فردّ عليهم رسول الله فقال:

إن القافلة قد مضت على ساحل البحر وهذا جيش قريش قد أقبل، فقالوا يا رسول الله: عليك بالقافلة ودع العدو. . فقام أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فتحدثا فأحسنا القول، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امضِ إلى حيث أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لئن سرت بنا إلى بِرْك الغماد «يعني مدينة الحبشة»، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال رسول الله ﷺ خيراً ودعا له. ثم قال رسول الله: أشيروا عليَّ أيها الناس، وإنما يريد الأنصار[1] لأنه شك في نصرتهم له، فقال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن يلقانا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ[2] عند الحرب، صُدُقٌ[3] عند اللقاء لعلَّ الله أن يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر على بركة الله. فسرّ رسول الله بقول سعد ونشّطه ذلك ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين[4] والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم غداً.

وبعد هذا التمهيد لما جرى بين النبي ﷺ وأصحابه نعود إلى ذكر الآيات:

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ والمجادلة: هي المناظرة لا لإظهار الصواب بل لطلب المغالبة بالرأي، وجدالهم هو قولهم: ما كان خروجنا إلا للاستيلاء على القافلة وهلاّ قلت لنا لنستعد ونتأهب للقتال أمام جيش قريش. والمراد بالحق الذي جادلوا فيه، هو القتال الذي حضهم رسول الله ﷺ عليه. والمراد بقوله ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾

(١) كان الأنصار قد بايعوا رسول الله على حمايته ونصرته ما دام في المدينة وليس خارجها ولهذا وجه الخطاب لهم.
(٢) صُبُر: جمع صابر.
(٣) صُدُق: جمع صادق.
(٤) الطائفتين: هما قافلة قريش أو جيشها.

هو إعلام رسول الله لهم بأنهم سَيُنْصرون على أعدائهم. ثم شبه القرآن كراهيتهم لقتال المشركين بقوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي كأنهم لشدة رعبهم يساقون إلى الموت وهم ناظرون إلى أسبابه ومشاهدون لموجباته.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ أي واذكروا حين وعدكم الله بالنصر والفوز بإحدى الفرقتين، ووعد الله حق، فالفرقة الأولى هي الاستيلاء على قافلة قريش، والفرقة الأخرى هي الانتصار على جيش قريش، فلما أفلتت القافلة من أيديهم بقي جيش قريش وهو الذي وعدهم الله بالنصر عليه ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ والشوكة: هي السلاح والقوة، أي أنتم ترغبون بالظفر بالفرقة التي ليس فيها قوة ولا سلاح وهي القافلة، ولا ترغبون بالالتحام مع جيش قريش. وهنا تعريض بهم حيث كرهوا القتال ورغبوا بالمال، وما هكذا يكون شأن المؤمنين الصادقين الذين ينبغي أن يُضحّوا بأرواحهم في سبيل الله.

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ ويريد الله أن يثبّت الدين الحق وهو دين الإسلام بكلماته المعلنة لإرادته وقدرته، ووعده بنصر المؤمنين ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ﴾ والدابر: التابع من الخلف، والمراد من قطع دابر الكافرين هو استئصالهم حتى لا يبقى منهم أحد.

﴿لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ﴾ ليثبّت الله سبحانه الحق ويزيل الباطل ﴿وَلَوْ كَرِهَ المجْرِمُونَ﴾ ولو كره المشركون ذلك، لأن كراهيتهم لا وزن لها، وهم قد أجرموا بطغيانهم ومحاربتهم للإسلام.

«والمراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل، بإظهار كون ذلك الحق حقاً، وإظهار كون ذلك الباطل باطلاً، وذلك تارة يكون بإظهار الدلائل والبيّنات، وتارة بتقوية رؤساء الحق وقهر رؤساء الباطل»[1].

---

(١) تفسير الفخر الرازي.

والحكمة من أن الله جعل القافلة تفلت من أيديهم ويجعلهم وجهاً لوجه أمام جيش قريش، أن يثبت للملأ أنهم لو استولوا على القافلة لقيل عنهم إنهم جماعة يفضلون الغنيمة على الجهاد في سبيل الله، إذ لم يكن مع القافلة آنذاك إلا أربعون رجلاً، والمسلمون ثلاثمائة ونيف، ولكن الله أراد أن ينصرهم على جيش قريش الضخم في العدد وكثرة السلاح ليثبت دين الله في قلوب المؤمنين، وإن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء من عباده.

* * * * *

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

شرح المفردات:

تستغيثون ربكم: تطلبون منه الغوث والنصر على عدوكم.

فاستجاب لكم: فأجاب دعاءكم.

مُردِفين: أي متتابعين بعضهم في إثر بعض.

لتطمئن: لتسكن.

يغشيكم النعاس: أي يغطيكم النعاس ويشملكم به.

أَمَنَةً منه: أي أمناً من الله وطمأنينة.

رجز الشيطان: وسوسته وتخويفه لكم.

وليربط على قلوبكم: يثبت قلوبكم ويقويها بالشجاعة والصبر.

بنان: الأصابع، وقيل أطراف أنامل اليدين والرجلين.

شاقوا الله: حاربوا الله وجانبوا دينه وطاعته.

المعونة الربانية للمؤمنين

ويتابع القرآن فيذكر فضل الله على المؤمنين يوم معركة بدر:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُم﴾[1] أي واذكروا أيها المؤمنون حين كنتم تطلبون الإغاثة والنصرة والعون من ربكم على عدوكم ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُم أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الملائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي فأجاب الله استغاثتكم ودعاءكم بأن أمدكم بألف من الملائكة متابعين بعضهم إثر بعض لنصرتكم.

أما هل قاتلت الملائكة مع المؤمنين يوم معركة بدر، فهناك خلاف في ذلك، ولكن القرآن بيّن الغاية من إمدادهم بالملائكة:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ أي وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا ليبشّركم بأنكم منتصرون، ولتطمئن قلوبكم ويزول خوفكم واضطرابكم.

---

(١) هذه الاستغاثة يذكرها عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف ونظر إلى المشركين وهم ألف وزيادة، فاستقبل القِبلة فجعل يدعو ويقول: اللّهم أنجز لي ما وعدتني اللّهم إن تَهْلِك هذه العصابة (أي الجماعة) من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه وأخذه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فوضع رداءه عليه، ثم التزمه من ورائه ثم قال: كفاك يا نبي الله بأبي وأمي مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﴿إذ تستغيثون ربكم..﴾ الآية.

وفي هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا وأن الغاية من إمدادهم بالملائكة هي بثّ الطمأنينة في قلوب المؤمنين وأن الله ناصرهم، هذا مع العلم أن ملكاً واحداً قادر على إهلاك جيش قريش كما جرى للملك جبريل حيث جعل مدائن قوم لوط عاليها سافلها. كما أن هناك روايات تقول إن الملائكة قاتلت يوم بدر ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فالنصر في الحقيقة هو من عند الله فثقوا بنصره الذي وعدكم به ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إن الله هو القوي الغالب، الحكيم في تدبيره لخلقه.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ أي واذكروا أيها المؤمنون وقت كنتم متعبين وقلقين على مصيركم، فألقى الله عليكم النعاس أَمَاناً أمّنكم به من خوفكم الذي حصل لكم من كثرة عدوكم وقلة عددكم. والنعاس هو فتور في الأعصاب يعقبه النوم، ولقد جعل الله هذا النعاس آية منه، وذلك أن الخائف من عدوه خوفاً شديداً لا يأخذه النعاس ولا النوم، فلولا حصول النعاس الذي فيه استراحة أجسامهم وتقويتها لما تمكنوا في اليوم الثاني من قتال عدوهم بجد ونشاط.

ويفهم من النعاس أنهم ما ناموا نوماً عميقاً بحيث يباغتهم العدو ويتمكّن منهم، بل كان نعاساً يزيل الإعياء والإرهاق بحيث لو انقضّ عليهم العدو لتنبهوا له واستطاعوا مقاومته.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ وهذه الجملة من الآية تحكي لنا نعمة أخرى كان لها الشأن في النصر على المشركين، إذ كان جيش المسلمين قد نزل بجانب الوادي القريب من المدينة بعيداً عن الماء في أرض رمليّة، وكان المؤمنون قد لحقتهم في سفرهم الجنابات فصلّوا بدون طهر لانعدام الماء لديهم، وكانت بينهم وبين ماء بدر مسافة طويلة، وكانوا يتوقعون أن يسبقهم الكفار إلى ماء بدر، فحرصوا هم أن يسبقوهم إليه، فأنزل الله المطر فسالت الأودية فاغتسلوا من الجنابات، وطهّرهم الله، وتلبدت الرمال فسهل المشي عليها وأمكنهم الإسراع حتى سبقوا المشركين إلى الماء،

أما المشركون فكان المطر وبالاً عليهم فقد تحولت به أرضهم الجلدة اليابسة إلى أوحال لا يقدرون معها على الحركة ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي ويزيل عنكم وسوسة الشيطان وتخويفه إياكم من العطش والفشل ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُم﴾ أي يثبتها ويوطّنها على الصبر ويطمئنها إلى النصر، لأن إنزال الله للماء دليل بارز على عنايته بهم ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ وذلك أن المسلمين كان بينهم وبين عدوهم رملة لا تستطيع الدواب السير عليها ولا يمشي فيها الماشي إلاّ بجهد، فأصابها الله بالمطر حتى اشتدت وثبتت فيها الأقدام.

أسرع النبي ﷺ وأصحابه إلى ماء بدر ونزلوا إلى أول ماء وجدوه، فقال الحباب بن المنذر وكان مشهوراً بأصالة الرأي: يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه[1] الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أو هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» فقال الحباب: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نُغَوّر ـ أي ندفن ـ ما وراءه من الآبار ثم نبني حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل، فنشرب ولا يشربون فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي، ونفّذ ما أشار إليه الحباب.

ويبين الله عنايته بالمؤمنين يوم معركة بدر:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلى الملائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي واذكر يا محمد نعمة أخرى أنعمها الله على المؤمنين حين أوحى ربك للملائكة بأنه معهم بالنصر والإعانة، فثبّتوا قلوب المؤمنين لينتصروا على أعدائهم، وتثبيت المؤمنين يكون بمؤازرتهم والبشارة لهم بالنصر وتكثير عددهم والقتال معهم ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي أن الله سيُلقي في قلوب الكافرين الخوف والفزع منكم أيها المؤمنون، وهذا من أعظم النِّعَم على المؤمنين، فالعدو إذا سيطر عليه الرعب كان

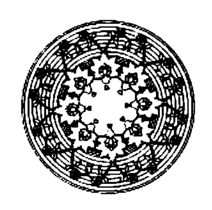
---

(١) أنزلكه: أي أنزلك إياه.

ذلك سبباً في هزيمته ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ فاضربوا ـ أيها المؤمنون ـ رؤوس الكافرين لأن ما فوق العنق هو الرأس ﴿وَٱضْرِبُوا مِنْهُم كُلَّ بَنَانٍ﴾ والبنان كل إصبع من الأصابع أو أطراف أيديهم وأرجلهم، فإذا قُطِعَ من المحارب أصابعه أو أطرافه شُلّت حركته ولم يستطع القتال.

﴿ذَٰلِكَ بِأنهم شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أن ما أصابهم من العقاب هو بسبب العداء منهم لله ورسوله ومخالفتهم أمرهما ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ ورسُولَهُ﴾ ومن يخالف الله ورسوله ويناوؤهما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ فعقاب الله شديد لا يفلت منه أحد.

﴿ذَٰلِكُم فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ الخطاب للمشركين المنهزمين في غزوة بدر من الجرحى والأسرى عن طريق الالتفات لهم، أي ذلكم العقاب العاجل الذي أصابكم في الدنيا من الذل والهوان فذوقوه، والذوق يكون للطعام القليل عن طريق استساغته وبيان طعمه، والعذاب الذي حلّ بالكافرين على أيدي المؤمنين مجرد ذوق هين قليل لما سيعقبه في الآخرة من العذاب الأليم، كما أن الذوق هنا يحمل معنى الشماتة والإهانة لهم.



﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

شرح المفردات:

زحفاً: الزحف تقارب القوم إلى القوم في الحرب والدنو بعضهم من بعض قليلاً قليلاً.

فلا تولّوهم الأدبار: فلا تديروا ظهوركم لهم أي تثنوا عن قتالهم وتفروا منهزمين.

متحرفاً لقتال: منعطفاً عن موقفه إلى موقف آخر أصلح للقتال فيه.

متحيّزاً إلى فئة: منحازاً ومنضماً إلى جماعة أخرى ليقاتل معها.

باء بغضب من الله: رجع بغضب من الله مستحقاً له.

ليبلي المؤمنين: أي ليُحسن الله إليهم وينعم عليهم بالنصر والغنيمة، والبلاء هنا محمول على الإحسان والنعمة ويطلق أيضاً على المحنة.

مُوهن: مُضعف.

إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح: إن تطلبوا النصر يا معشر الكفار فقد جاءكم الفتح وهو الهزيمة لكم.

تغني عنكم: تدفع عنكم.

الصمود في وجه العدو

ثم يحذر القرآن المؤمنين من الفرار من وجه العدو عندما تدور المعارك رحاها:

﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً﴾ أي يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله إذا لقيتم الذين كفروا وأنتم مجتمعون تزحفون إلى عدوّكم قليلاً قليلاً وهم يزحفون نحوكم كذلك ﴿فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ فلا تديروا لهم ظهوركم منهزمين فارين منهم، بل اصبروا واثبتوا في ميدان المعركة.

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِم يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ﴾ أي ومن يفر من وجه العدو بقصد الميل من جانب إلى آخر، كأن يوهم العدو بأنه ينسحب وفي ذات اللحظة يعاود الكرة على العدو مطوّقاً له ﴿أو مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ﴾ أو منضماً إلى جماعة أخرى من المؤمنين ليقاتل معها العدو، ففي كلتا الحالتين لا حرج على المؤمن إذا أدار ظهره للأعداء.

أما الذي يفرّ من وجه العدو ويؤثر الهزيمة على القتال ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي فقد رجع من المعركة وقد غضب الله عليه غضباً شديداً، بخلاف المؤمن الذي يرجع بعد الانتهاء من قتال العدو بالثواب العظيم عند الله حيًّا أو ميّتاً ﴿وَمأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ والمأوى هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان طلباً للراحة، والفار من وجه العدو لن يجد في الآخرة مأوى يسكن إليه إلاّ جهنم ليُعذب بنارها، وبئس المرجع والمصير آنذاك.

والفرار من ميدان القتال عند الالتحام مع العدو من كبائر الإثم التي ذكرها النبي ﷺ بقوله: «اجتنبوا السبع الموبقات...» ومنها: «التولي يوم الزحف»[1] أي الفرار عند التقاء الجيشين.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

هذا وإن الصمود في وجه العدو أو الانسحاب من وجهه متروك لقائد المعركة فإن رأى الثبات أمام العدو ثبت، وإن رأى غير ذلك انسحب بجيشه حتى تتاح له فرصة للكر عليه لئلا يُلقي بجنوده إلى التهلكة في معركة خاسرة.

ثم بيّن الله فضله على المؤمنين في غزوة بدر حيث نصرهم على أعدائهم:

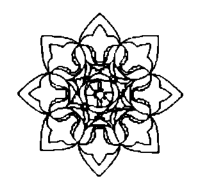
﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُم﴾ فلم تقتلوا ـ أيها المؤمنون ـ المشركين ولكن الله قتلهم ـ أضاف الله قتل المشركين إلى ذاته العلية، ونفاه عن المؤمنين إذ إن الله سبحانه هو مسبب قتلهم بإنزال الملائكة وإلقاء الرعب في قلوبهم وتسليط المؤمنين عليهم لقتلهم. وقد رُوي أنه عقب المعركة أقبل بعض المؤمنين يتفاخرون بأنهم قتلوا وأسروا فنزلت الآية تنهاهم عن الافتخار.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ هذه الجملة من الآية تذكر ما جرى حين دنا المسلمون من المشركين فرفع رسول الله ﷺ يديه بالدعاء فقال: يا رب إن تُهلك هذه العصابة ـ أي الجماعة المسلمة ـ فلن تُعبد في الأرض أبداً، فقال له الملك جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولّوا مدبرين. والمعنى: وما رميت يا محمد وجوه القوم بقبضة من تراب بقدرتك الذاتية فامتلأت بها عيون المشركين وشغلوا بها عن قتالكم، لم يكن ذلك بقدرتك الذاتية ولكنها كانت رمية الله حتى فعلت ما فعلت وأوصلها مع قلتها إلى عيون المشركين.

﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا﴾ ليبلي من البلاء بمعنى الاختبار وقد يكون بالنعمة كما يكون بالمحنة والمراد به هنا النعمة. أي وليُنعم الله على المؤمنين بالنصر على أعدائهم، ويغنمهم ما معهم من سلاح وعتاد ويثيبهم على جهادهم مع رسول الله ﷺ وذلك هو النعمة الحسنة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إن الله سميع أيها المؤمنون دعاء رسوله، عليم بما فيه صلاحكم وصلاح عباده فاتقوه وأطيعوا أمره.

﴿ذَلِكُم وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ﴾ ذلكم: يعود إلى ما سبق من نعمة الله على المؤمنين، وأن الله مُضعف كيد الكافرين الذين يريدون سوءاً بالمؤمنين.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْحُ﴾ الاستفتاح: طلب النصر. والمخاطبون هنا هم كفار قريش والمعنى: إن تطلبوا من الله النصر على محمد في بدر فقد جاءكم النصر، وهذا من باب التهكم بهم حيث جاءتهم الهزيمة والذل بدل النصر. وذلك أنهم حينما خرجوا من مكة لقتال رسول الله ﷺ تعلقوا بأستار الكعبة وسألوا الله أن ينصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين بالنصر والظفر، فكأن هذا الدعاء دعاء على أنفسهم بالهزيمة ودعاء لرسول الله بالنصر، لأنه على الحق وهم على الباطل ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لكُم﴾ أي وإن تتوبوا عمّا أنتم عليه من الكفر والضلالة فهو خير لكم في الدنيا والآخرة ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ وإن عُدْتم إلى ما كنتم عليه من محاربة رسول الله وإيذائه نَعُدْ إلى ما فعلنا بكم في بدر من الهزيمة ونصرة رسول الله عليكم ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكم فِئَتُكُم شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ ولن تنفعكم جماعتكم شيئاً في حال من الأحوال ولو في حال كثرتها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ المُؤْمِنِينَ﴾ وأن الله مع المؤمنين بالنصر والتأييد.



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ولا تولوا عنه: ولا تنصرفوا عن رسول الله ﷺ.

الدواب: جمع دابة وتتناول الإنسان والحيوان مأخوذة من دب على الأرض ومشى عليها.

الصم: جمع أصم وهو الذي لا يسمع.

البكم: جمع أبكم وهو الذي لا ينطق.

يحول بين المرء وقلبه: بمعنى الحجز والفصل بينهما وهو مجاز عن غاية قربه تعالى من الإنسان، أو يمنعه من حصول ما لم يرده منه.

تحشرون: تجمعون يوم القيامة.

الدعوة إلى طاعة الله ورسوله

ويتابع القرآن فيدعو المؤمنين إلى طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ:

﴿يَا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ خاطب الله سبحانه المؤمنين بصفة الإيمان، لأن الإيمان الحقيقي يستوجب طاعتهما ﴿وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُم تَسْمَعُونَ﴾ والتولي: هو الإعراض أي لا تعرضوا عَن طاعة رسول الله مخالفين أمره ونهيه وأنتم تسمعون القرآن يتلى عليكم بالحث على طاعته. فطاعة رسول الله هي طاعة لله كما جاء في القرآن: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[النساء: ٨٠].

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ أي ولا تكونوا أيها المؤمنون كالمنافقين الذين قالوا سمعنا القرآن وهم في الحقيقة لا يسمعونه سماع تدبّر واتعاظ، وسماع تقبّل وإذعان، بل سماع نفاق ومداهنة، فكأنهم لم يسمعوا القرآن أصلاً لأنهم لم ينتفعوا بما سمعوا.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ والدواب هي كل ما دب على الأرض من إنسان وحيوان، فشر الدواب في حكم الله الذين لا يسمعون ولا ينطقون ولا يعقلون، وصف الله بذلك الكفار مع كونهم ممن يسمع وينطق وذلك لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق، فهم صمٌّ رغم أن لهم آذاناً تسمع لأنهم يرفضون أن يسمعوا دعوة الحق والهداية، وهم بكم أيضاً لأنهم لا ينطقون بكلمة وحدانية الله. وبالإضافة إلى ذلك فهم ﴿لا يعقلون﴾ أي لا عقل لهم يميزون به ما فيه النفع لهم ليعملوا به وما فيه الضرر فيجتنبوه. والمراد بكونهم ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي أنهم شر من دواب الحيوان. وهذا تصوير بليغ وصف الله فيه بكلمات قليلة فئة المشركين التي لا تنقاد إلى الهدى مهما قُدِّم إليها من براهين وحقائق ومواعظ.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِم خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ أي ولو عَلِمَ الله بعلمه الأزلي أن في هؤلاء الكفار خيراً لأسمعهم سماع هداية يوصل الحق إلى عقولهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ولو أن الله سبحانه أسمعهم آياته ومواعظه وحججه بعد أن علم أن لا خير فيهم لانصرفوا عن الاهتداء وقبول الحق جحوداً منهم وعناداً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم[1] لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي أجيبوا دعاء الله والرسول وأطيعوهما وامتثلوا أوامرهما إذا دعاكم رسول الله لما يحييكم.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُم﴾ الإحياء في الأصل تكوين الحياة في

(١) دعاكم: الضمير هنا يعود إلى رسول الله لأنه هو المباشر للدعوة التي أمره الله بها.

الجسد، والإحياء هنا مستعار لما يشبه إحياء الميت وهو إعطاء الإنسان ما به كماله وسعادته. فرسول الله يدعو المؤمنين إلى ما يحييهم، فمن يرفض الدعوة إلى الحياة؟ ولكن ما هي الأمور التي يدعوهم إليها وتكون فيها حياتهم الحقيقية؟

إنه يدعوهم إلى الإيمان بوحدانية الله والخضوع له وحده والعمل الصالح وبهما ينال الإنسان الحياة الطيبة في الدنيا والثواب في الآخرة، جاء في القرآن: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

إنه يدعوهم إلى الهدى والرشاد وتطبيق أحكام شرع الله التي فيها حياتهم، وجاء في القرآن أيضاً: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

كما أن رسول الله يدعوهم إلى الجهاد ورد كيد المعتدين، فمن انتصر بعد الحرب عاش عزيزاً مرهوب الجانب، ومن استشهد كان مع الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ المرءِ وَقَلْبِهِ﴾ والحول: هو الفصل بين شيئين، والمعنى: واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه إذا لم يستجب لله ورسوله بأن يطمس على قلبه، فلا يهتدي إلى رشاد، ولا يميز بين الخير والشر، ولا يسيطر على أهواء نفسه، فيصير على حافة الهلاك ويقع في الخسران.

أو بمعنى آخر: إن الله مالك لقلوب عباده ومتصرف في الأمور كلها، فلا يقدر ذو قلب أو عقل أن يدرك شيئاً من إيمان أو كفر، أو أن يعي شيئاً إلا بإذنه ومشيئته، فحذار من عصيان الله وغضبه إذا خالفتم أمره، فإنه في هذه الحالة يحول بين الكافر أن يؤمن، وبين المؤمن أن يكفر.

وقد يكون المعنى أيضاً: بادروا إلى الاستجابة لله ورسوله لأن الله يحول بين المرء وقلبه بالموت فيندم على تقصيره في طاعة الله ولا يقدر على استدراك ما فات.

ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وإلى الله تجمعون يوم القيامة فيجزيكم بحسب مراتب أعمالكم.

* * * * *

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

شرح المفردات:

واتقوا: احذروا وتجنبوا.

فتنة: ذنباً ومعصية وضلالاً واختلافاً بينكم.

يتخطفكم الناس: يأخذونكم بسرعة فلا تملكون أن تدافعوا عن أنفسكم.

يجعل لكم فُرقاناً: هداية في قلوبكم تفرّقون بها بين الحق والباطل.

التحذير من الفتن والخيانة

ويتابع القرآن فيحذّر من الفتن وما تجر من كوارث، ويدعو إلى اتقائها:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِين ظَلَمُوا مِنْكُم خَاصَّةً﴾ أي اتخذوا وقاية لكم من فتنة إن نزلت بكم لا يقتصر عذاب الله فيها على الظالمين بل يتعدى العذاب إليكم جميعاً الصالح منكم والطالح. والفتنة هنا فُسِّرت: بالذنب والمعصية وإقرار المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والضلال.

فالله سبحانه يأمرنا أن نتقي الفتن من أول ظهورها وقبل أن يستفحل شرّها، وحذار أن يقول الإنسان: عليَّ نفسي ولا شأن لي بغيري، فقوله هذا لا مكان له في الواقع لأن الشر سريع الامتداد لا بُدّ أن يصيبه عاجلاً أم آجلاً.

فالله يريد من كل شخص أن يكون مسؤولاً عن أي خلل في المجتمع، وأن يكون عيناً على كل مفسد حتى لا يكون هناك مجال لأي ظالم أن يعيث في الأرض فساداً.

فالأمة التي تشيع فيها الفواحش والمنكرات، وتتفرق شيعاً وأحزاباً، وتظهر فيها البدع والضلالات لهي أمة أشرفت على هاوية السقوط، وأصبحت معرّضة لعقاب الله.

وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[1].

وروي عن زينب زوج النبي ﷺ أنها قالت: «سألت رسول الله: أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال نعم إذا كَثُرَ الخبث»[2] والخبث هو الفساد.

ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ أي أن الله يعاقب عقاباً شديداً كل من خالف أمره، ولم ينكر على الظالمين ظلمهم.

---

(١) أخرجه البخاري والترمذي.
(٢) أخرجه البخاري.

ثم يذكّر القرآن المهاجرين بِنِعَمِهِ عليهم:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾ أي واذكروا ـ يا معشر المهاجرين ـ الوقت الذي كنتم فيه قلة مستضعفة في أرض مكة تحت سيطرة كفار قريش ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ والخطف: الأخذ بسرعة. والمعنى: تخافون أن يتخطفكم المشركون لشدة عداوتهم لكم فيفتنوكم عن دينكم وينالوكم بالمكروه في أنفسكم وأعراضكم أو يقتلوكم ﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ أي أوجد لكم مكاناً تأمنون فيه على دينكم وأنفسكم حين هاجرتم إلى المدينة المنورة[١]، فاستقبلكم الأنصار بالترحاب، وهيأ لكم أسباب النصر في غزوة بدر، بما أمدكم الله به من الملائكة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وساق لكم الخيرات الكثيرة ومن بينها غنائم غزوة بدر التي استوليتم عليها بعد هزيمة المشركين لعلّكم تشكرون هذه النعم التي أنعمها عليكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ وخيانة الله تكون بترك فرائضه، وارتكاب معاصيه، ومجاوزة حدود شرعه. وخيانة رسول الله ﷺ تكون بهجر سنّته وإفشاء سره للمشركين والتعاون معهم ضده. والنفاق أسوأ مظاهر الخيانة لأن سلوك المنافق وأفعاله تنافي الأمانة، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا ائتُمِن خان»[٢].

والآية التي نهت عن خيانة الله ورسوله نزلت في أبي لبابة وذلك أن رسول الله حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله الصلح فأبى رسول الله أن يعطيهم ذلك إلاّ أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا أرسل إلينا أبا لبابة

---

(١) المدينة المنورة هي تسمية حديثة لمدينة الرسول، وقد كان يطلق عليها اسم (المدينة) و (يثرب). وقد آثرت أن أطلق عليها في هذا التفسير اسم المدينة المنورة بما هو معروف الآن وحتى لا يلتبس اسم المدينة على القارىء العصري لأن اسم المدينة يطلق حالياً على كل مدينة من المدن.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وفي رواية لمسلم: من علامات المنافق ثلاثة.

وكان ناصحاً لهم لأن ماله وولده وعياله كانوا عندهم فبعثه رسول الله فأتاهم فقالوا يا أبا لبابة ما ترى؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه يعني أنه الذبح فلا تفعلوا. يقول أبو لبابه: ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله. هذا وقد حكم فيهم سعد بما يُحكم على الخونة فقال: إني أحكم فيهم أن يُقتل الرجال، وتقسّم الأموال وتُسبى الذراري والنساء.

﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُم وَأَنتُم تَعْلَمُونَ﴾ أي ولا تخونوا في الأمانات التي تكون فيما بينكم وأنتم تعلمون أوامر الله ونواهيه فيها.

ومن الخيانة إفشاء سر الدولة وإعطاؤه للأعداء والاستعانة على المسلمين بأعدائهم، ومن الخيانة عدم تولية الأكفاء، وعدم النصح لأولياء الأمور.

ومن الخيانة في الأمانات: التصرف بالودائع بغير وجه شرعي كبيعها بدون إذن صاحبها أو إنكارها أو التهاون في حفظها.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُم فِتْنَةٌ﴾ والفتنة من معانيها: الاختبار والامتحان والضلال والإثم. ومعنى الآية: وليكن معلوماً لديكم أن أموالكم وأولادكم امتحان واختبار لكم من الله وسبب للوقوع في الضلال والإثم، فلا تكسبوا أموالكم عن طريق المحرّمات كالغش وأكل أموال الناس بالباطل، ولا تبخلوا به على العيال والمساكين، ولا تضيّعوا أموالكم في التبذير وفيما حرّمه الله، ولا يحملنكم حبكم لأولادكم وتوفير المال لهم على الإقدام على معصية الله باختلاس مال، أو قبول رشوة، ولا يصرفكم حبكم لهم عن القيام بجلائل الأعمال وواجباتكم نحو ربكم، أو الإهمال في تربيتهم على طاعة الله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ واعلموا أن الله عنده خير وثواب عظيم، فأطيعوا الله حتى تنالوا ذلك الأجر العظيم.

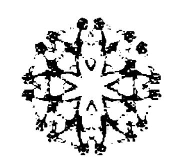
﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُم فُرْقَاناً﴾ فالله سبحانه

يخاطب المؤمنين بأنهم إذا اتقوه بطاعته واجتناب معاصيه يجعل لهم فرقاناً. والفرقان مصدر يفيد المبالغة وأصله من الفرق وهو الفصل بين الشيئين. وقد فُسِّر الفرقان بأنه نور يجعله الله في قلوب المؤمنين ينير بصيرتهم فيفرقون به بين الخبيث والطيب من الأعمال. وهذا المعنى يفسّره قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقيل المراد بالفرقان: هو ملكة من العلم والحكمة يضعها الله في قلوب المتقين، فيفرّقون بها بين الحق والباطل، ويميّزون بها بين الضار والنافع، وقد سمّى الله القرآن بلفظ الفرقان لأنه فَرّقَ بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر.

وقيل أيضاً: بأن الفرقان هو النصر على الأعداء لأنه يفرق بين الكفر بإذلال حزبه، والإسلام بإعزاز أهله، وقد سمّى الله يوم غزوة بدر التي انتصر فيها المسلمون على المشركين ﴿يَوْمَ الفُرْقَانِ﴾.

ولا تقتصر ثمرات التقوى على أن يجعل الله للمؤمنين فُرقاناً بل هناك زيادة على ذلك: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُم سَيِّئَاتِكُم وَيَغْفِرْ لَكُم﴾ أي أن الله سبحانه بسبب التقوى يتجاوز عما اقترفتم من آثام ويغفرها لكم ولا يعاقبكم عليها في الآخرة ﴿وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ والفضل: هو العطاء والإحسان والكرم فالله وحده له الفضل العظيم على جميع خلقه.



﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) ﴾.

شرح المفردات:

يمكر: المكر هو الاحتيال والخديعة وتدبير الشر خفية.

ليثبتوك: ليحبسوك ويوثقوك.

ويمكر الله: يحبط كيدهم ويوقع السوء بهم من حيث لا يشعرون.

أساطير الأولين: ما سطروه في كتبهم من الأحاديث المكذوبة والقصص الخيالية.

يصدون عن المسجد الحرام: يمنعون المسلمين من الطواف بالمسجد الحرام.

مكاء: المكاء هو الصفير.

تصدية: تصفيقاً.

المكر السيىء يصيب فاعله

ثم تأتي الآيات التالية مبيّنة فضل الله على رسوله محمد ﷺ حيث أنجاه من مكر الكافرين:

﴿وإذْ يَمْكُرُ بكَ الّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أوْ يَقْتُلُوكَ أوْ يُخْرِجُوكَ﴾ والمكر: تبييت نية الشر مع قصد الضرر بالخصم. والمعنى: واذكر يا محمد إذ يمكر بك الذين كفروا، وكان هذا المكر حينما اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا في شأن محمد الذي بدأت دعوته تنتشر، فقال قائلهم: أرى أن تأخذوا محمداً وتحبسوه في بيت مقيداً وتشدّوا وثاقه وهذا معنى ﴿ليُثْبِتُوكَ﴾ وبهذا يمنعونه من لقاء الناس والدعوة إلى دين الله. وقال آخر: أرى أن تحملوه على بعير وتخرجوه من بين أظهركم، وبهذا تحولوا بينه وبين قومه. وقال أبو جهل: نأخذ من كل قبيلة غلاماً من أكرم القوم حسباً ثم يُعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه به ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرّق دمه في القبائل كلها فلا يتمكن قومه من الأخذ بثأره ويرضون بأخذ ديته، فأتى الملك جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه وأخبره بمكر القوم وأن الله أَذِنَ له بالخروج من مكة فخرج منها وهذا من أسباب هجرة رسول الله ﷺ من مكة.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ[1] واللّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ ويعاملهم الله معاملة مكرهم ويجازيهم جزاء مكرهم، والله خير المجازين لمكر الماكرين فهو يبطل مكرهم من حيث لا يشعرون ويرتد مكرهم عليهم.

---

(١) الغالب في عادات البشر أن يكون المكر فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل والله منزه عن هذا وإنما أُسند المكر إلى الله من باب المشاكلة بتسمية تخييب سعيهم في مكرهم أو مجازاتهم عليه باسم المكر. والحق أن المكر منه الخير ومنه الشر وقد جاء في مفردات القرآن للأصفهاني: المكر ضربان مكر محمود وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميلٍ، ومكر مذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح.

ويفهم من الآية أن المؤامرات التي يحوكها دعاة السوء كثيراً ما ترتد على فاعلها وهذا ما ذكره القرآن: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] فالنصر والفوز دائماً للمؤمنين الصادقين الداعين إلى الخير والفضيلة.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ أي وإذا قرئت على كفار قريش آيات القرآن قالوا عناداً ورفضاً للحق: سمعنا مثل هذا الذي جاء به محمد ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ لو: حرف امتناع لامتناع، فتعليق إتيانهم بمثل هذا القرآن على المشيئة اعتراف منهم بعجزهم عن الإتيان بمثل كلام القرآن، ولو قدروا على ذلك ما تخلفوا عنه وهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة، هذا مع العلم أن القرآن تحدى فصحاء العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو بسورة واحدة فعجزوا، فهذا العجز دليل على أن القرآن من عند الله ﴿إِنْ هَذَا إلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي أن هذا القرآن الذي تتلوه علينا يا محمد ما هو إلا ما سطّره الأولون من الحكايات والقصص وليس كلام الله تعالى. وقد روي أن قائل هذا القول هو النضر بن الحارث فإنه كان ذهب إلى بلاد فارس فأحضر منها قصصاً عن ملوكهم. ولما قدم مكة ووجد رسول الله يتلو القرآن قال للمشركين: لو شئت لقلت مثل هذا، وكان النبي إذا قام من مجلس جاء بعده النضر فجلس فيه وحدث المشركين بأخبار ملوك فارس والروم. . .

وقد أسند الله سبحانه قول النضر إلى جميع المشركين لأنهم كانوا راضين بقوله ولأنه كان من زعمائهم الذين يقودونهم إلى طريق الغواية. هذا مع العلم أن ما يحكيه النضر من الحكايات ليس له منهج إلَهي وليس فيه ما يستحوذ على السامع من بلاغة الكلام وسموّ المعنى.

ومن أقوال المشركين التي تدل على انعدام الفكر والمنطق السليم عندهم قولهم:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والقائل بهذا هو أبو جهل: والمعنى: اللَّهم إن كان هذا

القرآن هو الحق المنزل من عندك فعاقبنا بإنزال حجارة ترجمنا بها من السماء وتهلكنا كما عاقبت أصحاب الفيل، أو ائتنا بعذاب شديد الإيلام غير إنزال الحجارة.

وهذا من أعجب الأمور التي تثير الدهشة، فالمنطق السليم يستوجب أن يدعو هؤلاء المشركون ربهم: اللَّهم إن كان هذا القرآن هو الحق المنزل من عندك فاهدنا ووفقنا إلى التسليم به واتّباعه، ولكن عنادهم وحقدهم الأعمى لرسول الله جعلهم يؤثرون الهلاك على القبول بالحق. وهذا نمط من الناس موجود في كل زمان لا يحبون الإقلاع عمّا هم عليه من الضلال مهما بينت لهم الصواب من الخطأ وقد جاء في القرآن في وصف هؤلاء في موضع آخر منه ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

ولكن القرآن هو الحق فلماذا لم ينزل الله العذاب بهؤلاء الطغاة الذين يرفضون دعوة الحق؟ أجاب الله على ذلك بقوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أي وما كان الله ليستأصلهم بالعذاب ما دمت بينهم يا محمد لأن سنّة الله قضت أن لا يُعذب قوماً ونبيها بين أظهرهم، وعذاب الله حين ينزل يعم الجميع ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله، لأن النبي ﷺ لما هاجر من مكة بقي فيها من المسلمين من لم يستطع الهجرة من مكة، وكان هؤلاء المؤمنون يستغفرون الله، وقيل: إن هذا دعاء للمشركين إلى الإيمان والاستغفار ليتحاشوا العذاب.

هذا وقد جعل الله في أمة محمد ﷺ أمانَيْن هما: وجود رسول الله فيهم، والاستغفار، فمضى رسول الله إلى ربه وبقي الاستغفار، وبهذا الاستغفار يرفع الله العذاب عن أمة محمد ﷺ فإذا عصوا الله ولم يتوبوا ولم يطلبوا الغفران منه على ذنوبهم أصابهم الله بعذابه كما حصل لكثير من الأمم.

ويتابع القرآن الكلام عن المشركين:

﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي وأي سبب يقتضي أن لا يعذّب الله المشركين وهم يمنعون رسول الله ﷺ والمؤمنين عن العبادة في المسجد الحرام والصلاة فيه ومن زيارته، إنهم يستحقون أن يُعذبوا بفعلهم هذا ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أولياء: جمع وليّ وهو من يُعهد إليه برعاية شيء والاهتمام به، أي أنهم غير أهل لولايتهم على المسجد الحرام وذلك لإشراكهم بالله وعبادتهم للأصنام ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ إنما أولياؤه المتقون الذين آمنوا بوحدانية الله وصدّقوا برسوله محمد واجتنبوا ما حرمه الله عليهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك بسبب جهلهم وتماديهم في الكفر والضلال. وإسناد هذا الجهل إلى أكثرهم يفيد أن فيهم قلة يعلمون هذه الحقيقة ولكنهم يكتمون إيمانهم ويتحينون الفرصة لإعلانه.

ثم يبين الله لوناً آخر من ضلال المشركين:

﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ والمراد بالبيت: الكعبة، وبصلاتهم عنده أي الصلاة في المسجد الحرام. والمكاء: هو الصفير ـ والتصدية: هي التصفيق. وقد روي أنهم كانوا يطوفون حول الكعبة عراة الأجسام يصفرون ويصفقون وكان ذلك عبادة في نظرهم، فصلاتهم هذه ليس فيها وقار ولا خشوع لله ولا استشعار لحُرمة بيت الله الحرام ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ هنا التفات إلى مخاطبة المشركين بعد الكلام عن مساوئهم وهذا الخطاب يحمل التهديد والوعيد، قيل المقصود بالعذاب هنا عذاب الآخرة، أو ما ينتظرهم من العذاب الدنيوي كما حصل لهم يوم معركة بدر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ليصدوا عن سبيل الله: ليمنعوا الناس عن دين الله.

حسرة: ندماً وغماً.

ليَميز: يفصل الخبيث من الطيب.

فيركمه: يجمعه ويضم بعضه على بعض.

ما سلف: ما مضى.

سُنّة الأولين: طريقة الأولين السابقين.

لا تكون فتنة: شرك وضلال أو لا يفتن مؤمن عن دينه.

الكافرون ينفقون أموالهم لمحاربة الإسلام

ويتابع القرآن فيبين مؤامرات الكافرين على الإسلام وسعيهم للقضاء عليه:

﴿إِنَّ الَّذِين كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن الذين كفروا يصرفون أموالهم لمنع الناس عَنْ دين الله كما فعل رؤساؤهم وأغنياؤهم حيث أنفقوا

الأموال الطائلة على الجيش الذي أعدوه لمحاربة المسلمين يوم معركة أُحُد ويوم معركة بدر ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ أي أن هذه الأموال التي أنفقوها في محاربة الإسلام سدى ستكون نتيجتها ندماً وأسفاً على ما أنفقوا ثم تكون الهزيمة لهم آخر الأمر. وهذه الآية من الأنباء الغيبية التي تحققت، فقد نزلت الآية حينما كان المسلمون قلة مستضعفة يحيط بها الكفار من كل جانب فما هي إلاّ سنوات قليلة حتى انتصر الإسلام على كل أعدائه ﴿وَالَّذِين كَفَروا إِلَى جَهَنَّم يُحْشَرُونَ﴾ والذين أصروا على الكفر وماتوا عليه يُساقون يوم القيامة إلى جهنم ليعذّبوا بنارها.

واليوم يتكرر ما فعله الكفار سابقاً فنرى أعداء الإسلام ينفقون الأموال الطائلة في محاربة الإسلام بوسائل الإعلام المختلفة، أو بواسطة عملائهم المبثين في بلاد المسلمين، أو بإثارة النزاعات والتفرقة بين الدول الإسلامية للسيطرة عليها تمهيداً لصد المسلمين عن دينهم.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ ليميز: يفصل ويفرق، والمعنى: ولقد جعل الله النصر لفريق المؤمنين والخذلان والحسرة لفريق الكافرين لكي يفصل بين العمل السيىء الضار، وبين العمل الطيب النافع ﴿وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي ويجعل الله فريق الكفار الخبيث بعضه فوق بعض ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ فيجمع هذا الصنف الخبيث ويضم بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا لفرط كثرتهم وازدحامهم ثم يُطرحون في جهنم ليعذّبوا بنارها ﴿أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرونَ﴾ أولئك هم أعظم الخاسرين لأنهم خسروا الدنيا والآخرة ولأنهم اشتروا بأموالهم ما هو المسبب لعقابهم في الآخرة، فما ربحت تجارتهم وكانوا هم الخاسرون.

﴿قُلْ لِلَّذين كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَا قَدْ سَلَفَ﴾ قل يا محمد للذين كفروا من مشركي قومك: إن يَتركوا ما هم عليه من الكفر بالله وتكذيبك، ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين، إنهم إن فعلوا ذلك ودخلوا في حظيرة الإيمان، واتبعوا ما جئت به من

الهدى: يغفر الله لهم ما سبق من ذنوبهم قبل إيمانهم. وفي هذه الآية دليل على أن الإسلام يمحو ما قبله من الذنوب، وأن الكافر إذا اعتنق الإسلام لم يلزمه شيء من قضاء العبادات البدنية والمالية. وقد جاء في الحديث الشريف: «الإسلام يجبُّ[١] ما قبله والتوبة تجب ما قبلها»[٢] ﴿وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ وإن يعد هؤلاء الكفار إلى محاربتك بعد الهزيمة التي لحقت بهم في غزوة بدر، فقد مضت طريقة الله في الأولين من الأمم قبلهم بأنهم إذا طغوا وكذبوا رسل الله ولم يقبلوا نصحهم فإنه يحل عليهم عذاب الله فيهلكهم. وهنا تهديد ووعيد لمن أصرَّ على كفره وإيذاء المسلمين.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فقاتلوا ـ أيها المؤمنون ـ هؤلاء المشركين حتى لا يكون هناك شرك بالله وعبادة للأصنام، وحتى لا يكون هنالك بلاء على المؤمنين من الإيذاء والتعذيب ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ ولكي تكون الطاعة والعبادة كلها خالصة لله دون غيره ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ فإن امتنع المشركون عن الكفر والمعاصي بالتوبة والإيمان، وامتنعوا عن إيذاء المؤمنين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فإن الله لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وهو بصير بنواياهم فيجازيهم على أفعالهم ونواياهم.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ﴾ أي وإن أعرضوا عن الإيمان وأصروا على الكفر وأصروا على قتالكم ـ أيها المؤمنون ـ فقاتلوهم وأيقنوا أن الله مُعينكم عليهم وناصركم وهو ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ نعم المعين لكم المتولي أمركم ونعم النصير لا يُغلب من ينصره، وكل من كان في حماية الله أَمِنَ من الخوف والأذى.

* * * * *

---

(١) تجب: تمحو.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) ﴾.

شرح المفردات:

غنمتم: الغنيمة ما كسب بالحرب.

يوم الفرقان: يوم غزوة بدر وسمي بذلك لأنه فُرق فيه بين الحق والباطل.

الجمعان: جمع المؤمنين وجمع الكفار.

العدوة: طرف الوادي وحافته.

الدُّنيا: تأنيث الأدنى بمعنى الأقرب.

القصوى: مؤنث الأقصى أي الأبعد.

الركب: قافلة الجمال التي تحمل تجارة قريش.

عن بَيِّنة: عن حجة واضحة.

لفشلتم: لتهيبتم وأصابكم الجبن من لقاء العدو.

بذات الصدور: بما تنطوي عليه القلوب.

الكلام عن الغنائم وغزوة بدر

وبعد أن أمر الله تعالى بقتال الكفار بيّن بعد ذلك حُكْمَ الغنائم التي تؤخذ منهم بعد الانتصار عليهم، وطريقة قسمتها بين المحاربين وغيرهم من المستحقين:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى واليَتَامَى والمسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

والغنيمة هي كل شيء ظَفِرَ به المسلمون من مال العدو وسلاحه وأمتعته عن طريق الحرب على وجه الغلبة والقهر، أما ما آل إلى المسلمين من مال العدو على وجه الصلح من غير حرب فيسمى «الفيء».

فكل ما غنمه المسلمون عن طريق الحرب يُقسّم على خمسة أقسام، فخمس الغنيمة يقسم على الفئات التي ذكرتهم الآية، وأربعة أخماس الغنيمة الباقية مقسومة على المحاربين.

أما خمس الغنائم فيقسّم على الفئات التالية:

١ ـ ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَللرسُولِ﴾: المقصود بذكر لفظ الجلالة (الله) هو افتتاح الكلام في قسمة الغنائم على سبيل التبرك لأن الله عز وجلّ له ملك الدنيا والآخرة، وقيل نصيب الله أي سهمه المقصود به هو الإنفاق على بيت الله الحرام والكعبة ووجوه الخير.

وسهم الله تعالى وسهم رسوله محمد ﷺ واحد، فرسول الله يأخذ منه كفايته لنفسه وعياله، وأما بعد موت النبي ﷺ فيُصرف سهمه في مصالح المسلمين وما فيه قوة للإسلام، وقيل إنما سهمه يصير إلى وليّ أمر المسلمين. وقيل يرد إلى بقية الأصناف الأربعة: لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

٢ ـ ﴿وَلِذي القُرْبى﴾: هم أقارب رسول الله ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب

لأن آل محمد ﷺ لا تحل لهم الصدقة، فجعل لهم الإسلام نصيباً من الغنائم، واختلف في سهم ذوي قرابة النبي ﷺ بَعْدَ موته فقيل يظل ثابتاً إكراماً لهم وتشريفاً، ويُقدم فقراؤهم على فقراء غيرهم، وقيل يعود ذلك إلى وليّ أمر المسلمين.

٣ ـ ﴿واليَتَامَى﴾: جمع يتيم والمراد به من فقد أبويه أو أحدهما قبل سنّ البلوغ فيعطى من الخُمُس ما يسدّ حاجته وفقره.

٤ ـ ﴿والمسَاكِينِ﴾: وهم الفقراء أهل الحاجة والفاقة من المسلمين.

٥ ـ ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر في غير معصية ونفد ماله ولا يجد ما ينفقه قبل أن يصل إلى بلده.

وحكمة تقسيم الخُمُس على هذا النحو أن الدولة التي تدير سياسية الأمة لا بد لها من مال تستعين به على ذلك وهو أقسام: أولها ما كان للمصلحة العامة كشعائر الدين والحفاظ عليها وهو ما جعل (لله) في الآية. وثانيها ما كان لنفقة إمامها ورئيس حكومتها وهو سهم رسول الله فيها. وثالثها ما كان لأقوى عصبته وأخلصهم له وأظهرهم تمثيلاً لشرفه وكرامته وهو سهم أولي القربى. ورابعها ما يكون لذوي الحاجات من ضعفاء الأمة.

أما الأربعة الأخماس الباقية فتقسّم على المحاربين، فيعطى للفارس ثلاثة أسهم، ومن الفقهاء من يقول للفارس سهمان، وللراجل أي الذي يحارب بدون فرس سهم واحد. وقد جعلت لهؤلاء الغنائم اعترافاً بشجاعتهم وصبرهم، وتقديراً لبلائهم وما عرّضوا أنفسهم للمخاطر.

وبعد هذا الشرح للآية نأتي على بقيتها: ﴿إِنْ كُنْتُم آمَنْتُم بِاللَّهِ﴾ أي اعلموا أن ذلك هو حُكْمُ الله في توزيع الغنائم، فاعملوا به إن كنتم مؤمنين حقاً باللَّهِ ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرقَانِ﴾ وصدّقتم بما أنزل الله على عبده محمد ﷺ من آيات القرآن، ونزول الملائكة لتثبيت قلوبكم، وإلقاء الرعب في قلوب أعدائكم يوم غزوة بدر، وهو

يوم الفرقان، وقد سمي بذلك لأن الله فَرّقَ فيه بين الحق والباطل وبين الإيمان والكفر بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين ﴿يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ﴾ أي يوم التقى جمع المؤمنين، وجمع المشركين حيث التقوا يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون كان عددهم بين الألف والتسعمائة مقاتل، فانهزم المشركون أمام هذه القِلّة من جيش المسلمين ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وما أصاب المؤمنون من نصر آنذاك فإنما حصل بقدرة الله التي لا يعجزها شيء، فعليكم أيها المؤمنون أن تداوموا على طاعة الله وشكره.

ويتابع القرآن الكلام على غزوة بدر قبل التحام الجيشين بأسلوب تصويري بديع وعلى تدبير الله المحكم الذي أدى إلى نصر المؤمنين قال تعالى:

﴿إِذْ أَنتُم بِالعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالعُدْوَةِ القُصْوَى﴾ والعدوة جانب الوادي وحافته. والمعنى: واذكروا ـ أيها المؤمنون ـ حين كنتم بجانب الوادي القريب من المدينة المنورة، والمشركون في جانب الوادي البعيد عن المدينة إلى ناحية مكة ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ والقافلة التي بقيادة أبي سفيان بما معه من التجارة كانت في موضع أسفل منكم مما يلي ساحل البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُم فِي المِيعَادِ﴾ ولو كان اجتماعكم أنتم وجيش قريش عن ميعاد للقتال لما حصل لكم هذا التوافق عليه ولكنتم تخلفتم عنه، لكراهة الكثير منكم الحرب بسبب قلتكم وعدم استعدادكم لقتال جيش قريش، وما كان همكم إلا الاستيلاء على قافلة قريش، كما أن غرض المشركين كان إنقاذ القافلة من أيدي المسلمين لا غير ﴿ولكن لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ ولكن الله دفع الفريقين للقتال، وهيأ له الأسباب لأمر قد حكم بأن ينفذ وسيتحقق، وهو هزيمة المشركين وخزيهم وانتصار المسلمين.

﴿لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ الهلاك والحياة هنا مستعاران للكفر والإيمان، والمعنى: ليصير كفر من يكفر صادراً عن حجة قاطعة ضده

بأنه على باطل، وليكون إيمان من آمن صادراً عن حجة ويقين بأن دينه هو دين الحق الذي يجب التمسك به.

وهناك من فسّر البيّنة في الآية بالمعجزة، ويكون المعنى: ليموت من يموت من الكفار بعد مشاهدة هذه المعجزة، معجزة انهزامهم أمام المسلمين مع كثرتهم، والمؤمنون الذين بقوا على قيد الحياة شاهدوا هذه المعجزة، معجزة انتصارهم على المشركين مع قلّة عددهم ﴿وإن اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ في مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ واذكر يا محمد فضل الله عليك وعلى أصحابك حيث أراك الله في منامك المشركين بأنهم قليلو العدد، فأخبرت بذلك أصحابك فاطمأنت نفوسهم، وكانت تلك الرؤيا المنامية لتشجيع المؤمنين على القتال وأن لا يهابوا أعداءهم، وقيل إن القلة لم تقصد حقيقتها وإنما قصدت نتيجتها وهي ضعفهم، أي أن بلاء الكفار في المعركة سيكون قليلاً، وأن كيدهم سيكون ضعيفاً فتجرأ المؤمنون على القتال وقويت قلوبهم ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ في الأَمْرِ﴾ ولو أن الله صوّر لرسوله محمد ﷺ المشركين بأنهم كثيرون وأخبر بذلك المؤمنين لتردد بعض المؤمنين عن القتال جبناً وخوفاً، ولحدث بينهم نزاع في شأن قتالهم للمشركين ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ولكن الله عصم المؤمنين من الخلاف والتنازع وأنعم عليهم بالسلامة، إنه عليم بما في القلوب التي في الصدور من شجاعة وجبن، وصبر وجزع.

﴿وإذ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَقَيْتُمْ في أَعْيُنِكُم قَلِيلاً﴾ واذكروا أيها المؤمنون وقت أن التقيتم مع أعدائكم وجهاً لوجه في غزوة بدر، كيف أن الله جعل عدد الكفار في نظركم قلة[1] لتزدادوا جرأة عليهم وطمعاً فيهم ﴿وَيُقَلِّلُكُم في أَعْيُنِهِمْ﴾ ويقلل الله عدد

---

(١) يقول عبد الله بن مسعود وهو ممن حضر معركة بدر: قلت لجار لي: أظنهم سبعين ـ أي المشركين ـ فقال: لا بل مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً.

المؤمنين في أعين الكفار ليزدادوا طمعاً فيهم، وتقلّ مبالاتهم بحربكم، ويزدادوا غروراً واستهتاراً بكم، وبهذا التصور لكل منكم يقدم كل فريق على قتال الآخر، فتتوفر أسباب النصر للمسلمين بإيمانهم بأنهم متفوقون على الكفار، وتتوفر أسباب الهزيمة للكفار لاعتقادهم بأن المسلمين قلة لا يستحقون الاهتمام ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ ليتم تنفيذ أمرٍ علمه الله وكان لا بدّ أن يتم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ وإلى الله تُرجع أمور العالم كله فلا ينفذ أمر إلاّ ما قد قضاه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

شرح المفردات:

فئة: جماعة.

فاثبتوا: فاصمدوا.

ولا تنازعوا: ولا تختلفوا.

تذهب ريحكم: تذهب قوتكم أو دولتكم.

بطراً: فخراً واستعلاء وطغياناً.
رئاء الناس: الرياء إظهار العمل رغبة في أن يراهم الناس فيعجبوا بهم ويثنوا عليهم.
يصدّون: يمنعون ويصرفون.
زَيَّنَ: حَسَّن.
جَارٌ لكم: مجير وناصر ومعين.
نكص على عقبيه: رجع القهقرى وولى هارباً.
غر هؤلاء دينهم: خدع هؤلاء المسلمين دينهم.

مقومات النصر

ثم ينتقل القرآن إلى مخاطبة المؤمنين مبيناً لهم الأمور التي تساعدهم على النصر:

١ ـ الثبات في وجه العدو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ أي يا أيها الذين صدّقوا بوجود الله ووحدانيته، إذا حاربتم جماعة من أعدائكم فاصمدوا لقتالهم حتى النهاية، ولا تُحدّثوا أنفسكم بالتراجع من أمامهم، فالثبات المراد به هنا: المواجهة الشجاعة، والمحارب إذا ما كان ثابتاً في القتال فالعدو يخشاه ويهابه. هذا وإن النظام الحربي المعاصر يقضي بقتل الجندي الفار من القتال خشية أن تنتقل عدوى فراره إلى غيره فتحدث آنذاك البلبلة والجزع في صفوف الجيش ويكون ذلك داعياً إلى هزيمتهم.

٢ ـ الإكثار من ذكر الله: ﴿وَاذْكُروا اللَّهَ كثيراً لَعَلَّكم تُفْلِحُونَ﴾ وأكثروا من ذكر الله في أثناء القتال، اذكروه في قلوبكم بذكر قدرته وعظمته، واسألوه العون والتأييد وتحقيق وعده بنصر المؤمنين، فافعلوا ذلك ليكون الفوز والنصر حليفكم.

وَذِكْرُ الله في الحرب والمداومة عليه له تأثير فعَّال في الحصول على النصر لأن الإيمان بالله واستحضار عظمته وقوته يمدان المحارب بقوة معنوية هائلة تسند القوة المادية ويكون لها الأثر الكبير في نفسية المحارب.

٣ ـ طاعة الله ورسوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وذلك بالتزام الأوامر واجتناب النواهي التي أمرهم الله بها وبلّغهم رسول الله إياها، سواء أكانت تتعلق بشؤون القتال أم بسواها. فقد كان رسول الله هو قائد المسلمين في أغلب المعارك التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم، وبعد وفاته وجب عليهم طاعة قادتهم في القتال.

٤ ـ الاختلاف يؤدي إلى الفشل: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ أي ولا تختلفوا فيما بينكم وكونوا يداً واحدة فإن الاختلاف والتنازع مدعاة للفشل ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُم﴾ والريح معناها هنا: القوة والغلبة والسيادة، يقال: «هبت رياح فلان» إذا كانت له السيادة وجرى أمره على ما يريد. والمعنى: بسبب تنازعكم تذهب قوتكم وتنتهي سيادتكم.

فالتنازع هو من أبرز الأسباب لهزيمة المقاتلين، فالجيش الذي يقاتل عدوه كتلة واحدة متراصة لهدف واحد ليس كالجيش الذي تتنازعه الأهواء والأطماع، وأكثر المعارك التي خسرها المسلمون بعد وفاة نبيهم سببها النزاع فيما بينهم، وقد أدرك اليهود والمستعمرون هذه الحقيقة فكانوا يثيرون الفرقة والتنازع بين الدول التي يريدون السيطرة عليها بواسطة عملائهم عاملين بالمبدأ الشهير «فرق تسد».

٥ ـ الصبر في مواجهة العدو: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فالله يدعو المؤمنين إلى الصبر على الشدائد التي تعترضهم في مواجهة العدو، وبالأخص إذا كان عدوهم صابراً شديد البأس، ولهذا كان على المؤمن أن يمتلك رصيداً من الصبر يفوق صبر العدو، والله سبحانه مع الصابرين بالمعونة والتأييد، ومن كان الله معه فلا بد أن ينتصر على عدوّه. والقرآن قدّم لنا أمثولة ودرساً في الصبر عن أصحاب طالوت عندما واجهوا أعداءهم حيث دعوا ربهم قائلين: ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

٦ ـ الإخلاص لله وعدم الرياء: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذين خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ والبطر: الطغيان عند النعمة وترك شكرها وجعلها وسيلة إلى ما لا

يرضاه الله. والرياء أن يعمل المرء على خلاف ما هو عليه لأجل الثناء عليه. فالله سبحانه ينهى عباده المؤمنين عن التشبّه بالكفار الذين غادروا مكة ليقاتلوا المسلمين بطرين بما أُوتوا من قوة، كافرين بِنِعَمِ الله، مرائين للناس ليثنوا عليهم بأنهم أولو قوة وشجاعة ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والصد عن سبيل الله إضلالهم للناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية.

هذه الآية تشير إلى ما كان من قريش حينما خرج رجالها من مكة لإنقاذ قافلتهم المحمّلة بالمؤن على احتمال وقوعها في أيدي المسلمين قبل معركة بدر، ولما علم أبو سفيان بغرض المسلمين أفلت بقافلته منهم وسلك طريق الساحل. وأرسل إلى قريش رسولاً يخبرهم بأن قافلتهم قد سَلِمَت من أيدي المسلمين، لكن أبا جهل وهو من زعمائهم قال: «والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نَرِد (بدراً) فنشرب فيها الخمر، وتعزف علينا القيان[1]، وننحر الجُزُر[2]، ونطعم بها من حضرنا من العرب» فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم.

هكذا كان حال جيش قريش قبل معركة بدر، أما بعد هزيمتهم النكراء في المعركة فقد شربوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان غناء القيان.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ والله محيط علماً بجميع ما عمله هؤلاء المشركون، وقد جازاهم بما يستحقون من ذل وهوان وهزيمة.

ويتابع القرآن فيصف الحالة النفسية للكفار قبل معركة بدر:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي واذكروا أيها المؤمنون وقت أن حسّن الشيطان للمشركين خروجهم لحربكم، ووسوس

---

(١) القيان: الجواري.
(٢) الجُزُر: مفردها جزور وهي الواحد من الغنم والماعز.

لهم قبل معركة بدر أنهم أقوياء لا يستطيع أحد من الناس أن يغلبهم ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ ووسوس لهم الشيطان بأنه مجير ومعين لهم وناصرهم ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾ وحينما تلاقى الجيشان: جيش المؤمنين وجيش الكفار، ونظر بعضهم إلى بعض ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ رجع الشيطان القهقرى مُدبراً هارباً ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾ وقال للمشركين إني بريء من نصرتكم ولا أتحمل تبعة ما يحصل لكم ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ وقال الشيطان: إني أرى من الملائكة ما لا ترون إني أخاف عقاب الله، وخوف الشيطان كان من أن تحرق الملائكة جنوده ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وعذاب الله أليم لمن عصاه.

يقول الشيخ رشيد رضا: «معنى هذا أن جند الشيطان الخبيث كانوا منبثين في المشركين يوسوسون لهم بملابستهم لأرواحهم الخبيثة ما يغريهم ويغرّهم، كما كان الملائكة منبثين في المؤمنين يلهمونهم بملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبّتون به قلوبهم ويزيلهم ثقة بوعد الله بنصرهم... فلما تراءت الفئتان وأوشكا أن يتلاحما فرّ الشيطان بجنوده من بين المشركين لئلا تصل إليهم الملائكة الملابسة للمؤمنين وهما ضدان لا يجتمعان ولو اجتمعوا لقضى أقواهما وهم الملائكة على أضعفهما، فخوف الشيطان إنما كان من إحراق الملائكة لجنوده لا على المشركين...»[1].

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ فالمنافقون هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر في سريرة أنفسهم، وهم فئة من الأوس والخزرج كانوا يريدون السيادة على المدينة المنورة وواحد منهم كان ينتظر أن يلبس تاج الملك، ولكن ظاهرة الإقبال من أكثرية أهل المدينة على الإسلام عن اقتناع وإيمان، جعلت هؤلاء المنافقين لا يستطيعون المقاومة، لذلك تظاهروا بالإسلام وبقي في قلوبهم حقد على المسلمين. والذين في قلوبهم مرض المراد بهم ضعيفو الإيمان فهم

(١) تفسير المنار.

مسلمون في ساعة الرخاء مرتابون في دينهم ساعة الشدة. والمعنى: واذكروا أيها المؤمنون وقت أن قال فيكم المنافقون والذين في قلوبهم شك في الإسلام: خَدَعَ هؤلاء دينهم وغرّر بهم فخرجوا على قلّتهم ليحاربوا من يفوقونهم عدداً وعدّة. فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومن يفوّض أمره إلى الله ويعتمد عليه فإن الله حسبه وكافيه وناصره، وهو سبحانه القوي الغالب الحكيم في كل أفعاله.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

شرح المفردات:

وأدبارهم: ظهورهم.

كدأب: كعادة.

لم يك: لم يكن.

حرّض المؤمنين: حثهم وحضّهم.

فأخذهم الله بذنوبهم: فعاقبهم الله بذنوبهم.

مآل الظالمين

وبعد الهزيمة التي لاقاها الكفار في معركة بدر حيث قُتِلَ سبعون من رجالاتهم، تأتي الآية التالية تصوّر ما حدث لهؤلاء القتلى من عذاب وإذلال عندما توفتهم الملائكة:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَروا المَلائِكَةُ﴾ الخطاب هنا للنبي ﷺ ولكل من يصلح الخطاب له. وجواب (لو) محذوف، وإذا ما حذف الجواب فقد ترك القرآن الخيال لكل إنسان أن يتصور ما حدث في أبشع صورة. والمعنى: ولو عاينت وشاهدت أيها النبي حال هؤلاء الكفار حين تتوفاهم الملائكة، وتقبض أرواحهم في معركة بدر لرأيت أمراً فظيعاً ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُم وَأَدْبَارَهُمْ﴾ والمراد من وجوههم ما أقبل منهم من وجوه وصدور. وأدبارهم: أي ظهورهم. وخُصّت الوجوه والأدبار بالضرب لأن الخزي والإذلال في ضربهما أشد، وقد يكون ذلك إشارة إلى الطريقة التي كان الكفار يعذبون بها المؤمنين، فالمقبل عليهم من المؤمنين كانوا يضربونه على وجهه، فإذا حاول الفرار ضربوه على ظهره، ولكن الفارق أن الضارب من الكفار كان يضرب بقوته البشرية المحدودة، أما الضارب من الملائكة فيضرب بقوة الملائكة الهائلة، ولكن هذا الضرب لا ينجيهم في الآخرة من عذاب النار حيث تقول لهم الملائكة: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾ وذلك عندما يُطرحون في جهنم ويُعذبون بنارها.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُم﴾ أي تقول لهم الملائكة: ذلك العذاب الذي حلّ بكم هو بسبب ما اكتسبتم من المعاصي واقترفتم من الذنوب، سواء أكان من عمل الأيدي والأرجل أو تدبير العقل، وعبّرت الآية بالأيدي دون غيرها لأن أكثر الأفعال تزاول بها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وظلام: من صيغ المبالغة، فهل يعني هذا أن الله ظالم بعض الشيء؟ لا، فالله ينفي الظلم إطلاقاً عن نفسه، لأن الله لم يقل: ليس بظلام (للعبد) بل قال ﴿ليس بظلاّم للعبيد﴾ ولو أن الله ظلم كل عبد من عباده مثقال ذرة لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد، ولكن بما أن هذه الذرّة من الظلم لم

تحدث من الله لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠] لهذا جاءت ظلّام في الآية بصيغة المبالغة»[١].

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِين مِنْ قَبْلِهِم﴾ الدأب: هو العادة التي تتكرر مع الإنسان، أي أن عادة هؤلاء الكفار من قومك ـ أيها النبي ـ وعملهم الذي داوموا عليه كشأن آل فرعون والأمم التي كانت قبلهم في إصرارهم على كفرهم بالله، رغم ما أرسل الله إليهم من رُسُل ﴿كَفَروا بآيَات اللَّهِ﴾ كفروا بشرائع الله المنزلة على رسله وحججه الدالة على وحدانيته، وجحدوا المعجزات التي أجراها على أيدي رسله التي تُثبت صدقهم ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بذُنُوبهم﴾ فعاقبهم الله على ما اقترفوه من المعاصي ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَديدُ العِقَابِ﴾ إن الله قوي لا يغلبه غالب، شديد العقاب لمن خرج عن طاعته وأصرّ على كفره وعناده.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي ذلك العذاب الذي أنزله الله بهم هو لأنهم غيّروا وبدّلوا نعمة الله التي أنعمها عليهم كفراً، فغيّر الله نعمته عليهم بإهلاكهم، والله لا يغيّر نعمة أنعمها على قوم من عزة وسلطان، ورفاهة وطيب عيش، وأمن وراحة بغيرها سوءاً، إلا إذا بدّلوا نعمة الله عليهم كفراً وجحوداً لها وبغياً في الأرض ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وأن الله سميع لأقوالهم، عليم بأحوالهم، فهو يعاقبهم على كفرهم على نِعمِه.

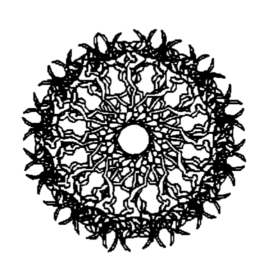
والناظر في أحوال الأمم حالياً وما تعانيه من ويلات وكوارث طبيعية ونزاعات داخلية، وحروب مدمّرة وغيرها، هذه الأحوال ما هي إلا بسبب شيوع الفساد فيها وخروجها عن تعاليم ربها، وانتشار الفواحش والمنكرات فيها، فلتتعظ الأمم بما أصابها من ويلات ولترجع إلى هدى ربها، ولتأخذ درساً بما حدث للأمم قبلها.

---

(١) باختصار عن تفسير الشعراني.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِم وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾.

كرّر القرآن ما حل بآل فرعون للتأكيد مع اختلاف بما ذكر في الآية السابقة. فالآية السابقة تقول: ﴿كَفَروا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي أنكروا الدلائل الإلهية على وجوده ووحدانيته وما أنزله على رسله من الشرائع أما الآية هنا فتقول: ﴿كَذَّبوا بِآيَاتِ رَبِّهِم﴾ فقد ذكر هنا اسم الرب مضافاً إليهم بدل اسم الله لأن في الرب والربوبية معنى أنه منعم عليهم مربٍّ إياهم، لأن نعم الله عطاء ربوبية. وتكذيب آيات المنعم المربي هو كفران لنعمه. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِم وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ هنا توضيح لهذا العقاب وهو الهلاك والإغراق في اليمّ، بينما في الآية السابقة قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بذنوبهم﴾ أي عاقبهم الله بذنوبهم. ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي كل من أهلكهم الله وعذبهم سواء أكانوا من الأمم السابقة أم آل فرعون أم كفار قريش، كانوا ظالمين بسبب كفرهم بالله وبآياته وتكذيب رسله وارتكابهم المعاصي وكفرانهم لنعم الله عليهم.



﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

شرح المفردات:

الدواب: جمع دابة وهي كل ما يدب على وجه الأرض.

ينقضون عهدهم: لا يوفون به.

تثقفنهم: تلقاهم وتجدهم.

فشرّد بهم من خلفهم: فافعل بهم فعلاً يخيف الذين وراءهم ويشردهم.

وإما تخافنّ من قوم خيانة: إن تتوقع من قوم عاهدوك خيانة بنقض العهد.

فانبذ إليهم على سواء: فاطرح إليهم عهدهم على طريق مستوٍ ظاهر بأن تعلمهم بنبذك للعهد قبل أن تحاربهم.

سبقوا: فاتوا وأفلتوا من عقاب الله.

لا يعجزون: لا يفلتون من عقاب الله وليس عاجزاً عن إدراكهم.

رباط الخيل: المكان الذي ترابط فيه الخيل المعدّة للقتال.

ترهبون: تخوّفون.

يوفّ إليكم: تعطوا جزاءه وافياً.

إعداد القوة لمجابهة المعتدين

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن فئة من اليهود وما جرى منهم مع النبي ﷺ من غدر ونقض للعهود:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ نزلت هذه الآية وما بعدها في يهود بني قريظة حيث عاهدهم النبي ﷺ على أن لا يساعدوا أعداءه فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح، وقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم أيضاً فنكثوا العهد ومالوا مع الكفار يوم معركة الخندق، فقد ذهب رئيسهم كعب بن الأشرف إلى مكة قبل معركة الخندق فحالفهم على محاربة النبي ﷺ وغزو المدينة المنورة. ومعنى الآية: إن شر ما يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه هم اليهود الذين كفروا وجحدوا نبوة محمد مع قيام الحجة عليهم وثبوت أمارات نبوته في كتبهم الدينية، لذا جعلهم الله شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية ودخولهم في جنس غير البشر وذلك لعدم تقبلهم لما فيه رشدهم وخيرهم.

﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي هؤلاء اليهود الذين أخذت عليهم العهد يا محمد بأن لا يعينوا عليك أعداءك كفار مكة بل يلتزموا الحياد، ولكنهم غدروا بك ونقضوا العهد معك، وتكرر منهم نقض العهد أكثر من مرة، وهم لم يتوقّوا مغبة الغدر، وما يجرّ عليهم من ويلات، ولا يخافون الله في فعلهم هذا.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ فإن تدرك ـ أيها النبي ـ هؤلاء الناقضين لعهدهم، وتظفر بهم في الحرب فنكّل بهم تنكيلاً شديداً بما يكون سبباً لتفريق شمل من وراءهم من الأعداء وإخافتهم من كفار مكة وغيرهم، ممن تحدّثهم بنقض العهد مع المؤمنين ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعلّهم يتعظون ويعتبرون فلا يتجرأوا على قتال المؤمنين ونقض العهد معهم.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ وإن توقع يا محمد خيانة من عدو لك بينك وبينه عهد بأمارات تنبيء عن الغدر بك ونقض العهد معك ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِم عَلَى سَوَاءٍ﴾ والنبذ: هو الطرح، أي فاطرح إليهم عهدهم وارم به إليهم وناجزهم الحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك فد فسخت العهد بينك وبينهم بما كان منهم من ظهور آثار الغدر والخيانة، حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بنقض العهد، ولا تبادرهم الحرب وهم على توهّم بقاء العهد معك فيكون ذلك خيانة منك ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ فالخيانة يبغضها الله بجميع صورها ومظاهرها ومن أي جهة صدرت.

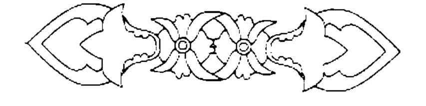
﴿ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِين كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُم لا يُعْجِزُونَ﴾ أي ولا يظنن الكفار الذين جحدوا وحدانية الله أنهم أفلتوا ونجوا من عقاب الله إياهم، كلا إنهم لا يعجزون الله عن إدراكهم والانتقام منهم في كل وقت، والمقصود بالذين كفروا هنا هم الذين نجوا من القتل في معركة بدر.

﴿وَأَعِدُّوا لهم مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ﴾ أمر الله المسلمين بأن يستعدوا لأعدائهم بكل ما يستطيعون من قوة، ولفظ القوة يشمل كل قوة تعين على دحر العدو من أسلحة البر والبحر والجو على اختلاف أنواعها ويشمل ذلك التدريب المستمر على القتال وإنشاء معاهد لتعليم فنون الحرب وإجادة استعمال الأسلحة الحديثة ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ﴾ ورباط الخيل هو المكان الذي ترابط فيه الخيل مع فرسانها عند الحدود للحراسة ومراقبة العدو ويشمل ذلك حفظها واقتناءها لاستخدامها في القتال.

وقد أمر الله بإعداد رباط الخيل لأنها كانت مركب الجيش الأساسي في زمن النبي ﷺ وقد تغير الزمان فأصبح مركب الحرب سفناً حربية وطائرات وسيارات مصفحة ودبابات، لهذا وجب على المسلمين أن يعدوا لأعدائهم ما استجد من اختراعات في آلة الحرب، والقصد من إعداد القوى الحربية هو إخافة العدو ﴿تُرْهِبُون بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم﴾ وعندما يخاف العدو قوة المسلمين يصبح المسلمون في منأى

من الاعتداء عليهم، وأعداء الله في زمن النبي ﷺ هم كفار مكة وغيرهم من العرب واليهود ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِم لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وهناك أعداء آخرون من وراء أولئك المجاهرين بعداوتكم لا تعلمونهم لتستّرهم في عداوتكم، والمراد بهم: المنافقون المندسون بين صفوف المسلمين، فإذا شاهدوا المسلمين في غاية القوة عدلوا عن الإضرار والكيد بالمسلمين ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وكل ما تنفقون من مال في إعداد الجيش للقتال والمساهمة في المجهود الحربي والإنفاق على أُسَرِ المجاهدين ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُم وَأَنْتُم لا تُظْلَمُونَ﴾ أي يعطكم الله جزاءه وافياً تاماً، وأنتم لا تُنقَصون من ثواب أعمالكم شيئاً ولا يلحقكم أي غبن في الجزاء.

وقد جاء في فضل تجهيز الغزاة في سبيل الله قول النبي ﷺ «من جهز غازياً فقد غزا ومن خَلَفَ غازياً في أهله بخير فقد غزا»[1] أي أن تجهيز الغازي بالسلاح والمؤن ورعاية أهله في غيبته يعتبر في الثواب كالجهاد في سبيل الله.



(١) أخرجه البخاري.

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

شرح المفردات:

جنحوا للسلم: مالوا للسلام والصلح.

يخدعوك: يظهروا لك أنهم مسالمون ويبطنوا الغدر والخيانة.

حسبك الله: كافيك الله في دفع خديعتهم.

أيدك: قواك.

حَرِّض المؤمنين: حثهم وحضهم.

لا يفقهون: لا يفهمون ولا يدركون.

الصمود أمام الأعداء

وبعد أن دعا الله المؤمنين إلى إعداد القوة لإرهاب أعداء الله وأعداء المؤمنين، بيّن الغاية من إعداد القوة وهي منع الحرب والوصول إلى حالة السلم:

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ جنحوا: مالوا. أي وإن مال الأعداء إلى

الصلح والمسالمة وترك الحرب فاقبل منهم ما مالوا إليه لأن الإسلام دين السلام ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ واعتمد على الله وفوّض أمرك إليه، ولا تخش يا محمد كيد أعدائك الذين يتخذون من السلم وسيلة إلى الغدر، فكن على حذر منهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إن الله هو السميع لما يقولون العليم بما يفعلون فلا يخفى عليه شيء.

فالإسلام في دعوته إلى السلام سبق ما دعت إليه عصبة الأمم، والأمم المتحدة في ميثاقها المتضمن نبذ الحرب والدعوة إلى السلام، فالإسلام لم يشرع الحرب إلا لرد العدوان والقضاء على الظلم والوصول إلى حالة السلم.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ وإذا شعرت ـ أيها النبي ـ أن مبادرة السلام التي يعرضونها عليك هي مجرد خديعة يتوخّون من ورائها الانقضاض عليك ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ فإن الله كافيك أمرهم وحاميك من شرهم ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ هو الله سبحانه قواك وأعانك بنصره لك على أعدائك يوم معركة بدر وقواك وأعانك بالمؤمنين من الأنصار والمهاجرين ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وجمع الله بين قلوب المؤمنين بعد أن كانوا أعداء متناحرين، فجمع الله بين قلوب قبيلتي الأوس والخزرج من الأنصار في المدينة المنورة، وقد كانت الحرب سجالاً بينهما لا تنقطع، كما جمع الله بالإيمان والود بين قلوب المؤمنين من الأنصار والمهاجرين، فاستقبل الأنصار في المدينة المنورة إخوانهم المؤمنين المهاجرين من مكة بالترحاب وتقاسموا معهم ما يملكون من مال، ووفّروا لهم السكن، وكانت أُخوّتهم في الإيمان تفوق أُخوّة النسب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي لو جمعت ـ أيها النبي ـ ما في الأرض من مال وأنفقته في سبيل جمع قلوبهم على هدف واحد ما جمعت بينهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ ولكن الله هو الذي جمع بين قلوبهم ووحّد صفوفهم بفضله وكرمه ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إنه سبحانه القوي الغالب، الحكيم في تدبيره لخلقه.

فالمال لا يجمع بين القلوب ولا يقيمها على الطهر والعفاف، ولا يربي الوجدان، ولا يوقظ الضمير، بل المال كان وما يزال سبباً للطغيان والفساد في الأرض والتفرقة بين الناس.

إن المعجزة التي حققها الإسلام هي في جمع العرب على المحبة والوئام ووحدة الهدف، بعد أن كانوا قبائل متفرقة لا تجمعهم جامعة، تغير القبيلة على الأخرى فتبدد شملها وتسلبها حريتها ومالها، فكانت الحروب والغارات بينهم سجالاً لا تنقطع، وكان الانتقام والأخذ بالثأر شغلهم الشاغل، وهذا ما ولّد الأحقاد والضغائن فيما بينهم، بالإضافة إلى ما انتشر فيهم من الفواحش والمنكرات وهضم حقوق الضعفاء وأكل أموال الناس بالباطل، ولكن الإسلام جعلهم ينبذون تلك الرذائل ويتحلّون بالفضائل ويأخذون بالمثل العليا، ويقيمون العدالة في الأرض، كما جعلهم إخوة متحابين في الله رحماء بينهم، على الرغم ما كان بينهم من كبر وتحاسد وتنازع وعصبية قبل الإسلام.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يخاطب الله رسوله محمداً بأنه وحده كافيه وكافي المؤمنين الذين اتبعوه، فهو ناصرهم ومؤيدهم على أعدائهم، فليعتمدوا عليه ويطيعوه في أمره ونهيه لكي ينالوا نصره.

وبعد أن دعا الله المؤمنين إلى السلم دعاهم من جهة أخرى إلى الصمود والصبر في وجه أعدائهم عندما تدور المعارك رحاها:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ[1] الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ فالله يأمر النبي بأن يرغّب المؤمنين في قتال أعدائهم ويحثهم عليه، لأنه قتال لإعلاء كلمة الحق ولدفع العدوان عنهم، وبهذا يبعدون أنفسهم عن الهلاك.

---

(١) التحريض في اللغة أن يحث الإنسان غيره على شيء لأنه يعلم أنه مقارب للهلاك إن لم يفعله. وقيل: التحريض هو الحث على الشيء بتحسينه وتسهيل الأمر فيه حتى تقدم عليه النفس برغبة وحماس لأن فيه إزالة الحرض، والحرض هو الإشراف على الهلاك.

﴿إِنْ يَكُن مِنْكُم عِشْرُون صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُن مِنْكُم مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فالإيمان يعطي المحارب قوة تعادل قوة عشرة من الكفار. وقد كان رسول الله ﷺ يرسل بعثات قتالية لا يشترك معها في القتال تسمى «السرايا» وهي جمع سريّة، وهذه السرايا كانت لا تقل عن عشرين ولا تزيد على مائة، فذكرها الله سبحانه مرة بالعشرين ومرة بالمائة، وقد اشترط الله لتغلّبها على الكافرين أن يتحلّى أفرادها بالصبر: ﴿إِنْ يَكُن مِنكُم عِشْرونَ صَابرون. . .﴾ الآية. لأن القوة القتالية لكي يتحقق لها النصر لا بد أن تكون قوية في إيمانها، قادرة على تحمّل مشاقّ القتال وعنفه بصبر وجلد.

ثم تأتي تتمة الآية تصف الكافرين: ﴿بِأَنَّهُم قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون الغاية من القتال. ولنقارن بين الكافرين وبين المؤمنين الذين يفهمون الغاية من القتال:

فالكفار في القتال لا يعتمدون في القتال إلا على قوتهم وعددهم وسلاحهم، وهم حين يقاتلون لا يعتقدون بوجود الآخرة وليس همهم إلا الدنيا والمحافظة على حياتهم، أما المؤمنون فإنهم يقاتلون بشجاعة ومعهم رصيد كبير من قوة الإيمان، لأنهم يعلمون أنهم مؤيدون من الله بنصره، وأن الدنيا بالنسبة لهم رحلة قصيرة إلى الآخرة، فإن استشهدوا نالوا رضوان الله وفازوا بنعيم الجنة، وإن انتصروا وبقوا أحياء نالوا حسنى النصر ومغانمه.

ولما كان صمود المسلمين أمام عشرة أمثالهم من الكفار يترتب عليه الكثير من المشقة ويوقع المسلمين في الحرج أو في الإثم إذا لم يصمدوا، جاءت رحمة الله بالتخفيف عليهم، ففرض الله على الواحد من المسلمين الثبات أمام اثنين من الكفار بدلاً من عشرة وبالأخص بعد أن كثُر عدد المسلمين ممن دخلوا في دين الله أفواجاً.

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُم وَعَلِمَ أَنَّ فِيكم ضَعْفاً﴾ أي الآن قد خفف الله

عنكم ـ أيها المؤمنون ـ رحمة بكم لعلمه أن فيكم ضعفاً يقتضي التيسير عليكم ﴿فَإِن يَكُن مِنكُم مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِن يَكُنْ مِنكُم أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ اشترط القرآن على المؤمنين أن يتحلوا بالصبر أيضاً للتغلب على أعدائهم إذا كانوا مثليهم في العدد، وإذا كان أعداؤهم صابرين في المعركة فعلى المؤمنين أن يفوقوهم صبراً وصموداً ليتغلبوا عليهم بمعونة الله وتيسيره ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالحفظ والنصرة على الأعداء، وأن الصبر هو المحك، وهو الوسيلة المحققة للنصر.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

شرح المفردات:

أسرى: جمع أسير وهو العدو المستسلم.

يثخن في الأرض: يبالغ فيها بالقتل والجراح حتى تظهر قوة المسلمين.

عَرَضَ الدنيا: حطامها، وسمّي عرضاً لسرعة زواله.

لمسكم فيما أخذتم: لأصابكم بسبب ما أخذتموه من الغنائم.

فأمكن منهم: أقدرك عليهم قتلاً وأسراً.

حُكْمُ اللّه في الأسرى يوم بدر

ثم ينتقل القرآن إلى بيان الحكم الإلهي في الأسرى الذين وقعوا في أيدي المسلمين بعد غزوة بدر.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ(١) فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما صح وما استقام لنبي من الأنبياء أن يكون له أسرى حتى يبالغ في قتال المشركين ويغلبهم وحتى يكون له التمكّن والسيطرة عليهم وبهذا يذل الكفر.

وسبب نزول الآية أن النبي ﷺ استشار أصحابه في الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم في غزوة بدر حيث قُتِلَ سبعون من رجالاتهم وأُسِرَ سبعون فاستشار النبي أصحابه وقال: ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله هم أهلُك وقومك، قد أعطاك الله الظفر عليهم ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان استبقهم وإني أرى أن تأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لك عضداً. ثم التفت رسول الله إلى عمر وقال: ما تقول يا ابن الخطاب؟ فقال عمر: يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك من مكة وقاتلوك. ما أرى رأي أبي بكر قدِّمهم فَأَضرب أعناقهم، فأخذ رسول الله برأي أبي بكر وأطلق سراحهم في مقابل فدية أُخذت من كل واحد منهم. فالآية فيها عتاب لطيف للنبي ﷺ وأصحابه على قبولهم الفدية من هؤلاء الأسرى من المشركين، وكان الأولى والأصح أن يُقتلوا بسبب موقفهم العدائي القوي من النبي ﷺ والمسلمين، فقد اضطهدوهم في مكة واضطروهم إلى الهجرة منها، فهؤلاء ليسوا أهلاً لهذه المنّة التي أغدقها عليهم النبي بإطلاق سراحهم.

---

(١) يثخن: الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته، يقال: قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوة المرض عليه فقوله تعالى: ﴿حتى يثخن في الأرض﴾ معناه حتى يقوى ويشتد ويغلب ويبالغ ويقهر، ثم إن كثيراً من المفسرين قالوا: المراد منه أن يبالغ في قتل أعدائه، ولأن كثرة القتل توجب الرعب وشدة المهابة.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كانت معركة بدر هي المعركة الأُولى التي خاضها المسلمون ضد المشركين، وكان المسلمون ما يزالون قلة، والمشركون ما يزالون كثرة، وكان نقص عدد المحاربين من المشركين مما يكسر شوكتهم ويذلّ كبرياءهم، ويُدخل المهابة في قلوبهم، فلا يتجرأون على معاودة الكرة في الإقدام على محاربة المسلمين، ولكن بعد الإفراج عن الأسرى، أقدم المشركون على محاربة المسلمين بعد سنة في معركة أُحُد وانتصروا عليهم بعض الشيء، وأخذوا بثأرهم منهم، كما أقدموا على محاربة المسلمين في معارك أخرى.

ثم يعاتب الله المؤمنين على إطلاقهم سراح الأسرى بقوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ أي أتريدون بأخذكم الفداء من المشركين من مال متاع الدنيا وحطامها الزائل؟ والله يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم دين الله.

هذه الجملة من الآية ﴿تُرِيدونَ عَرَضَ الدُّنيَا واللَّهُ يُرِيدُ الآخرة﴾ يصحّ أن تكون نبراساً هادياً لكل من يقدم على عمل عظيم يبتغي فيه وجه الله فيشغله عرض الدنيا عن الهدف وكأن الآية تقول له: إنك إن أردت عرض الدنيا فلا تأس عليه إن فات مقابل رضاء الله، لأن الله وعدك ثواب الآخرة، والآخرة خير من الدنيا وأبقى.

هذه الجملة من الآية طالما رددتها في مسيرة الحياة فتدخل إلى نفسي الطمأنينة والثبات على منهج الله الذي يقتضي الكثير من التضحيات.

هذه الجملة من الآية هي بلسم لكل ما يبذله مريدو الإصلاح وطلبة العلوم الشرعية من مشقات وتضحيات، فإذا كان القصد هو ثواب الآخرة فلا أسف ولا ندم على فوات متاع الدنيا ولذائذها الفانية. ثم يختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي هو القوي الغالب، وهو الحكيم في تدبير أمور خَلْقِه.

﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لولا قضاء من الله وحكم سابق منه بأن لا يعذب قوماً على جهالة، ولا يعذبهم إلا بعد تأكيد الحجة

عليهم وتقديم النهي المسبق لهم، ولولا ذلك لأصابكم فيما أخذتم من المال لفداء الأسرى عذاب عظيم، وبما أنه لم يتقدم نهي سابق على أخذ الفداء من الأسرى فهم بموجب ذلك بمنأى من العذاب.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً﴾ رُوي أن المسلمين بعد هذا العتاب من الله لهم أمسكوا عن الانتفاع بهذه الغنائم التي حصلوا عليها ولم يمدوا أيديهم إليها حتى نزلت هذه الآية التي تبيح لهم الغنائم والانتفاع بها سواء أكانت من مأكول أو من مال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وخافوا الله في أمركم كله إن الله غفور لذنوب عباده المؤمنين.

﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيدِيكُم مِنَ الأَسْرَى﴾ الله سبحانه يأمر النبي محمداً بأن يقول للأسرى الذين وقعوا بين أيدي المسلمين: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُم خَيْراً﴾ أي إن يعلم الله في قلوبكم إيماناً وتصديقاً بالإسلام وإخلاصاً لله ﴿يُؤْتِكُم خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنكُم﴾ أي يعطكم الله أفضل ممّا أَخَذَ منكم المسلمون من المال الذي دفعتموه لفدائكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُم واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ويمحو عنكم ما سلف من الذنوب، والله غفور لذنوب عباده إذا تابوا، رحيم بهم.

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ وإن يُرِد هؤلاء الأسرى الغدر والخداع بك يا محمد، بما يُظهر بعضهم من الميل إلى الإسلام ثم يعودون لمحاربتك، فقد خانوا الله من قبل بالكفر وبما أقدموا على محاربتك يوم بدر ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُم﴾ فأمكن الله منهم قتلاً وأسراً، وليتوقعوا مثل ذلك إن عادوا إلى خيانتهم لله ورسوله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله عليم بخلقه حكيم في تدبير أمورهم.



﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾.

شرح المفردات:

آوَوْا: أووا المهاجرين في المدينة المنورة وأنزلوهم في منازلهم وهم الأنصار.

أولياء: جمع ولي وهو الصديق، والمعين، والناصر.

ميثاق: معاهدة.

ورزق كريم: نعيم في الجنة.

أولو الأرحام: أصحاب القرابات.

مراتب المؤمنين وثوابهم الجزيل

ويختم الله هذه السورة ببيان مَراتِب المؤمنين في الفضل والثواب، وما يجب عليهم تجاه بعضهم بعضاً. وقد قسَّم الله المؤمنين في عهد رسول الله ﷺ إلى أربعة أقسام كل قسم منهم له خصائصه، وذلك في الآيات التالية:

١ ـ المهاجرون الأولون:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وَأَنفُسِهِم فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالله سبحانه يصف هذا القسم من المؤمنين بأنهم صَدَّقوا بوحدانية الله وبكل ما جاء به محمد ﷺ من الوحي من عند الله واتبعوا أوامره واجتنبوا نواهيه. وهاجروا: أي تركوا وطنهم في مكة وفارقوا أهلهم وعشيرتهم وأموالهم فِراراً بدينهم من أذى المشركين ومن اضطهادهم لهم إرضاء لله ونصرة لرسوله محمد ﷺ. وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم: أي بذلوا كل ما في وسعهم وجهدهم في الدفاع عن دين الله بأموالهم وأنفسهم، واحتملوا المشقات والتعذيب في سبيل عقيدتهم، وهؤلاء هم المهاجرون الأولون.

٢ ـ الأنصار من أهل المدينة:

﴿والَّذِين آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ وهم الأنصار سكان المدينة المنورة فهم الذين استقبلوا المهاجرين بالترحاب، وأنزلوهم في منازلهم، وبذلوا لهم أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، وأبلوا بلاء حسناً في الدفاع عن دين الله ونصرته وحماية رسول الله ﷺ ﴿أُولَـٰئِكَ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْضٍ﴾ أي أن المهاجرين والأنصار بعضهم أصدقاء بعض يتناصرون في القتال، ويتعاونون في السلم، وكانت الولاية بينهم تشمل الميراث فكان المهاجر يرث الأنصاري وقد جمعتهما الأخوّة الدينية[1] وبالعكس.

---

(١) عندما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة المنورة آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار وجعل لكل مهاجر أخاً من الأنصار وقال: تآخوا اثنين اثنين، وكان الأنصار بموجب هذه الأخوة الدينية يشاطرون إخوانهم المهاجرين أموالهم ودورهم، كما أنه بموجب هذه الأخوة كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة. وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر من قريبه في المدينة حتى نسخ ذلك بنزول الآية الكريمة: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وصار بعد ذلك الميراث لذوي الأرحام من المؤمنين، ولا يتوارث أهل ملتين شيئاً.

٣ ـ المؤمنون الذين لم يهاجروا:

﴿والَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا مَا لَكُم مِنْ وَلَايَتِهِم مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا﴾ أي والذين صدّقوا بالله ورسوله وأقاموا بمكة ولم يهاجروا إلى المدينة المنورة، ولم يلحقوا برسول الله ﷺ ليشتركوا مع المهاجرين والأنصار في نصرة دين الله، فهم إذن باقون في أرض المشركين خاضعون لهم، وهؤلاء ليس لهم شيء من ولاية المهاجرين والأنصار عليهم، فلا توارث فيما بينهم ولا تعاون حتى يهاجروا إليكم ويتركوا ديار الكفر. والمقصود من ذلك حثهم على الهجرة إلى المدينة المنورة والترغيب فيها، لأن المسلم متى سمع أن الله يقول: إن من امتنع عن الهجرة انقطعت الولاية بينه وبين المسلمين، ولو هاجر لحصلت تلك الولاية، فلا شك في أن ذلك يكون مرغباً في الهجرة، والهدف من الهجرة تكثير عدد المسلمين في المدينة المنورة واجتماعهم وإعانة بعضهم بعضاً، وحصول الألفة والقوة وعدم التفرقة.

﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُم وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ﴾ ولكن هؤلاء المؤمنين الذين لم يهاجروا وبقوا في مكة قد يؤذون بسبب إسلامهم وقد يُعتدى عليهم فيطلبون منكم ـ أيها المؤمنون ـ الساكنون في المدينة المنورة، من المهاجرين والأنصار، مساعدتكم ضد هؤلاء الكفار، وحينئذ يجب عليكم أن تسرعوا إلى إجابتهم إلى ما طلبوه فتنصروهم على أعدائهم بشرط أن لا يكون بينكم وبين هؤلاء الأعداء معاهدة سلام وعدم اعتداء، ففي هذه الحالة لا تجيبوهم إلى طلبهم، فالنصرة تكون على الكفار الحربيين لا على الكفار المعاهدين، ولأن الإسلام يوجب الوفاء بالعهد ولا يبيح الغدر والخيانة.

إن هذا الوفاء بالعهد على الرغم من هذه الظروف المحيطة به لا نجده عند أي ملة في الأرض، وهذا مما يبيّن حرص الإسلام على الوفاء بالعهد. ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ والله سبحانه يرى ويعلم كل ما تفعلون لا يخفى عليه شيء فعليكم أن تتّبعوا أوامره، ولا تتجاوزا حدود ما نهاكم عنه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُم أَولِيَاء بَعْضٍ﴾ أي والذين كفروا بعضهم أولياء بعض في النصرة والتعاون على قتالكم وإيذائكم فهم في جملتهم فريق واحد ـ فالكفر ملة واحدة ـ تجاه المسلمين وإن كانوا ظاهراً مللاً كثيرة يعادي بعضهم بعضاً. ولما نزلت هذه الآية لم يكن في جزيرة العرب إلا المشركون واليهود، وكان اليهود يعينون المشركين في قتالهم للمسلمين.

﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فالله سبحانه يخبر المسلمين بأنهم إن لم يفعلوا ما أمرهم الله به من التناصر والتواصل والتعاون فيما بينهم فسوف تكون فتنة شديدة وفساد كبير «لأن المؤمنين إذا لم يتجمعوا ويتحدوا فيما بينهم وينصر بعضهم بعضاً ذابوا مع الكافرين. . . ولو حدث مثل هذا الذوبان فيُربّى الأولاد في مجتمع يختلط فيه الكفر بالإيمان فيأخذ الأولاد من المحيط الذي يعيشون فيه عادات غير عادات دينهم، وعلى مرور الزمن لا يتعرفون على قِيَم دينهم الأصيلة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المسلمين حين لا يتضامنون مع بعضهم البعض يستقوي عليهم غير المسلمين ويصبحون أذلة مع أنهم أغلبية ولا يهابهم أحد مع كثرة عددهم ولا يحسب لهم حساباً، بالإضافة إلى ذلك فإنهم يكونون أسوة سيئة للإسلام بإعراضهم عن دينهم»[١].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِين آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ المؤمِنونَ حَقاً لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ففي هذه الآية ثناء على المهاجرين والأنصار الذين جاهدوا في سبيل الله ونصروا دينه حيث وصفهم بأنهم المؤمنون حق الإيمان وأكمله، وبيان ما خصهم الله به من المغفرة لذنوبهم، ورزق كريم في الآخرة حيث ينعمون بجنات النعيم. هذه الآية ليست تكراراً لما سبق، فالآيات السابقة تضمنت الولاية والنصرة بين المؤمنين وهذه الآية تضمنت الثناء والتكريم لهم.

---

(١) باختصار وتصرف عن تفسير الشعراوي.

٤ ـ الذين تأخر إيمانهم وهجرتهم:

﴿والَّذِين آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِك مِنكُم﴾ هذا الصنف الرابع من المؤمنين هم الذين تأخر إيمانهم وهجرتهم إلى المدينة المنورة عن هجرة إخوانهم المؤمنين الأوائل الذين سبقوهم إلى الهجرة، والمراد بهذا القسم الرابع أهل الهجرة الثانية التي وقعت بعد صلح الحديبية أو بعد غزوة بدر، أي هؤلاء الذين آمنوا وهاجروا من بعدكم أيها المهاجرون الأوائل والأنصار، وقاتلوا معكم في سبيل الله ﴿فأولئك منكم﴾ أي لا فرق بينكم وبينهم فهم مثلكم في استحقاق الموالاة والنصرة والمعونة. كما يفهم من الآية أن مرتبة المهاجرين الأولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة، لأن الله ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم معهم، ولولا أن الأولين أفضل وأشرف لما صح هذا الإلحاق بهم.

﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُم أَوْلَى بِبَعْضٍ في كِتَابِ اللَّهِ﴾ والأرحام: هم الأقارب، أي ذوو القرابة بعضهم أولى ببعض في التوارث في حكم الله الذي بيّنه في سورة النساء التي ذكرت أحكام المواريث وحصص الورثة[1] هذه الآية تنسخ حكم التوارث بين المهاجرين والأنصار الذي حصل في بدء الهجرة. وقيل المراد من الآية أن القرابات في النسب أحق ببعض في النصرة والمعونة وهم أولى من غيرهم في حكم الله الذي أوجبه عليهم، لأن الله دعا إلى صلة الأرحام والوصية بالوالدين وبذي القربى، فهم أحق من غيرهم بالبر بهم والإعانة، هذا إذا جمعهم الإيمان، أما الكفر فيقطع الرابطة بين المؤمن وقريبه. ويختم الله هذه السورة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾ أي إن اللَّهَ محيط علمه بكل شيء فهو يحكم بكل ما فيه الصواب والصلاح للإنسان. وإذا عَلِمَ الإنسان أن الله محيط علمه بكل شيء كان ذلك حافزاً له على الكف عن الظلم، والامتناع عن الفواحش والمنكرات، لأن الله سيحاسبه في الآخرة على ما قدمت يداه.

---

(١) من يرد الإيضاح عن حصص الورثة من ذوي الأرحام فليرجع إلى كتاب: «الميراث على المذاهب الأربعة» للقاضي الشيخ حسين غزال، فهو من أوفى الكتب التي صدرت حديثاً في هذا الموضوع.

تعريف بسورة التوبة

سورة التوبة من السور المدنية أي التي نزلت في المدينة المنورة وهي من أواخر ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ، وسُمّيت بذلك لتكرار الحديث فيها عن التوبة والتائبين ومنهم الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

وتُسمى هذه السورة أيضاً بسورة (براءة) لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّه وَرَسولِهِ إلى الذين عاهَدتم مِنَ المشركين﴾ وهذان الاسمان: التوبة وبراءة هما من أشهر أسماء هذه السورة. كما تسمى هذه السورة بسورة الفاضحة لأنها فضحت المنافقين وكشفت نفاقهم، وتسمى أيضاً بسورة المخزية لأن فيها خزي المنافقين، وهناك أسماء أخرى لم نذكرها اختصاراً.

وفي سورة التوبة بيان لعلاقة المسلمين بغيرهم وكانوا ثلاث طوائف:

١ ـ طائفة مشركي العرب، وقد دعت الأحداث إلى نبذ عهد الذين لم يوفوا بعهدهم ومنحهم هدنة مقدارها أربعة أشهر ثم بيان ما يعاملون به بعد انتهاء مدة الهدنة.

٢ ـ أهل الكتاب الذين قامت الأدلة على عزمهم الانقضاض على المسلمين، وقد أمر الله سبحانه بقتالهم حتى يخضعوا للمسلمين ويدفعوا الجزية.

٣ ـ المنافقون وقد فضحهم الله في هذه السورة وكشف ما يُبيّتونه من شر للمؤمنين وأكثر آيات هذه السورة جاءت على ذكرهم.

فمن صفات المنافقين: التقاعس عن الجهاد والتعلل بأعذار كاذبة، وإشاعة الفتنة في صفوف المسلمين، وكراهية الخير لرسول الله ﷺ وأصحابه وإرادة السوء بهم، وطعنهم برسول الله والسخرية بالمؤمنين، وتعاونهم فيما بينهم على الإثم والعدوان، واتخاذ بعضهم مسجداً لهم للإضرار بالمؤمنين والتفرقة بينهم.

وتمضي السورة فتتحدث عن الأعراب ـ سكان البادية ـ وموقفهم من الإسلام، كما تدعو هذه السورة إلى الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله مبينة ثواب الله العظيم للشهداء عند الله.

وفي السورة دعوةُ فريق من المؤمنين للتفقه في الدين لينذروا قومهم من مغبة عصيان الله. كما أن فيها الكلام عن غزوة حُنين حيث أيّد الله المؤمنين بالملائكة ونصرهم على المشركين بعد هزيمتهم، كما تُبيّن فضل الله على رسوله ﷺ حين هاجر من مكة مع صاحبه أبي بكر الصديق وكان الله معهما بتأييده وحفظه حيث أعمى الله أنظار الكفار عن رؤيتهما وهما في غار ثور.

ويتبادر إلى الأذهان سؤال: لماذا لم تُذكر البسملة أي (بسم الله الرحمن الرحيم) في مطلع السورة كما في سائر سور القرآن الكريم؟ قيل في أسباب ذلك عدة أقول:

منها: أنها لم تكتب في صدر هذه السورة لأن البسملة فيها رحمة والرحمة أمان وهذه السورة نزلت في المنافقين وبالسيف ولا أمان للمنافقين.

ومنها: أنه كان من شأن العرب في الجاهلية إذا كان بينهم وبين قوم عهد فأرادوا نقضه كتبوا إليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه البسملة، فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين بعث بها النبي ﷺ إلى عليّ بن أبي طالب فقرأها عليهم في موسم الحج ولم يذكر البسملة على ما جرت به عادتهم في نقض العهد من ترك البسملة.

ومنها: أن الصحابة اختلفوا في سورة الأنفال وسورة التوبة هل هما سورة واحدة، أم سورتان؟ قال بعضهم: هما سورة واحدة لأن كليهما نزلتا في القتال، ومنهم من قال: هما سورتان، فلما ظهر الاختلاف من الصحابة في هذا الباب تركوا بينهما فُرجة[1] لقول من قال إنهما سورتان، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة.

ومنها: أن البسملة لم تكتب لأن جبريل ما نزل بها في هذه السورة.

---

(١) الفرجة: الفاصل بين الشيئين.



﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ (٢) وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٤) ﴾ .

شرح المفردات:

براءة: تَخَلُّصٌ وتبرُّؤٌ من العهود التي بينكم وبين الكفار البادئين بنقض العهود.

فسيحوا في الأرض: فسيروا فيها أحراراً.

غير معجزي الله: غير مفلتين وهاربين من انتقامه.

مخزي الكافرين: مذلهم في الدنيا والآخرة.

وأذان: وإعلام.

يوم الحج الأكبر: المراد به يوم عيد النحر.

لم ينقصوكم: لم ينقضوا العهد معكم.

ولم يظاهروا عليكم: ولم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم.

إلى مدتهم: إلى نهاية العهد الذي بينكم وبينهم.

نقض العهد مع المشركين المعتدين

يخاطب الله المؤمنين في مستهل هذه السورة:

﴿بَرَآءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقال برئت من الشيء إذا أزلته عن نفسك وقطعت سبب ما بينك وبينه، والمراد من البراءة قطع العهد ما بين المؤمنين وبين المشركين الناكثين للعهد، وإنهاء حكم الأمان الذي تضمنه هذه العهود. وإنما نُسبت البراءة لله ورسوله لأنها تشريع من الله، وأمْرٌ من الله لرسوله محمد ﷺ بتنفيذه، ونُسبت المعاهدة للمؤمنين حيث قال الله سبحانه ﴿عَاهَدتُّم﴾ لأنهم هم الذين ينفّذون أحكام المعاهدات.

وسبب نزول هذه السورة ما روي عن رسول الله ﷺ أنه لما خرج إلى غزوة تبوك، وتخلف عنها المنافقون... جعل المشركون ينقضون العهد فأمره الله بنبذ عهودهم وطرحها فأنزل (سورة براءة) في سنة تسع للهجرة.

وقد اتفقت الروايات أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك عقد العزم على أن يحج إلى بيت الله الحرام سنة تسع للهجرة في شهر ذي الحجة، ولكنه كره مخالطة المشركين في الحج وسماع تلبيتهم في شعائر الحج التي تتضمن إشراكاً بالله، كما كره طوافهم حول الكعبة عراة الأجسام، لذا أمسك عن الحج تلك السنة وبعث أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه أميراً على الناس ليقيم لهم الحج وكتب لهم سننه. فلما سافر نزلت سورة براءة متضمنة نقض العهد مع المشركين، فأمر رسول الله عليًا رضي الله عنه أن يذهب إلى موسم الحج ليقرأها عليهم، فقيل لرسول الله ﷺ: لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال: لا يؤدي عني إلاّ رجل من أهل بيتي، كما أمر رسول الله عليًا أن يبلّغ الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت ـ أي بيت الله الحرام ـ عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله فهو إلى مدته. فخرج عليّ رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ حتى أدرك أبا بكر في الطريق

فلما رآه أبو بكر سأله: أمير أو مأمور، فقال: بل مأمور، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك في تلك السنة حتى إذا كان يوم النحر قام عليّ بن أبي طالب فأذّن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان. كما قرأ عليهم أربعين آية من سورة براءة.

يقول الفخر الرازي في تفسيره:

«واختلفوا في السبب الذي لأجله أمر عليًا بقراءة هذه السورة عليهم وتبليغ هذه الرسالة إليهم، فقالوا: السبب فيه أن عادة العرب أن لا يتولّى تقرير العهد ونقضه إلا رجل من الأقارب فلو تولاه أبو بكر لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما نعرف فينا من نقض العهود فربما لم يقبلوا، فأزيحت علتهم بتولية ذلك عليًا رضي الله عنه. . . وهذا لا يدل على تفضيل عليٍّ على أبي بكر، ولكنه عامل العرب بما يتعارفونه فيما بينهم. . .».

ولكي لا يُنسب إلى المسلمين الغدر والخيانة ونكث العهد أمهل الله المشركين أربعة أشهر تكون هدنة بينهم وبين المسلمين، يباح للمشركين فيها أن يسيروا في الأرض حيث شاءوا، آمنين من القتل والقتال، وهذه المدة كافية للنظر والتدبّر والتشاور فيما بينهم في قبول الإسلام أو رفضه، أو المواجهة مع المسلمين في القتال أو الخروج من جزيرة العرب. يقول تعالى مخاطباً المشركين: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ والسياحة في الأرض هي الانتقال والتجوال الواسع فيها، وهذه الأربعة أشهر تبتدىء من العاشر من ذي الحجة من سنة تسع للهجرة وتنتهي في العاشر من ربيع الآخر (الثاني) من سنة عشر للهجرة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ واعلموا أيها المشركون أنكم إذا تنقلتم في الأرض وأصررتم على كفركم بالله وعدم إقراركم بتوحيده وتصديق رسوله محمد ﷺ، وأصريتم على قتال المسلمين، فإنكم غير مفلتين من انتقام الله، لأنكم في قبضته وسلطانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ وأن الله مذل الكافرين في الدنيا بالقتل والأسر وفي الآخرة بعذاب النار.

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحجِّ الأَكْبَرِ﴾ أي وإعلام من الله ورسوله إلى جميع الناس في يوم الحج الأكبر، والمقصود من الحج الأكبر هو فريضة الحج، بينما الحج الأصغر هو العمرة، وفي تعيين هذا اليوم الذي حصل فيه الإعلام، قيل هو يوم النحر، وقيل هو يوم عرفة ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ المشْرِكينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي أن الله ورسوله بريئان من عهود المشركين الخائنين ﴿فَإِنْ تُبْتُم فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فإن تبتم أيها المشركون من كفركم ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له فرجوعكم هذا أنفع لكم في الدنيا والآخرة ﴿وإن تَوَلَّيْتُم فَاعْلَمُوا أَنَّكُم غَيْرُ مُعْجزي اللَّهِ﴾ وإن أعرضتم عن الإيمان بوحدانية الله وآثرتم البقاء على ما أنتم عليه من الشرك بالله فاعلموا أنكم لا تعجزون الله بإنزال عقابه الشديد بكم، وأنكم لا مهرب لكم منه ﴿وَبَشِّرِ الَّذِين كَفَرُوا بِعَذَابٍ أليمٍ﴾ ولفظ البشارة ورد على سبيل التهكم والاستهزاء بهم، لأن البشارة لا تكون إلا للخبر السار، فكيف إذا كانت هذه البشارة بالعذاب الأليم يوم القيامة ﴿إلاَّ الَّذِين عَاهَدتُّم مِن المُشْرِكينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُم شَيْئاً﴾ أما من عاهدتم من المشركين ولم ينقضوا العهد ولم ينقصوا من شروطه شيئاً ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُم أَحَداً﴾ ولم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِم عَهْدَهُم إلى مُدَّتِهِم﴾ أي فأوفوا لهم عهدهم إلى نهايته مهما كانت مدته واحترموه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ﴾ إن الله يحب من اتقاه بطاعته بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.

فالإسلام شدّد على الوفاء بالعهد ما دام العهد معقوداً، وأن شرط وجوب الوفاء به من المسلمين أن يحافظ عليه العدو فإن أخلّ بشيء منه أو عاون أحداً من الأعداء على المسلمين وجب نبذ عهده.



﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾.

شرح المفردات:

انسلخ: انقضى ومضى.

الأشهر الحُرم: الأشهر التي يحرم فيها القتال.

وخذوهم: وأسروهم.

واحصروهم: وضيقوا عليهم وامنعوهم من الإفلات.

واقعدوا لهم كل مرصد: وراقبوهم واحصوا تحركاتهم.

فخلّوا سبيلهم: فاتركوهم أحراراً.

استجارك: أي سأل جوارك ليكون في حماك ويحصل على الأمان.

فأجره: فأمّنه.

كلام الله: القرآن الكريم.

أبلغه: أوصله.

شروط العفو عن المشركين

ثم يبين الله سبحانه كيفية معاملة المشركين بعد انقضاء مدة الهدنة:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ﴾ أي فإذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرّم الله فيها قتال المشركين الناكثين لعهودهم، وجعلها الله هدنة بين المسلمين والمشركين، لعلّ المشركين يثوبون إلى رشدهم، وهي التي تبتدىء من يوم النحر إلى العاشر من ربيع

الآخر (الثاني) والمراد من كونها حُرُماً أي أن الله سبحانه حرَّم القتال فيها ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي فاقتلوا هؤلاء المشركين في أي وقت ومكان ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي وأسروهم ﴿واحصُرُوهُمْ﴾ وضيّقوا عَليهم وامنعوهم من الإفلات ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ والمرصد: هو الموضع الذي يرقب فيه العدو، أي راقبوهم في كل مكان يمكن الإشراف عليهم منه ورؤية تحركاتهم، وضيّقوا عليهم السبل ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي فإن رجعوا عن الشرك بالله ودخلوا في الإسلام، ولبّوا دعوة الإيمان سواء فيما يرجع إلى حق العبودية لله وحده وأساسه الصلاة، أو ما يرجع إلى حق الجماعة وأساسه الزكاة، وهي صدقة واجبة على أموال الأغنياء لتصرف على الفقراء والمساكين وغيرهم وسيأتي الكلام عنها، فإذا فعلوا ذلك فلا تتعرضوا لهم بسوء وكفّوا عن قتالهم ولا تعاملوهم بما كان منهم سابقاً ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن الله يتجاوز عن سيئات من تاب ورجع عن الشرك بالله إلى الإيمان بوحدانيته، ومن المعصية إلى الطاعة.

وقد روي في الصحيح عن رسول الله ﷺ قوله: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى»[1] هذا الحديث يجري حكمه على مشركي العرب خاصة، وقد استند أبو بكر الصديق إلى هذا الحديث في محاربته مانعي الزكاة. أما أهل الكتاب فسيأتي الحكم بشأنهم لاحقاً في هذه السورة.

وقد يعترض البعض على هذا الإجراء الشديد مع المشركين حيث خيّرهم النبي ﷺ بين الاسلام أو السيف وأن هذا الإجراء ينافي حرية التديّن، والجواب على ذلك: إن أكبر دولة في عصرنا الحاضر التي تتغنى بحرية الأديان وحقوق الإنسان قد

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

لجأت إلى مثل هذا الإجراء مع اليابان حيث أجبرت إمبراطور اليابان تحت قهر الهزيمة والإذلال على إعلان أنه لا ينحدر من سلالة الآلهة كما يعتقد اليابانيون وأنه ليس سوى بشر مثل بقية الناس ولا ينبغي أن يُعبد، فألغيت عبادة الأمبراطور بصفة نهائية في عام ١٩٤١م[١].

المستـــامـن

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أي بعد انقضاء أربعة أشهر على مُهادنتك يا محمد المشركين وطلب منك أحدهم الحماية والأمان ليطلع على حقيقة الإسلام ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ أي أعطه الأمان ليسمع القرآن ويفهم أحكامه، وعرِّفه ما يجب أن يُعرف من مبادىء الإسلام ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ ثم إن انقضت المدة التي جعلتها أماناً له وأبى الإسلام فردّه إلى قومه أو المكان الذي يأمن به قبل المجيء إليك لئلا يُصاب بسوء ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي أن المشركين يجهلون القرآن ومبادىء الإسلام، لذلك هُم بحاجة إلى من يبصّرهم حقائق الإسلام.

وهنا لا بد من وقفة تأمل أمام هذا الموقف الرائع للإسلام من المحاربين المشركين الذين يطلبون الأمان من المسلمين حيث أمرنا الله سبحانه أن نعطيهم الجوار والأمان، وأن نعطيهم فرصة سماع القرآن والتعرف على الإسلام، وهو بهذا يهدف إلى هدايتهم لا إلى إبادتهم، وهذا بدوره ينفي فكرة أن الإسلام يُكره غيره على الإسلام، بل إن الإسلام في تساميه يخطو خطوة أخرى فيطلب من المسلمين في حال لم يستجب المشركون إلى الإسلام أن يحرسوهم ويحموهم حتى يصلوا إلى البلد الذي يأمنون فيه.

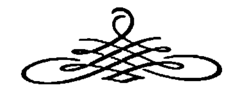
وقد اصطلح على تسمية الحربي الذي يطلب الأمان اسم المستأمِن وأوجب على

---

(١) نقلاً بتصرف عن كتاب (الجهاد والقتال) للدكتور محمد خير هيكل.

المسلمين حمايته في نفسه وماله في دار الإسلام إذا طلب الأمان للاطلاع على مبادىء الإسلام، ولم يشترط في ذلك إلا ما يضمن للمسلمين سلامتهم بأن لا تبدو على المستأمن مظاهر التجسس على المسلمين، وقد توسع الإسلام في هذا الباب توسعاً عظيماً فسمح للمسلم أن يجير ويؤمّن فرداً أو جماعة من الكفار، وأمانه وعهده محترمان. والإسلام يعطي هذا الحق لأفراد المسلمين، ولكن من حق الإمام أو نائبه أن يلغي أيّ أمان يراه في غير محله، أو يترتب عليه ضرر للمسلمين والإسلام يبيح بهذا الأمان التبادل التجاري والصناعي والثقافي وغير ذلك مما لا يضر بأمن الدولة، وقد كان من فائدة هذا الأمان نشر الدعوة الإسلامية وإيصالها إلى كثير من الأقاليم النائية غير الإسلامية.

وتستوقفنا مطالعة قيّمة للإمام الفخر الرازي حول هذه الآية ﴿وإن أَحَدٌ من المشركين اسْتَجارك فَأجِرْهُ حتى يسمع كلام اللّه. .﴾ إذ يقول: «اعلم أن هذه الآية تدل على أن التقليد غير كافٍ في الدِّين وأنه لا بد من النظر والاستدلال، وذلك لأنه لو كان التقليد كافياً، لوجب أن لا يُمهل هذا الكافر بل يقال له: إما أن تُؤمن، وإما أن نقتلك، فلما لم يُقل له ذلك، بل أمهلناه وأزلنا الخوف عنه ووجب علينا أن نبلغه مأمنه، علمنا أن ذلك إنما كان لأجل أن التقليد في الدِّين غير كافٍ، بل لا بد من الحجة والدليل فأمهلناه وأخّرناه ليحصل له مهلة النظر والاستدلال».



﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

شرح المفردات:

فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم: أي استقيموا لهم مدة استقامتهم لكم.

يظهروا عليكم: يظفروا بكم ويغلبوكم.

لا يرقبوا فيكم: لا يراعوا في أمركم.

إلاًّ: عهداً أو حلفاً أو قرابة.

ذمة: أماناً، وما يلزم أن يُحفظ ويُحمى.

اشتروا بآيات الله: استبدلوا بآيات القرآن.

فصدّوا عن سبيله: فأعرضوا عن دين الله.

غدر المشركين ونقضهم للعهود

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام على المشركين وما يتصفون به من غدر ونقض للعهود:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ كيف: استفهام بمعنى الإنكار والتعجب، أي كيف يكون لهؤلاء المشركين عهد يعتدّ به عند الله وعند

رسوله يستحق أن تُراعى حقوقه وهم لا يتمسكون بالعهود التي عقدوها مع المسلمين ولا يحترمونها ﴿إلاَّ الَّذِين عَاهَدتُّم عِندَ المسجِدِ الحَرَامِ﴾ هنا يستثني القرآن فئة من المشركين لم تنقض العهد وهم بنو كنانة وبنو ضمرة، وقد كانوا عاهدوا رسول الله عند المسجد الحرام ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُم فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي فأي زمان استقاموا لكم على العهد فاستقيموا لهم على مثله ﴿إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ﴾ والله يحب المتقين الذين يوفون بالعهد، فالوفاء بالعهد هو من التقوى.

﴿كَيفَ وَإن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي كيف يكون للمشركين عهد يُعتدّ به، وحالهم يدل على أنهم إن ينتصروا عليكم ويتمكنوا منكم ﴿لا يَرْقُبُوا فِيكُم إلاًّ﴾ أي لا يراعوا في أمركم قرابة، وقد كانت بين المشركين وبين المسلمين أنساب وقرابات ﴿وَلاَ ذِمَّةً﴾ أي ولا يراعوا فيكم عهداً ولا حُرمة ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِم وَتَأْبَى قُلُوبُهُم﴾ يرضونكم بالكلام المعسول ولكنهم يضمرون في قلوبهم الحقد والضغينة لكم ﴿وَأَكثَرُهُم فَاسِقُونَ﴾ وأكثرهم خارجون عن طاعة الله، إلا قليل منهم الذين وفوا بعهودهم.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمناً قَلِيلاً﴾ اشتروا: العرب تقول لكل من ترك شيئاً وتمسك بغيره قد اشتراه، والمعنى: استبدل المشركون بآيات القرآن التي تحمل الهداية لهم أشياء تافهة من حطام الدنيا وزخرفها تلبية لأهوائهم وشهواتهم ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ فأعرضوا عن دين الله الموصل إلى مرضاته، وصرفوا غيرهم عن اتباعه ﴿إنَّهُم سَاءَ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي قبح عملهم بسبب إعراضهم عن الحق وإقبالهم على الباطل.

﴿لا يَرْقُبُونَ في مُؤْمِنٍ إلاًّ ولا ذِمَّةً وَأُولَئِك هُمُ المُعْتَدُونَ﴾ أي لا يراعي المشركون في مؤمن قرابة منهم ولا عهداً ولا أماناً، وأولئك هم المعتدون الذين ينقضون العهد. هذه الآية تأكيد للآية السابقة التي جاءت بنفس المعنى والتي قيدت اضطهاد المشركين للمؤمنين عند التغلب عليهم، ولكن الآية هنا زادت لفظ العدوان، فعدوانهم على المؤمنين صفة راسخة فيهم.

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ فإن تابوا عن الكفر وعادوا إلى عبادة الله وحده وأدوا الصلاة المفروضة عليهم وأعطوا الزكاة لمستحقيها ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فهم إخوانكم في الإسلام، وهذا نصٌّ في أن أخوّة الدين لا تثبت إلا بهذين الركنين: الصلاة والزكاة.

فالصلاة تحرر الناس من العبودية لغير الخالق، وتوجههم إلى عبادة الله وحده، وتوحّد بين قلوبهم وتساوي بينهم حيث يقف الغني بجانب الفقير، والسيد بجانب المرؤوس في صلاة الجمعة والجماعة، كلهم يثنون على الله ويطلبون منه المعونة والهداية. والزكاة صدقة محدّدة زهيدة تُفرض على أموال الأغنياء لتصرف على الفقراء وغيرهم مما سيأتي الكلام عنها. فالصلاة حق الله والزكاة حق الفقير. ولا يمكن للمجتمع أن يصلح ويسعد إلا إذا أدّى الإنسان فيه حق الخالق والمخلوق.

فإذا آمن المشركون وأدوا الصلاة وأعطوا الزكاة لمستحقيها، يصبح هؤلاء إخواناً في الدين للمسلمين ويستتبع ذلك أن يصفح المسلمون عن كل ما تعرّضوا له من أذى على أيدي المشركين.

وبالمناسبة فإن المشركين لم يكونوا يعرفون هذه الأخوّة، وكانت الحروب مستعرة بينهم على الدوام، وكان القوي يأكل حق الضعيف، وكان الفقراء محرومين من عطف الأغنياء، وبعد مجيء الإسلام أصبحوا بنعمة الله إخواناً. ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي ويبين الله الحجج والأدلة لأهل العلم الذين يدركون حكمة التشريع الإسلامي.

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

شرح المفردات:

نكثوا أيْمَانَهُم: نقضوا عهودهم الموثقة بالحلف والقسم.

أئمّة الكفر: رؤساء المشركين وقادتهم.

لا أيْمَان لهم: لا عهد لهم.

يخزهم: يهينهم ويفضحهم.

غيظ قلوبهم: غضبها الشديد.

وليجة: بطانة وأولياء تفشون إليهم سركم.

قتال المشركين الناكثين للعهد

ويتابع القرآن فيذكر الأسباب التي أَذِنَ الله فيها للمؤمنين بقتال المشركين:

﴿وَإِن نَكَثُوا أيْمَانَهُم مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِم﴾ وإن نقض المشركون عهودهم الموثقة بالحلف **﴿وطَعَنُوا في دِينِكُم﴾** أي عابوا الإسلام بالقدح والذم **﴿فَقَاتِلوا أئِمَّةَ الكُفْرِ إنَّهم لا أيْمَانَ لَهُم﴾** فقاتلوا رؤساء الكفار الذين يُحرّضون الناس على عداوة

المؤمنين ويقودونهم لقتال النبي ﷺ، قاتلوهم لأنهم لا عهد لهم ولا ميثاق ﴿لَعَلَّهُم يَنتَهُونَ﴾ أي ليكن غرضكم من قتالهم أن ينتهوا عمَّا هم عليه من الإجرام والطعن في الإسلام، لا بقصد إيقاع الأذى بهم لأن الإسلام يأمر بالقتال دفاعاً عن النفس لا حبًّا بالقتال.

﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُم﴾ هنا حض على جهاد أعداء الإسلام عن طريق الاستفهام الإنكاري، أي ألا تقاتلون يا معشر المؤمنين هؤلاء المشركين الذين نقضوا العهد الموثق بالحلف والقسم ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ وقد سبق أن عزموا على إخراج رسول الله محمد ﷺ من مكة والتآمر على قتله ﴿وَهُم بَدَأُوكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهم الذين بدأوكم يا معشر المؤمنين بالإيذاء والعدوان ﴿أَتَخْشَوْنَهُم فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ أي أتخافونهم ـ أيها المؤمنون ـ وتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم، فالله أجدر أن تخافوا عقابه إن عصيتموه، إن كنتم صادقين في إيمانكم ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قاتلوا المشركين يعذبهم الله بأيديكم بالقتل والأسر ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِم﴾ ويصيبهم منكم ـ أيها المؤمنون ـ الذل والهوان وينصركم عليهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ ويبرىء الله ما في صدور المؤمنين من حقد على هؤلاء المشركين بسبب ما لاقوه منهم من أذى ومكروه بذلك النصر الذي سيؤيّدهم الله به. ولقد تحقق هذا النصر بعد فترة وجيزة وهذا مما يشهد بصدق نبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي من عند الله.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِم﴾ ويزيل ما في قلوب المؤمنين من الغم والكرب بذلك النصر ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ ويمنّ على من يشاء منهم بالتوبة والدخول في الإسلام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله واسع العلم بشؤون الناس حكيم فيما يشرّعه لهم من الأحكام.

﴿أَمْ حَسِبْتُم أَن تُتْرَكُوا﴾ أي أظننتم أيها المؤمنون أن يترككم الله تعالى من دون

أن يختبركم بأمور يتبيّن منها من هو مخلص لدينه ومن هو غير مخلص وإن الجهاد هو الاختبار الفاصل الذي يتضح منه من هو الصادق ومن هو الكاذب ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ[1] اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ لمّا: حرف نفي مع توقع الحصول، أي إلى الآن لم يتحقق وقوع الجهاد منكم لعدم حصوله وقت نزول الآية، ولكن يتظر وقوعه وفق ما في علم الله تعالى فيعرف المجاهدين منكم في سبيله من المضيعين أمر الله في ذلك ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ولا رَسُولِهِ ولا المؤمنين وَلِيجَةً﴾ الوليجة: هي البطانة. أي هؤلاء المؤمنون الصادقون لم يتخذوا من غير الله ولا رسوله ولا المؤمنين بطانة لهم من المشركين يصادقونهم ويفشون إليهم أسرار المؤمنين ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بما تَعْمَلُونَ﴾ والله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وسيجازيكم عليها.

والمراد مما سبق أن المجاهد قد يجاهد ولا يكون مخلصاً بل يكون منافقاً باطنه خلاف ظاهره، ويتخذ بطانة من دون المؤمنين لمكاسب شخصية، فبيّن الله أنه لا يترك المؤمنين بغير اختبار فيعلم الذين جاهدوا في سبيله عن إخلاص بدون أي غرض آخر.

* * * * *

(١) المراد بالعلم هنا علم الظهور لا علم الخفاء، أي ولما يظهر الله تعالى علمه للناس بالمجاهد والمنافق.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ما كان للمشركين: ما صح وما استقام للمشركين.

يعمروا مساجد الله: يجعلونها عامرة ويساهموا في عمارتها.

حبطت أعمالهم: بطلت أعمالهم.

سقاية الحاج: أي سقي الحجيج من الماء لندرته بمكة ومشقة الحصول عليه.

وهاجروا: خرجوا من مكة إلى المدينة المنورة خوفاً على دينهم وأرواحهم من أذى المشركين.

نعيم مقيم: نعيم دائم غير منقطع.

عمارة المساجد منوطة بالمؤمنين

ويتابع القرآن فينكر على المشركين افتخارهم بسقاية الحجاج وخدمة بيت الله الحرام مع استمرارهم على الشرك بالله وعبادة الأصنام:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أن يَعْمروا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ أي ما صح وما استقام للمشركين أن يعمروا المساجد التي بنيت لعبادة الله، والمساجد هنا يدخل فيها المسجد الحرام

بمكة لأن عمارته محل افتخارهم، وهناك قراءة لهذه الآية (مسجد الله) بالمفرد أي المسجد الحرام، وعمارة المسجد الحرام تكون بملازمته، والإقامة فيه لعبادة الله، وزيارته للعبادة بأداء الحج والعمرة، كما تشمل عمارة أي مسجد آخر وذلك ببنائه وترميمه وتنظيفه وخدمته ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ هذه الجملة من الآية تُشعر بأن كفر المشركين ظاهر، وأنهم يعترفون به اعترافاً لا يملكون إنكاره حيث نصبوا الأصنام في بيت الله الحرام وعبدوها بجانب عبادة الله[١]، فالمساجد تُعمر لعبادة الله وحده فمن كان بالله كافراً فليس من شأنه أن يعمر مساجد الله ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي أولئك الذين يفخرون بعمارة المسجد الحرام مع بقائهم على الكفر بطلت أعمالهم فلا يثابون عليها في الآخرة ولا يكتب لهم أجر ما عملوا ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ومصيرهم في الآخرة هو العذاب بنار جهنم ماكثين في العذاب أبداً.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي إنما يعمر مساجد الله المصدّق بوحدانية الله المخلص له بالعبادة وحده، والمصدّق بوجود اليوم الآخر يوم القيامة حيث يجازي الله الناس على أعمالهم، وهم إما إلى نعيم الجنة أو إلى عذاب النار ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ وأقام الصلاة المفروضة بأوقاتها مُراعياً شروطها وأركانها، خاشعاً لله متدبراً ما يُتلى فيها من القرآن، وأعطى الزكاة المفروضة على ما يقتنيه من أموال وزروع لمستحقيها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ وهو مع ذلك لا يخشى أحداً إلا الله في أداء شعائر الله والقيام بما أوجبه عليه، ولم يترك أمر الله لخشيته الناس ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ عسى: تفيد الرجاء وهي من الله واجبة، أي فخليق بأولئك الذين يتصفون بما ذكر عنهم أن يكونوا ممن قد هداهم الله سبحانه إلى الحق والصواب.

﴿أَجَعَلْتُم سِقَايَةَ الحَاجِّ وعِمَارَةَ المسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ﴾ هذا توبيخ من الله سبحانه للقوم الذين افتخروا بسقاية الحاج وعمارة بيت الله

---

(١) كان المشركون يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما مَلَكَ» يعنون الأصنام.

الحرام[1]، فأعلمهم الله أن الفخر يكون بِالإِيمَانِ بوحدانية الله وتنزيهه عن الشريك، والتصديق باليوم الآخر ﴿وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والجهاد في سبيل الله يكون بالقتال في سبيله إذا دعت الضرورة، وبذل الجهد وما في الوسع لنشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ أي لا يتساوى حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا في سبيله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على كفره بالله، لأن الله لا يقبل عملاً إلا إذا كان مقترناً بالإيمان بالله، ولم يبتغ فيه إلا وجهه ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ والله لا يهدي إلى طريق الخير والصواب المصرّين على ظلم أنفسهم بالكفر وظلم سواهم بالأذى والعدوان.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي من كان موصوفاً بهذه الصفات من الإيمان بوحدانية الله والهجرة من مكة تأييداً لدينهم وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، أولئك ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ﴾ أي أعلى رتبة وأعظم منزلة عند الله ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وأولئك هم الظافرون بسعادة الدنيا والآخرة.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ والبشارة هي الخبر السار الذي يفرح الإنسان. أي يبشر الله هؤلاء الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله برحمة منه لهم فلا يعذبهم، وبأنه قد رضي عنهم بطاعتهم لربهم وأدائهم ما كلّفهم به ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ويبشرهم ربهم بتلك الجنات التي لهم فيها نعيم دائم لا يزول ولا يفنى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ مقيمين في تلك الجنات إقامة أبدية دائمة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ إن لهم عند الله ثواباً عظيماً على طاعتهم لربهم، وأدائهم ما كلفهم به من الأعمال.

---

(١) روي أن العباس لما أُسِرَ مع أصحابه عقب معركة بدر أقبل المسلمون يعيّرونهم بالشرك فقال العباس: أما والله كنا نعمر المسجد الحرام، ونفك العاني ـ أي الأسير ـ ونسقي الحاج فأنزل الله ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ الآية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

شرح المفردات:

أولياء: جمع ولي وهو الصديق والنصير.

استحبوا الكفر: اختاروا الكفر وأقاموا عليه.

عشيرتكم: أقرباؤكم الأدنون.

أموال اقترفتموها: أموال اكتسبتموها.

تجارة تخشون كسادها: تجارة تخشون بوارها بفوات وقت رواجها بسبب غيابكم عن مكة أيام الموسم.

فتربصوا: فانتظروا.

الفاسقين: الخارجين عن طاعة الله.

محبة الله ورسوله والولاء لهما

وبعد أن حذّر الله المؤمنين من التودد للمشركين واتخاذهم بطانة لهم حذرهم أيضاً من الولاء للأقارب إذا فضّلوا الكفر على الإيمان:

﴿يَا أَيُّها الَّذين آمنوا لا تَـتَّخِذُوا آبَاءَكُم وَإِخْوَانَكُم أَوْلِيَاءَ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم وذلك في حال ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾ إن اختاروا الكفر بالله وآثروه على

التصديق به والإقرار بتوحيده ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنكُم﴾ ومن يتبعهم ويخلص لهم الود على ما هم عليه من الإصرار على الكفر، ويؤثر المقام معهم على الهجرة إلى رسول الله في المدينة المنورة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فالذين يفعلون ذلك هم الظالمون حيث خالفوا أمر الله وتجاوزوا الحدود التي نهاهم عنها.

هذه الآية نزلت في بعض المؤمنين، فإنهم لمّا أُمروا بالهجرة من مكة قالوا إن هاجرنا قاطعنا آباؤنا وأبناؤنا وعشيرتنا وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا، فجاء الرد عليهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُم وأَبْنَاؤُكُم وَإِخْوَانُكُم وَأَزْوَاجُكُم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المتخلّفين عن الهجرة من مكة إن كان المقام مع هؤلاء الأقرب نسباً لكم ﴿وَعَشِيرَتُكُم﴾ والعشيرة قبيلة المرء ومن يعاشرهم من الأقارب الأدنين ﴿وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ وأموال اكتسبتموها فهي عزيزة عليكم أن تتركوها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ وتجارة تخشون بوارها بفوات وقت رواجها بسبب غيابكم عن مكة أيام الموسم ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ ومنازل تعجبكم الإقامة فيها وتودون أن لا تبرحوها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ في سَبِيلِهِ﴾ إن كان كل ذلك أو بعضه أحب إليكم من الله ورسوله، ومن الجهاد في سبيل الله بالمال والأنفس لإعلاء كلمة الحق ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي فانتظروا حتى يحكم الله بعقابه العاجل، أو عذابه الآجل في الآخرة ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ والله لا يرشد القوم الخارجين عن طاعته فيما أمرهم به.

هذا وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[١].

---

(١) أخرجه البخاري.

ويقول النبي ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحَبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحب المرءَ لا يحبه إلاّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يَكره أن يُقذَف في النار»[1].

ويقول النبي ﷺ أيضاً: «من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان»[2].

فالعقيدة الإسلامية لا تقبل أن يكون في القلب شريكاً لله فإما تجرد للعقيدة وإما إعراض عنها، هذه العقيدة هي التي يجب أن تكون المسيطرة والحاكمة على كل تصرفات الإنسان.

فالقرآن يجعل كل مشتهيات الحياة في كفة، ويجعل في الكفة الأخرى حُبَّ الله ورسوله وطاعتهما والجهاد في سبيل الله، وهذه هي الكفة الرابحة التي أخذ بها المسلمون الأولون فانتصروا على كل جحافل الكفر وعلت كلمة الإسلام في ربوع الأرض، ولما أعرض من جاء بعدهم من المسلمين عن هذه المعاني، وركنوا إلى ملذات الحياة ومشتهياتها معرضين عن طاعة الله ورسوله، وتركوا الجهاد في سبيل الله ضعفوا ودبت الفرقة بينهم وأصبحوا لقمة سائغة للمستعمرين، الذين أذاقوهم ألوان الذل واستولوا على خيرات بلدانهم.

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه أبو داود.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

شرح المفردات:

مواطن كثيرة: أماكن كثيرة.

يوم حُنين: واد بين مكة والطائف حدثت فيه معركة سميت باسم الوادي (غزوة حنين).

فلم تغنِ عنكم: فلم تفدكم ولم تنفعكم.

بما رحُبت: بما وسعت.

وليّتم مدبرين: منهزمين.

أنزل اللَّه سكينته: أنزل الله طمأنيته ورحمته.

نجس: المراد بنجاستهم خبث باطنهم، والنجاسة هنا معنوية.

عيْلة: فقراً وفاقة.

غزوة حنين وفضل الله على المؤمنين

حدثت هذه الغزوة بعد فتح مكة مباشرة وسببها أن أشراف قبيلتي هوازن وثقيف اجتمعوا بقيادة مالك بن عوف وانضمت إليهما جموع غفيرة من قبائل شتى حتى بلغ مجموعهم ثلاثين ألف مقاتل، وقد تشاوروا في شأن محمد واتفقوا على قتاله وأن

يبدأوه بالغزو قبل أن يغزوهم. وقال قائل منهم: «والله ما لاقى محمد قوماً يحسنون القتال، فأجمعوا أمركم وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم».

وقد ساق مالك بن عوف مع المقاتلين نساءهم وأموالهم وأبناءهم، ولما سئل مالك: لِمَ فعلت ذلك؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم.

فلما علم رسول الله ﷺ بخروج هذه الجموع إليه أزمع السير إليهم وخرج معه اثنا عشر ألفاً من المقاتلين منهم عشرة آلاف ممن شهدوا فتح مكة، وألفان من الذين أسلموا من قريش بعد الفتح، وخرج معهم نساء كثيرات طمعاً في المغانم.

عبأ رسول الله جنوده فأعطى قيادة المهاجرين لعليّ بن أبي طالب، وقيادة بني الأوس لأسيد بن حضير، وقيادة الخزرج للحباب بن المنذر.

ولما سار جيش المسلمين ورأى أفراده كثرتهم داخلهم شيء من الزهو، فقال رجال منهم: لن نُهزَمَ اليوم من قلّة.

ولما تمت تعبئة الجيش انحدر النبي ﷺ بجنوده في الوادي عند غبش[1] الصبح، وكان رجال من هوازن قد كمنوا له في بعض شعاب ذلك الوادي ومضايقه، فلما حمل المسلمون على جيش العدو لم يلبثوا أن انهزموا. قال البراء بن عازب: فأكببنا على الغنائم، فخرج علينا من كانوا كامنين في الشعاب والمضايق واستقبلونا بالسهام فولّينا مدبرين لا يلوي أحد منا على أحد.

انهزم جيش المسلمين ولكن النبي ﷺ ورجاله من أركان حربه وعددهم ثمانون لم ينهزموا وبقي النبي ﷺ على بغلته يدفعها نحو جموع الأعداء ولكن بعض أصحابه كان يكفّها عن المضيّ خوفاً عليه من الردى في مواجهة العدو والثمانون الذين لم ينهزموا منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والفضل بن العباس وأسامة بن زيد وغيرهم، وكان النبي وهو في تلك الحالة والناس يولون الأدبار حواليه سراعاً لا يلوون على

(١) غبش: الغبش ظلمة آخر الليل.

شيء، يناديهم قائلاً: إليَّ أيها الناس، فلم يجد سميعاً، فقال لعمه العباس وكان جهوري الصوت: صُح بالناس قائلاً: يا معشر الأنصار يا أصحاب السَّمُرة[١]. فما طرقت هذه الصيحات أذنيْ واحد منهم حتى سارع إليه قائلاً: لبيك لبيك، وسيوفهم مصلتة في أيديهم تلمع كالشهب فأمر النبي ﷺ أن يصدقوا الحملة على المشركين، فأجابوه واندفعوا على المشركين كالسيل العرم ثم أخذ النبي ﷺ قبضة من التراب بعدما دعا ربه قائلاً: «اللَّهم أنجز لي ما وعدتني» ثم استقبل بها وجوههم وقال: «شاهت الوجوه»، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه في عينيه تراب من تلك القبضة فولّوا هاربين لا يلوون على شيء تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم وما جلبوه معهم من الشياه والإبل غنيمة للمسلمين بعد أن قُتل الكثير منهم وفي هذه الغزوة نزل الوحي الإلهي:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾أي لقد نصركم الله ـ أيها المؤمنون ـ في مواقع كثيرة كغزوات بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر ومكة، أما يوم غزوة حنين فقد أعجبتكم كثرتكم فتراخيتم في القتال فلم تفدكم هذه الكثرة شيئاً في دفع العدو عنكم ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي وأحسستم وكأن الأرض ضاقت بكم على رحبها وسعتها من شدة الرعب والفزع ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي ثم جعلتم ظهوركم للكفار فارّين منهم لا تلوون على شيء. وبعد هذه الهزيمة جاء النصر من الله ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ثم أنزل الله على المؤمنين رحمته التي تسكن لها القلوب وتطمئن بها اطمئناناً يستتبع النصر القريب، وأما سكينته التي أنزلها الله على المؤمنين فقد كان من أثرها بقاء عدد من المؤمنين حول رسول الله ﷺ يقاتلون معه، وعودة المنهزمين إلى أرض المعركة حين رأوا رسول الله ﷺ يقاتل العدو وحوله فئة من

---

(١) أصحاب السمرة: والسمرة الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان التي بايع فيها المهاجرون والأنصار رسول الله على الإسلام وعلى أن لا يفروا من القتال.

أصحابه ﴿وَأَنزَلَ جُنوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي وأنزل الله مع هذه السكينة التي أنزلها على رسول الله ﷺ والمؤمنين جنوداً من الملائكة لم يروها بأبصارهم ولكنهم وجدوا أثرها في تقهقر أعدائهم ﴿وعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَروا﴾ وعذّب الله الكافرين بأن سلّط المؤمنين عليهم فقتلوا منهم من قتل وأسروا منهم من أُسر ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾ وذلك الذي نزل بهؤلاء الكافرين من الهزيمة هو جزاء لهم على كفرهم ﴿ثُمَّ يَتوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ وتوبة الله على عباده هي أن يعود عليهم بالمغفرة إذا تابوا فيقبل توبتهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي غفور لذنوب عباده رحيم بهم.

لقد أذاق الله المسلمين في بدء معركة حنين مرارة الهزيمة مع كثرة عددهم ووفرة سلاحهم ليبين الله سبحانه لمن قال: «لن نغلب اليوم عن قلة» بأن النصر إنما هو من عند الله، وأن من ينصره الله فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له غيره، وأنه سبحانه هو الذي يتولّى نُصرة رسوله ﷺ ودينه لا كثرتكم ـ أيها المسلمون ـ التي أعجبتكم فلم تفدكم شيئاً، فانهزمتم وتقهقرتم أمام أعدائكم.

والذي يتدبر انتصار المسلمين في غزوة حُنين يدهش كل الدهشة لحدوثها على غير السنن الطبيعية فإن تصدُّع جيش المسلمين وهزيمته أمام وجه العدو وانكشاف جموعه عن النبي ﷺ وهو ممتطٍ ظهر بغلته وهو على مرمى سهم من العدو الذي ثمل بخمرة النصر، ثم يرى بعد ذلك طائفة محدودة العدد من المسلمين تستجيب لنداء العباس في صيحاته تتغلب على جموع المشركين الذين يفرّون مذعورين أمامهم تاركين نساءهم وأولادهم وكل ما يملكون وراءهم. هذا كله لا يعقل حدوثه إلا بتأييد إلهي وهو الذي عناه الله بقوله: ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾.

لقد افتتح الله غزو المسلمين للمشركين بغزوة بدر واختتمها بغزوة حنين، والملائكة قاتلت مع المسلمين في هاتين الغزوتين، وبهما قضى الله على محاولة الكفار القضاء على الإسلام، فالأُولى وهي غزوة بدر أرهبت المشركين وكسرت من شوكتهم،

والثانية وهي غزوة حُنين استنزفت قواهم وفرّقت جموعهم حتى لم يجدوا مهرباً إلا الدخول في دين الله.

ثم يُعقّب القرآن على غزوة حنين بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّما المشركون نَجَسٌ﴾ والنجس هو ما يصيب المرء من قذر أو دنس، فالمشركون لا يتطهرون من الجنابة والحدث ولا من سائر النجاسات التي تصيب أجسادهم وقد يراد بالنجاسة النجاسة المعنوية التي تتمثل بخبث اعتقادهم وطويتهم فهم بمنزلة الأعيان النجسة في وجوب اجتنابهم ﴿فَلاَ يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِم هذا﴾ هنا ينهى الله المؤمنين أن يمكّنوا المشركين من دخول المسجد الحرام بعد العام الذي نزلت فيه هذه الآية، وهو العام الهجري التاسع حين بعث رسول الله علياً بن أبي طالب وبصحبته أبو بكر إلى موسم الحج وأمره أن ينادي بالناس بجملة أمور منها: ألا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بيت الله الحرام عريان كما كان يفعل المشركون.

ولمّا كان منع المشركين من دخول المسجد الحرام يترتب عليه حرمان المسلمين من بعض موارد رزقهم التي تأتي مع هؤلاء المشركين القادمين من أنحاء الجزيرة العربية إلى حج بيت الله الحرام، فقد بشّر الله المسلمين بالغنى وتوفير الرزق لهم:

﴿وَإِن خِفْتُم عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ وَالعيْلة: الفقر والفاقة. أي وإن خفتم ـ أيها المسلمون ـ فقراً بسبب منع المشركين عن الحج إلى بيت الله الحرام، وفقدان ما كانوا يجلبونه معهم من الأرزاق التي تستفيدون منها فسوف يغنيكم الله بما تحتاجون إليه من الأموال من فضله إن شاء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ حكيمٌ﴾ إن الله عليم بشؤونكم، حكيم في تدبيره لها.

وقد صدق الله وعده فأرسل المطر مدراراً، ووفق أهل تباله وجرش للدخول في الإسلام فجاؤوهم بالأرزاق والخيرات. وصارت أرضهم خصبة بالمطر الذي انهمر،

وتبع ذلك فتوحات الإسلام على البلاد المجاورة لهم كالفرس والروم وغيرهما وغنم المسلمون منها الغنائم الكثيرة.

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ولا يدينون دين الحق: أي لا يعتقدون صحة دين الإسلام الذي هو دين الحق.

الجزية: هي ضريبة يأخذها المسلمون من أهل الكتاب جزاء حمايتهم وحقن دمائهم.

عن يد: عن قدرة وغنى.

صاغرون: ملتزمون الخضوع لأحكام الإسلام.

علاقة المسلمين بأهل الكتاب

وبعد أن بيّن القرآن كيفية معاملة المشركين بالبراءة من عهدهم بسبب نقضهم للعهود ووجوب مقاتلتهم إلى أن يسلموا، بيّن بعد ذلك كيفية معاملة أهل الكتاب:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ورسُولُـهُ وَلا يَـدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّـذِينَ أُوتوا الكِتَابَ حَتَى يُـعْطُوا الجِزْيَـةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرونَ﴾.

هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ وفيها الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية وهم ملتزمون الخضوع لأحكام الإسلام. وبعد نزول الآية كانت غزوة تبوك التي كان من أسبابها ما يلي:

ففي أواخر السنة الثامنة للهجرة، وبعدما توّج المسلمون انتصاراتهم بدخول مكة

وانتصارهم بمعركة حنين، بلغت النبي ﷺ أنباء خطيرة عن اعتزام الروم وحلفائهم العرب من لخم وجذام وغسان وعاملة، توجيه ضربة إلى الدولة الإسلامية، قبل أن يشتد ساعدها وتنفرد بقيادة الجزيرة العربية، وتشكل خطراً حاسماً على الوجود البيزنطي في بلاد الشام، وتناهى إلى علم المسلمين أن القبائل بدأت بإرسال طلائعها إلى البلقاء، كما أن الروم قتلوا بعض من أسلم في تلك النواحي، وقتلوا أيضاً الرسول الذي أرسله النبي ﷺ إليهم يدعوهم إلى الإسلام.

وقتئذ خرج النبي على رأس جيش ضخم قيل إنه بلغ ثلاثين ألفاً، وتخلّف بعض الناس من أهل المدينة المنورة وحولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب، ووقت قيظ وحرّ، فبلغ جيش المسلمين موضع تبوك بعد مسيرة خمسة عشر يوماً، ولكن الروم انسحبوا إلى الداخل عبر أراضي الأردن وفلسطين.

وإزاء انسحاب الروم من ساحة المواجهة لم يجد النبي ﷺ مبرراً لقتال القبائل العربية النصرانية المتشرة في المنطقة فشغل خلال الأسابيع الثلاثة التي قضاها في تبوك بمحاولة تحرير هذه القبائل من الولاء للدولة البيزنطية، وعقد معاهدات صلح وتعاون معها، ثم رجع رسول الله من دون الالتحام مع الروم لضيق الحال وضعف المسلمين.

فالله سبحانه يقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُون بِاللَّهِ ولا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ والذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان هم اليهود والنصارى. فهم وإن آمنوا بوجود الله واليوم الآخر إلا أنهم وصفوا الله بصفات تنافي الألوهية، فإن أكثر اليهود مشبّهة يعتقدون أن الإله له جسم، فقد زعموا أن الله صارع يعقوب إلى الفجر ولم يغلبه، وقصارى القول إنه لم يكن للأمم القديمة إلّه آدمي في كل شيء كإلّه اليهود، كما أن منهم من قال: عزير ابن الله والله منزه عن الجسم.

والنصارى يعتقدون بالتثليث فهم يقولون بوجود الأب والابن وروح القدس، كما يعتقدون بأن عيسى هو الرب وأنه ابن الله والله منزه عن الولد فصاروا بذلك

لا يؤمنون بوجود الإله الحق الذي لا شريك له .

كما أن اليهود لا يؤمنون باليوم الآخر على النحو الصحيح «فهم يعتقدون أن الثواب الوحيد الذي كان البررة الصلاّح من آل إسرائيل يرجونه هو أن يجود الله عليهم بحياة طويلة باسمة الأفراح واسعة العيش. . . وكان اليهودي يرى نهاية الوجود بنهاية الحياة. . . ويرى أن لاسعادة للإنسان إلاّ بطيبات الأرض»[١] .

والنصارى يعتقدون بأن الأرواح تبعث يوم القيامة دون الأجساد، وأن نعيم الجنة وعذاب النار يتعلقان بالروح فقط ولا شأن للجسد بذلك، وهذا منافٍ لما أخبر به القرآن من أن في الجنة نعيماً مادياً يفوق نعيم الدنيا ولهم في الجنة من كل الثمرات ولهم أزواج يتمتعون بهن، فإذا كان النعيم في الجنة روحياً كما يدّعون فكيف يغرينا الله بشيء لا نعلمه، فإيمان هؤلاء الناس باليوم الآخر ليس إيماناً صحيحاً كما يريده الله .

﴿وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي أن اليهود والنصارى لا يحرّمون ما حرّمه الله ورسوله محمد ﷺ في القرآن والسنة، وفضلاً عن ذلك فهم لا يلتزمون ما حرّمته شريعتهم على ألسنة رسل الله إليهم، فنرى اليهود يستحلون أكل أموال الناس بالباطل كالربا وغيره، والنصارى يستبيحون ما حرّم عليهم في التوراة كالخمور وأكل لحم الخنزير ﴿وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي لا يعتقدون بصحة دين الإسلام الذي هو الدين الحق الناسخ لغيره من الأديان، أو بمعنى أن الدين الذي يعتنقه كل من اليهود والنصارى إنما هو دين تقليدي وضعه لهم أحبارهم وأساقفتهم بآرائهم الاجتهادية وليس هو دين الله الحق الذي أوحاه الله إلى موسى وعيسى عليهما السلام ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي من الذين أُعطوا التوراة والإنجيل وهم اليهود والنصارى .

﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾ أي قاتلوا هؤلاء حتى يدفعوا إليكم الجزية،

---

(١) عن كتاب (اليهود في التاريخ) للقس بولس عبود.

ومعنى عن يد: أي دفع الجزية بانقياد وطاعة، وأن يسلموها بأيديهم مباشرة بغير توكيل وقيل: عن يد بمعنى الغنى ولذلك لا تجب الجزية على الفقير. أو بمعنى: عن إنعام منكم عليهم ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ وهم ملتزمون الخضوع لأحكام الإسلام. وقال الشافعي في كتابه (الأم): سمعت عدداً من أهل العلم يقولون: الصغار أي أن يجري عليهم حكم الإسلام، وبهذا قال الإمام ابن القيّم الجوزية. ومن المفسرين من قال في الآية أقوالاً يأباها عدل الإسلام ورحمته.

توضيح عن معنى الجزية

الجزية على وزن فِعْلة، من جزى يجزي إذا كافأ عما أسدي إليه من معروف، فكأنهم أعطوا الجزية جزاء ما مُنحوا من الأمن، وجزاء الحماية لهم والدفاع عنهم، أو جزاء إعطاء الذمي حقوق المسلمين ومساواتهم بأنفسهم في حرية النفس والمال والعرض.

ومتى أعطوا الجزية سُموا أهل الذمة أي أهل العهد والميثاق الذي يوجب على المسلمين معاملتهم بالعدل والمساواة بمقتضى ذمة الله ورسوله، ويُقال لهم أيضاً (المعاهدون) لأنهم يقيمون في دار الإسلام بموجب عهد أو معاهدة معقودة بين المسلمين وبينهم يجب تنفيذ أحكامها، ويحرم ظلمهم وتكليفهم ما لا يطيقون.

والجزية لم يبتدعها الإسلام بل كانت معروفة قبله عند جيران العرب من الفرس والروم وغيرهما من الأمم.

فالجزية ضريبة شخصية يفرضها الإسلام على غير المسلمين من رعايا الدولة التي فتحها الإسلام، وهي من غير المسلمين تقوم مقام الزكاة التي تؤخذ من المسلمين. فإذا كان المسلم يدفع لبيت المال زكاةً تصرف على الفقراء والمحتاجين، فأهل الكتاب وغيرهم الموجودون في المجتمع الإسلامي ينتفعون أيضاً بالخدمات التي يؤديها الإسلام لهم، وبالمقابل يجب عليهم أن يؤدوا شيئاً من الأموال نظير تلك

الخدمات، بل إن الإسلام لا يكلفهم أن يدخلوا جنداً في حرب ضد أي عدو للمسلمين.

والجزية تسقط عمن اعتنق الإسلام من أهل الذمة لقول النبي ﷺ: «ليس على المسلم جزية»[١].

وجاء في صحيح مسلم ما ملخصه أن النبي ﷺ كان إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ثم قال: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم. ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. . . فإن هم أبوا فلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم. فإن هم أبوا ـ أي إعطاء الجزية ـ فاستعن بالله وقاتلهم».

وقد اتفق الفقهاء على أن الجزية تُقبل من أهل الكتاب ـ أي اليهود والنصارى ـ وتقبل أيضاً من المجوس، أما المشركون فقد اختلف الفقهاء في شأنهم، فذهب جمهور الفقهاء من الشافعية والحنابلة إلى أن الجزية لا تقبل من المشركين مطلقاً ولا يقبل منهم إلا الإسلام فإن لم يسلموا قوتلوا، وذهب الأئمة الأحناف ومالك وأحمد بن حنبل إلى أن الجزية تقبل من المشركين إلاّ مشركي العرب ولأن النبي ﷺ لم يأخذ الجزية من مشركي العرب، والجزية لا تؤخذ من الفقير غير المتكسب، ولا من الرهبان المنقطعين للعبادة في الصوامع ولا على نساء أهل الذمة.

والجزية تكون على ضربين: جزية بالتراضي والصلح، وجزية يفرضها الإمام وهي مقدّرة على الأقل والأكثر. فتوضع على الغني ثمانية وأربعين درهماً، وعلى المتوسط أربعة وعشرين، وعلى الفقير المتكسب اثني عشر درهماً في السنة وهذا ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وعلى المسلمين في مقابل الجزية توفير الحماية

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي.

لأهل الذمة والدفاع عنهم فإن لم تتمكن الدولة الإسلامية من حمايتهم فإن الجزية تسقط عنهم.

اعتراض على الجزية

سمعت من بعض النصارى اعتراضاً على كلمة الجزية وأنها انتقاص مهين في حقهم، هذا الاعتراض أجاب عنه بعض الفقهاء فقد جاء في كتاب المهذب من فقه الشافعية: «فإن امتنع قوم من أداء الجزية باسم الجزية وقالوا: نؤدي باسم الصدقة ـ أي الزكاة ـ ورأى الإمام أن يأخذ الجزية باسم الصدقة جاز لأن نصارى العرب قالوا لعمر رضي الله عنه: لا نؤدي ما يؤدي العجم ولكن خذ منا باسم الصدقة كما تأخذ العرب . . . فصالحهم على أن يُضعّف عليهم الصدقة»[1] ويأخذها جزية باسم الصدقة.

هذا وقد أوصى رسول الله بأهل الذمة فقال:

«ألا من ظلم معاهداً[2]، أو انتقصه[3]، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه[4] يوم القيامة»[5].

وقال رسول الله ﷺ: «من قتل نفساً معاهداً لم يَرِح رائحة الجنة. وإنّ ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»[6].

---

(١) المهذب للشيرازي ٢/ ٢٥٠.

(٢) معاهدا: من كان بينك وبينه عهد، وأكثر ما يطلق في الحديث على أهل الذمة.

(٣) انتقصه: جعل حقه ناقصا.

(٤) حجيجه: أي محاججه ومغالبه بإظهار الحجة عليه. والمراد هنا: فأنا خصمه يوم القيامة.

(٥) أخرجه أبو داود.

(٦) أخرجه البخاري.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

شرح المفردات:

يضاهئون: يشابهون.

أنى يُؤفكون: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل مع قيام الدليل.

أحبارهم: علماء اليهود.

رهبانهم: متنسكو النصارى.

ويأبى الله: ولا يرضى الله.

ليظهره: ليعليه.

عقائد اليهود والنصارى

ويتابع القرآن الكلام عن اليهود والنصارى فيقول: إنهم ادعوا أن لله ولداً ومن قال ذلك فقد أشرك بالله واقترف إثماً عظيماً:

﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارى المَسيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ أي تجاوز اليهود وحدانية الله في عقيدتهم وقالوا: عزير ابن الله، وتجاوز النصارى الوحدانية كذلك

فقالوا: المسيح ابن الله ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِم﴾ أي قولهم هذا مبتدع من عندهم، ولم يأتهم به كتابٌ من عند الله، ولا رسولٌ منه، فهو مجرد قولٍ بالفم فقط دون أن يكون له حقيقة في الواقع ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِين كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ يضاهئون: يشابهون، أي يشابهون بادعائهم هذا قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم الماضية التي ضلت وانحرفت عن الحق وأشركت مع الله في العبادة آلهة أخرى كالهنود[١] والبوذيين فيها[٢] وبعض أهل الصين واليابان وقدماء المصريين واليونان والرومان[٣].

وهذا البيان لهذه الحقيقة أثبته الدراسات العلمية وهو من معجزات القرآن فإنه لم يكن يعرفها أحد من العرب في زمن نزول القرآن.

وجاء في كتاب «الهند: شعبها وأرضها»: «وتُحَدِّثنا السجلاتُ والوثائق عن بعثات دبلوماسية من الهند إلى روما وجدت في العاصمة الرومانية إبان حكم ستة من الأباطرة بين سنة ٢٢ قبل الميلاد وسنة ٥٣٠ بعد الميلاد، وكان لهذه الاتصالات بين الهند وبين عالم البحر المتوسط أثرٌ في الديانة البوذية وفي عقائد الإغريق والرومان وفي الديانة المسيحية»[٤].

هذا مع العلم أن أول من أعلن ألوهية عيسى وبنوّته لله سبحانه مجمع نيقية سنة ٣٢٥م.

---

(١) كالديانة التي نشأت في الهند وهي الديانة البُدّهيّة نسبة إلى مؤسسها بُدّهه الذي ولد قبل ظهور المسيح بخمسة قرون ولم تظهر ديانته إلاّ في القرن الثالث قبل الميلاد في الهند ثم انتشرت في بقية آسيا. يقول الدكتور جوستاف لوبون في كتابه حضارات الهند ترجمة عادل زعيتر صفحة ٣٤٤: «وتجد أوجه شبه شاملة للنظر بين حوادث حياته وبعض أقاصيص الأناجيل» وبُدّهه ألّهه أتباعُه إذ كانوا يدخلون معابده ويسجدون له أمام صورته.

(٢) يُعتبر بوذا عند البوذيين إلّهاً يصلّى له ومنقذاً لهم من الضلال.

(٣) من يرد إيضاح وتفسير ما ذهبت إليه فليرجع إلى كتاب (النصرانية) للدكتور محمد أحمد الحاج، وقد صدر هذا الكتاب عن الدار الشامية ـ بيروت.

(٤) تأليف مانوراما موداك، ترجمة العميد محمد عبد الفتاح إبراهيم، صفحة ١٠٠ ـ مكتبة النهضة المصرية، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

وبعد أن بين الله بأن اليهود والنصارى حادوا عن طريق الله بادعائهم بأن لله ولداً أتبع ذلك قوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ هذه الجملة تستعمل للتعجب من قولهم هذا، ويراد بها الهلاك لأن من قاتله الله لا بد أن يهلك. ويقول ابن عباس: إن معنى (قاتلهم الله) لعنهم الله، وكل شيء في القرآن (قتل) فهو لعن، ومن المعروف أن اللعن من الله هو الطرد من رحمته. ثم عقب القرآن على ذلك بقوله: ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أنّى: بمعنى كيف، أي كيف يصرفون عن حقيقة وحدانية الله وعبادته وحده بعد قيام الأدلة بأنها الحق، ويميلون بأقوالهم هذه إلى الباطل.

ولا أريد أن أناقش النصارى في عقائدهم فهذا موضوع يطول وقد ألف في ذلك كثير من الكتب ولكن أكتفي بما جاء في دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ محمد فريد وجدي حيث يقول نقلاً عن دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية ما يلي:

«. . . وإن تلاميذ المسيح الأولين الذين عرفوا شخصه وسمعوا قوله كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأركان الثلاثة المكوّنة لذات الخالق، وما كان بطرس أحد حواريه يعتبره أكثر من رجل يوحى إليه من عند الله، أما بولس فإنه خالف عقيدة التلاميذ الأقربين لعيسى وقال: إن المسيح أرقى من إنسان وهو أنموذج إنسان جديد ـ أي عقل سام ـ متولد من الله ـ وكان موجوداً من قبل أن يوجد هذا العالم، وقد تجسد هنا لتخليص الناس ولكنه مع ذلك تابع لله الآب».

إلى أن قالت دائرة المعارف:

«كان الشأن في تلك العصور أن عقيدة إنسانية عيسى كانت غالبة مدة تكوّن الكنيسة الأولى من اليهود المتنصرين، فإن الناصريين (سكان مدينة الناصرة) وجميع الفرق النصرانية التي تكونت من اليهودية اعتقدت بأن عيسى إنسان بحت مؤيد بالروح القدس، وما كان أحد يتهمهم إذ ذاك بأنهم مبتدعون وملحدون. قال جوستن مارشير (وهو مؤرخ لاتيني في القرن الثاني) إنه كان في زمنه في الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن

عيسى هو المسيح ويعتبرونه إنساناً بحتاً، وإن كان أرقى من غيره من الناس، وحدث بعد ذلك أنه كان كلما نما عدد من تنصر من الوثنيين ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل».

ولنعد إلى تتمة الآيات في هذا السياق:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الأحبار: جمع حبر بكسر الحاء وفتحها وهو العالِم عند اليهود. والرهبان: جمع راهب وهو العابد عند النصارى الذي اعتزل ملذات الحياة وانقطع لعبادة الله. والمعنى: جعل اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم كالآلهة حيث أطاعوهم في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرّم الله، كما أطاعوهم في كل شيء.

عن عديّ بن حاتم وكان نصرانياً قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عديّ اطرح هذا الوثن من عنقك قال: فطرحته وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة، فقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخذوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: قلت يا رسول الله: إنا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرّمون ما أَحَلَّ الله فتحرّمونَهُ، ويُحِلُّون ما حرّم الله فتُحلُّونه قال: قلت: بلى، قال: فتلك عِبادَتُهم. وقد أسلم عديّ بعد ذلك وكان من خيرة الصحابة.

ثم ذكر القرآن بعد ذلك ما انفرد به النصارى عن اليهود ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي واتخذ النصارى المسيح ابن مريم إلهاً وكان ذلك على صور شتى، فمرة عبدوه على أنه ابن الله، وتارة عبدوه على أنه إلّه، وتارة على أنه ثالث ثلاثة.

وما فعله النصارى في شأن العقيدة لم يأمر به الله في كتبه التي أنزلها إليهم على يد رسله:

﴿وَمَا أُمروا إِلاَّ لِيَعْبُدوا إِلَهاً وَاحِداً﴾ والحال أنهم ما أُمروا على ألسنة رسل الله والكتب التي أنزلها الله عليهم، إلا بعبادة الله وحده، فهو المعبود بحق ولا معبود سواه

في الوجود ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ هنا نفي الألوهية عن غير الله وإثباتها له وحده الذي لا إله في الكون إلا هو ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه الله عن الشركاء والأولاد فهو رب العالمين.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يريد أهل الكتاب أن يطمسوا نور القرآن الذي أوضح الله به وجه الحق في شأن العقيدة وذلك بمحاولتهم إبطاله وصرف الناس عنه بإثارة الشبهات حول تعاليمه. وفي الآية استعارة بلاغية رائعة حيث شبه حالهم في محاربة الإسلام والقرآن الكريم بحال من يريد طمس نور عظيم نشره الله في الآفاق، ومحاولة إطفائه بنفخه في الفم وهذا من المستحيلات. ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرونَ﴾ يأبى: بمعنى لا يريد أو لا يرضى، أي لا يريد الله إلا إتمام هذا النور بإعلاء كلمة الإسلام ولو كره الكافرون إتمامه.

فالآية الكريمة وعد من الله سبحانه ـ ومن أصدق من الله وعداً ـ بأن ينشر دينه، هذا الوعد جاء في زمن كان المسلمون محصورين في جزيرة العرب، ولم تمض سنوات حتى انتشر الإسلام في كثير من ربوع العالم، وهذا من الأنباء الغيبية التي تحققت، والتي تشهد بأن القرآن وحي إلهي وأن محمداً رسول الله حقاً وصدقاً.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي هو الله سبحانه الذي أرسل رسوله محمداً بالقرآن المشتمل على الإرشادات السامية والتوجيهات القويمة، كما أرسله بدين الحق وهو دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ والإظهار هنا بمعنى الإعلاء والغلبة بالحجة والبرهان وصلاحيته للشعوب على سائر الأديان كلها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وصف الله الذين اتخذوا لله ولداً بالشرك بالله كما وصفهم في الآية السابقة بالكفر، فهم قد جمعوا بين الكفر والشرك بالله بأدعائهم بأن لله ولداً.

تأمل قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ فلم يخصص ديناً من الأديان الحاضرة لأن في الكون أدياناً متعددة كالديانة البوذية، وديانات اليهود والنصارى،

والمجوس الذين يعبدون النار، وأديان الهند وغيرها. وقد يتساءل القارىء: كيف يعلو الإسلام على الأديان كلها وأتباعها أكثر عدداً من المسلمين؟ والجواب: هو أن الإعلاء بحججه وصلاحيته للمجتمعات البشرية. ولنأخذ مثلاً: الطلاق، فطالما تعرّض الإسلام للطعن من أتباع الديانات الذين يحرّمون الطلاق ثم اضطروا أن يبيحوا الطلاق وإن خالف ذلك تعاليم دينهم لأنهم لم يجدوا حلاً للمشكلات المستعصية في الأسرة إلاّ بذلك.

ومثال آخر هو الرضاعة: لقد قامت في أوروبا وأميركا حملات كثيرة ضد الرضاعة الطبيعية وطالبوا باستخدام اللبن المجفف وغيره من مشتقات النبات وكان ذلك في نظرهم نظاماً أكمل لتغذية الطفل ثم بعد ذلك ظهرت أضراره على صحة الطفل ونفسيته، ثم اضطروا أن يعودوا إلى الرضاعة الطبيعية وقد جاء في القرآن: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾(البقرة: ٢٣٣).

ومثال آخر: الخمر التي حرمها الإسلام، واليوم نجد حرباً شعواء ضد الخمر في الدول التي أباحتها بعد أن اكتشف العلم أضرارها على الكبد والمخ والسلوك الإنساني[١].

وهناك عشرات الأمثلة يضيق بنا المجال للاستشهاد بها في هذا المقام.

من هو عزير (عزرا)

وعزير هذا هو الذي يسميه اليهود (عزرا) والظاهر أن يهود العرب هم الذين صغروا اسمه بالصيغة العربية للتحبيب وأطلقوا عليه اسم (عزير). ولم يقل كل اليهود (عزير ابن الله) بل جماعة منهم فقط، ولم ينكر اليهود المعاصرون للنبي ﷺ هذا النص القرآني (عزير ابن الله) ولم يكذبوه، فكان ذلك دليلاً على أنه كان في المدينة المنورة

---

(١) باختصار وتصرف عن تفسير الشعراوي.

آنذاك من كان يدّعي ذلك ويؤمن به، و «عزرا هو كاهن ابن سرايا، لقّب بالكاتب، إذ إنه كان موظفاً في بلاط أمبراطور الفرس (أرتحشستا) ومستشاراً له في شؤون الطائفة اليهودية التي كانت تقيم في ما بين النهرين منذ أيام السبي. وقد تمكن عزرا لثقة الأمبراطور به وتلبيته طلباته من أن ينال عفو الأمبراطور عن اليهود وسماحه لهم بالعودة إلى القدس وإقامة حكم ذاتي لهم في فلسطين بحيث يقيمون مجتمعهم على التقاليد العبرانية... وكانت عودته إلى القدس حوالى ٤٥٨ أو ٤٥٧ قبل الميلاد... وعُرف عزرا في القدس بإخلاصه ونشاطه في سبيل طائفته التي كان كاهناً عليها فحاز ثقة وإعجاب وولاء اليهود المعاصرين له من نبلاء وكهنة فلم يعارضوه في أعماله وإصلاحاته. وقد قام عزرا بمجرد عودته إلى القدس بقراءة ناموس موسى أمام اليهود وتفسيره لهم بمعونة اللاويين مستعيناً أيضاً بالترجمة الآرامية للأصل العبراني. وكان اليهود يُقبلون على الاستماع لشريعتهم ويعلنون ولاءهم لها، وهذا ما جعل اليهود المتأخرين عنه عدة أعصر يعتبرونه زعيماً لهم بعد موسى الذي أخرجهم من مصر... ويعتقد اليهود أنه هو الذي جمع أسفار الكتاب المقدس ونظمها...»[1].

نظرة القرآن إلى عيسى عليه السلام

كان عيسى عليه السلام حلقة في سلسلة الأنبياء والرسل الذين بعث بهم الله تعالى إلى بني إسرائيل وأنزل عليه الإنجيل، كما جاءهم عيسى بالتوحيد الخالص لله والإقرار بالعبودية له، كما أكد لهم أنه بشر اصطفاه الله بالرسالة الإلهية لدعوة بني إسرائيل إلى شريعة الله، وأنه مصدق للتوراة غير ناسخ لها بل مفسر لها وحاكم بشريعتها ومكمل لها.

جاء في القرآن نقلاً عن لسان عيسى عليه السلام حيث أنطقه الله وهو في المهد:

---

(١) باختصار عن كتاب (قاموس الكتاب المقدس) تأليف نخبة من الأساتذة.

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ (مريم: ٣٠ ـ ٣٢).

وينقل القرآن ما قاله عيسى عليه السلام لقومه:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الصف: ٦).

وجاء في القرآن ما خص الله به عيسى عليه السلام:

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: ٤٦).

ويبين القرآن الإثم العظيم لمن يدعي ألوهية عيسى عليه السلام:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٢).

ويتحدث القرآن عن قدرة الله وسلطانه في الكون نافياً البنوة له لأي مخلوق في هذا الوجود:

﴿ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢).

وبيّن القرآن للذين يدعون بأن المسيح ابن الله لأنه خلق بدون أب على خلاف سنة البشر في التوالد، لهؤلاء يخاطبهم القرآن: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩). فإذا كانت ولادة عيسى بدون أب فخلق آدم أعظم من خلق عيسى لأنه خلق بدون أب ولا أم.

ويخص القرآن أم عيسى مريم بأعظم مراتب الطهارة والقربى من الله:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(آل عمران: ٤٢).

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

شرح المفردات:

يكنزون الذهب والفضة: يجمعونها ويدخرونها ولا يؤدون زكاتها.

يُحْمَى عليها: الإحماء شدة الحرارة.

فَتُكْوى: والكي هو أن يوضع على الجلد جمر أو معدن حار.

جباههم: جمع جبهة وهي من الوجه ما بين الحاجبين إلى منابت شعر الناصية.

جنوبهم: جمع جنب وهو جانب الجسد من يمين ويسار.

التحذير من أكل أموال الناس وكنزها

بعد أن بيّن القرآن أن النصارى واليهود اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله بين بعد ذلك سيرة الكثيرين منهم:

﴿يَا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا إنَّ كَثيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ﴾.

أسند القرآن أكل أموال الناس إلى كثير من الأحبار والرهبان دون جميعهم لأنه لا يخلو من وجود من يأنفون ذلك، وقد عبر القرآن عن أخذهم أموال الناس بالأكل (ليأكلون) من باب الاستعارة، لأن من أكل شيئاً فقد استأثر به ومنعه من الوصول إلى غيره، ومن هذا الوجه سمي الأخذ بالأكل.

وقد وصف القرآن أخذهم أموال الناس بالباطل، والباطل ضد الحق وهذا ما يتراءى لنا من الوجوه الآتية:

منها: ما يأخذونه على فتاوى تحليل الحرام وتغيير الأحكام إرضاء لشهوات الملوك وكبار الأغنياء.

ومنها: أخذهم الهدايا والنذور التي تقدم إلى قبور الأنبياء والصالحين والمعابد.

ومنها: ما يأخذونه من الربا الفاحش وهو خاص باليهود واليهود أساتذة المرابين في العالم، ومن أقوالهم: «للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا».

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللَّهِ﴾ أي ولا يكتفون بذلك بل يصرفون أتباعهم ويمنعونهم من الدخول في دين الإسلام واتباع رسول الله محمد ﷺ بإثارة المطاعن والشبهات حوله.

وبعد أن وصف الله أهل الكتاب بالحرص على أكل أموال الناس بالباطل ذكر بعد ذلك الوعيد لمن جمع المال، ومنع الحقوق الواجبة فيه سواء من أهل الكتاب أم من المسلمين:

﴿والَّذين يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونها في سَبيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذابٍ أليمٍ﴾.

والكنز لغة: الضم والجمع، أي الذين يدخرون الأموال ولا ينفقونها في سبيل الله.

وفي قوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استعارة بلاغية لزيادة الإيلام لهم لأن البشارة لا تكون إلا للخبر السار فكيف إذا كانت البشارة بالعذاب.

ولما نزلت هذه الآية ظن المسلمون أنه لا يحل لهم كنز المال وأنه يجب إنفاقه كله في سبيل الله فشق ذلك على المسلمين، فقال النبي ﷺ حينئذ: «ما أُدِّي زكاته فليس بكنز»[1] أي أن المال إذا أخرجت الزكاة عنه ليس كنزاً محرماً.

وإلى هذا ذهب جمهور الصحابة ومن بعدهم من العلماء إلى عدم حرمة اقتناء الأموال التي تفيض عن الحاجة ما دام صاحبها يؤدي حق الله فيها عن طريق الزكاة، وحجتهم في ذلك أن الله شرع المواريث، ولو وجب إنفاق كل ما زاد عن الحاجة من مال في سبيل الله لما كان لمشروعية المواريث التي قررها القرآن من فائدة.

وقد ثبت أن سعد بن أبي وقاص عندما كان مريضاً، وزاره رسول الله، قال سعد: يا رسول الله أأوصي بمالي كله في سبيل الله؟ قال: لا، إلى أن انتهى بقوله: «هل أوصي بالثلث؟ فقال له رسول الله: الثلث كثير، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون أيدي الناس..»[2].

كما كان في عهد رسول الله من الصحابة من يملكون الكثير من الأموال كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما ولم يأمرهم رسول الله بإنفاق ما زاد عن حاجاتهم الضرورية.

وبعض الصحابة فهم من الآية السابقة تحريم كنز الأموال التي تفيض عن حاجات الإنسان الضرورية كأبي ذر الغفاري رضي الله عنه فكان يفتي بذلك فنهاه معاوية

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه البخاري.

فلم يتته فخشي أن يضر بالناس في هذا فكتب رسالة يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان فاستقدمه عثمان وأنزله ببلدة الرَّبذه القريبة من المدينة المنورة وقال له تنحّ قريباً، قال أبو ذر: والله لن أَدَعَ ما كنت أقول.

كما روي عن عليّ رضي الله عنه قوله في الآية ﴿وَالَّذين يَكْنزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ﴾ قال: أربعة آلاف درهم فما دونها نفقة وما فوقها كنز.

ويحتمل أن يكون مجمل ما روي عن أبي ذر رضي الله عنه، وعن عليّ رضي الله عنه في هذا المقام هو أن الآية نزلت في وقت شدة الحاجة إلى المال لأن هذه الآيات نزلت إثر غزوة تبوك وجيش المسلمين يعاني الفقر ولم يكن في بيت المسلمين ما يفي بحاجاتهم الضرورية فحذرت الآية الكريمة من كنز الأموال وعدم إنفاقها في سبيل الله.

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا في نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يعذب الله يوم القيامة الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بهذه الأموال التي يحمى عليها في نار جهنم وتصبح جمراً ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُم وَجُنُوبُهُم وَظُهُورُهُمْ﴾ أي تحرق جباه كافريها وجنوبهم وظهورهم بها.

ثم يقال لهؤلاء الذين يُعذَّبون بأموالهم: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُم لأَنْفُسِكُم﴾ أي هذا جزاء كنزكم المال لأنفسكم دون أن تؤدوا حق الله فيه ﴿فَذُوقوا مَا كُنْتُم تَكْنِزُونَ﴾ فذوقوا عذاب الله بما كنتم تمنعون من أموالكم على المستحقين له.



﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

شرح المفردات:

عِدَّة الشهور: عددها.

في كتاب الله: الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه جميع أحوال الخلق. وقيل المراد بالكتاب الحكم الذي أوجبه وأمر عباده بالأخذ به.

حُرُم: جمع حرام، والشهر الحرام هو الشهر المحرّم فيه القتال.

الدِّين القيّم: الدين المستقيم السليم من العوج.

كافة: جميعاً.

النسيء: تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر.

ليواطئوا: ليوافقوا.

زُيِّن: حُسِّنَ.

تحريم القتال في الأشهر الحُرُم

كان العرب قد ورثوا عن ملّة إبراهيم وإسماعيل تحريم القتال في الأشهر الحُرُم وهي:

ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب. وذلك لتأمين مناسك الحج

والطرق الموصلة إليه. ولما طال عليهم الزمن غيّروا وبدّلوا في شعائر الله، واستبدلوا بعض الأشهر الحرم بسواها من الأشهر، وربما زادوا في أشهر السنة شهراً بأن يجعلوها ثلاثة عشر شهراً، لذا جاءت الآيات التالية تصحح هذا الخلل وتبيّن الصواب في ذلك، قال تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي إن عدد الشهور المعتبرة عند الله اثنا عشر شهراً[١] في حُكم الله التشريعي وفيما أثبته وكتبه في اللوح المحفوظ الذي كَتَبَ الله فيه جميع أحوال الخلق ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي هذا الحكم قضاه الله يوم خلق السموات والأرض، والمراد بهذه الشهور الشهور القمرية لأنها المعروفة عند العرب وعند أغلب الأمم السابقة، وهي أقدم أشهر التوقيت عند العرب وأضبطها، لأن اختلاف أحوال القمر يساعد على رصد الأيام والشهور، وهي أبعد عن حصول الخطأ، والسنة القمرية ثلاثماية وخمسة وخمسون يوماً، أما السنة الشمسية فهي ثلاثماية وخمسة وستون يوماً وربع اليوم، ويكون الفرق بين التوقيت الشمسي والتوقيت القمري عاماً كل ثلاث وثلاثين سنة وثلث العام، وبذلك تختلف أوقات العبادة من سنة إلى أخرى، فيأتي شهر رمضان والحج مرة في الصيف ومرة في الشتاء، وغير ذلك من الفصول، وهكذا يدور رمضان والحج في شهور العام كله، وبذلك يتم عدل الله على جميع المؤمنين بأوقات العبادات في مشارق الأرض ومغاربها.

﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ أي من أشهر السنة أربعة أشهر ثلاث منها حُرُم متواليات وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، وواحد فرد وهو شهر رجب الذي يقع بين شهري جمادى الآخرة وشهر شعبان. وحُرُم: جمع حرام، وإنما سميت هذه الأشهر

---

(١) والأشهر هي: المحرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الآخر، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

حُرُماً لأن العرب في الجاهلية كانت تعظمها وتحرّم القتال فيها حتى لو أن أحدهم لقي قاتل أبيه أو ابنه أو أخيه لم يتعرض له بسوء، ولمّا جاء الإسلام أبقى على هذه الأشهر حُرْمتها ﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ أي ذلك التحريم للقتال في هذه الشهور الأربعة هو الدين المستقيم السليم من الاعوجاج ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ فلا تهتكوا حرمتها بارتكاب ما حرّم فيها من القتال وارتكاب المعاصي والظلم، فإن فعلتم ذلك فقد ظلمتم أنفسكم بفعل ما نهاكم الله عنه.

وإنما كانت الأشهر الحُرُم أربعة ثلاثة منها متواليات وواحد فرد فهي لأجل أداء مناسك الحج والعمرة. فحرّم الله قبل الحج شهراً وهو ذو القعدة ليأمن الحجاج الذاهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج على أنفسهم وأموالهم، وحرّم القتال في شهر ذي الحجة لأنهم يؤدون فيه الحج ويشتغلون بأداء مناسكه، وحرّم القتال بعده شهراً آخر وهو شهر المحرّم ليرجع الحجاج فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرّم القتال في شهر رجب الذي هو بمثابة هدنة لمن يقوم بزيارة بيت الله الحرام لأداء مناسك العمرة ثم يعود إلى وطنه آمناً.

والقتال في الأشهر الحُرُم مُحرّم إلاّ في حالة ردّ العدوان، فحين يعتدي أحد على المسلمين في هذه الأشهر الأربعة، فإن رَدَّ الاعتداء يكون مشروعاً كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَافَّةً كما يُقاتِلُونَكُم كافَّةً﴾ أي قاتلوا المشركين جميعاً، كما يقاتلونكم جميعاً، مجتمعين على قتالهم متعاونين متناصرين ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المتَّقِينَ﴾ أي أن الله مع المتقين بالنصر والمعونة والتأييد.

﴿إنَّما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْر﴾ النسيء: مشتق من نسأه وأنسأه إذا أخره، والنسيء: تأخير حُرمة شهر محرّم فيه القتال إلى شهر آخر. وذلك أن العرب كانت تعتقد بتعظيم الأشهر الحُرُم وكان ذلك مما تمسّكت به من ملة إبراهيم، وكانت معايشهم والحصول على أرزاقهم من الصيد والغارة على بعضهم البعض، فكان يشق عليهم الكف عن القتال ثلاثة أشهر متوالية، وربما وقعت لهم حرب في الأشهر الحُرُم فيكرهون تأخير

حربهم فينسأون أي يؤخرون تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخرون تحريم شهر المحرم إلى شهر صفر فيحرمون القتال في شهر صفر ويستحلونه في شهر المحرّم. وإذا احتاجوا إلى تحريم القتال في شهر صفر أخروه إلى شهر ربيع الأول، فكانوا يصنعون هكذا شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم إلى السنة كلها. ولما جاء الإسلام أرجع المحرم إلى موضعه ـ أي تحريم القتال فيه ـ وقد خطب النبي ﷺ في حجة الوداع فقال «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرُمٌ ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» والمعنى رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه من الحلّ والحُرمة وعاد الحج إلى شهر ذي الحجة بعدما كان المشركون أزالوه عن محله بالنسيء، وقد وافقت حجة الوداع شهر ذي الحجة، وكانت حجة أبي بكر قبلها في شهر ذي القعدة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إنما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْرِ﴾ أي إن ما يفعله المشركون من تأخير حرمة شهر فيه تحريم إلى شهر آخر ليس فيه تحريم هو كفر بشرع دين الله إضافة إلى كفرهم وهو الشرك بالله ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أن الذي أحلّ لهم القتال في الشهر الحرام يجعلهم ضالين بعملهم هذا حيث يأتمرون في التحريم والتحليل بأمرهم ﴿يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمونَهُ عَاماً﴾ أي يحلون القتال في الشهر الحرام عاماً ويجعلون مكانه في التحريم شهراً حلالاً ويحافظون على حرمة الشهر الحرام عاماً آخر ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي يفعلون ذلك لكي يوافقوا عدد ما حرم الله من الأشهر الحُرُم وهي أربعة أشهر. فالمشركون ما أحلوا شهراً من الأشهر الحُرُم إلا حرّموا مكانه شهراً من الأشهر الحلال، فينتهي أمرهم فيما فعلوا إلى أن يحلوا ما حرم الله[1] ﴿زُيِّنَ لَهُم سُوءُ أَعْمَالِهِم﴾ أي جعلت لهم أعمالهم السيئة حسنة، بأن

---

(١) قيل إن أول من أحدث النسيء جناده بن عوف الكناني وكان مطاعاً في الجاهلية، كان يقوم على جمل في موسم الحج فينادي بأعلى صوته: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم يقوم في العام المقبل فيقول: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه.

حسَّنها لهم رؤساؤهم وشياطينهم ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدي الْقَوْمَ الكَافِرينَ﴾ والله لا يرشد إلى الصواب والحق القوم المصرّين على كفرهم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

شرح المفردات:

انفروا في سبيل الله: اخرجوا للجهاد في سبيل الله.

اثّاقلتم: تثاقلتم وتباطأتم وتقاعستم.

فما متاع الحياة الدنيا: المراد من متاعها التمتع بلذائذها.

ويستبدل قوماً غيركم: يستأصلكم وينشىء بدلكم قوماً آخرين.

غزوة تبوك والدعوة إلى الجهاد

ثم ينتقل القرآن إلى ذِكْر غزوة تبوك وما رافقها من عتاب للمؤمنين الذين تخلّفوا عن الجهاد في سبيل الله.

وتبوك هي موضع في منتصف الطريق بين المدينة المنورة ودمشق وتبعد عن المدينة المنورة حوالي ستمائة كيلومتر.

وكانت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، وهي آخر غزوة لرسول الله ﷺ، وكان سبب حدوثها أن رسول الله ﷺ بلغه أن الروم قد جمعوا له جموعاً كثيرة على أطراف الشام وأنهم يريدون أن يتجهوا لمهاجمته في المدينة المنورة،

فاستنفر رسول الله الناس إلى قتال الروم، وقد لبى المؤمنون دعوة رسول الله، أما المنافقون وكثير من الأعراب فقد تخلّفوا عنها، وبعد أن وصل رسول الله والمؤمنون إلى تبوك لم يجدوا جموع الروم حيث انسحبوا لمّا بلغهم اتجاه جيش المسلمين نحوهم، فأقام المسلمون هناك بضع عشرة ليلة، ثم عادوا أدراجهم من حيث أتوا.

فالله سبحانه يعاتب المؤمنين الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُم إِذَا قِيلَ لَكُم انفِروا فِي سَبيلِ اللَّه اثَّاقَلْتُم إِلَى الأَرْضِ﴾ ناداهم الله بصفة الإيمان ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾ لإثارة ما يكنّونه في صدورهم من الإيمان الذي يستدعي طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ. ولفظ ما لكم: استفهام للإنكار والتوبيخ، والمعنى: ما الذي أصابكم أيها المؤمنون ومنعكم من المسارعة إلى الجهاد في سبيل الله عندما دعاكم رسول الله إليه ﴿اثَّاقَلْتُم إِلَى الأَرْضِ﴾ أي تباطأتم وملتم عن الجهاد، وهذه الجملة فيها تمثيل لحال الكارهين للقتال كسلاً وجبناً بحال من يطلب منه النهوض والخروج للغزو فيقابل ذلك الطلب بالالتصاق بالأرض ويأبى النهوض والسير إليه. والتعبير بقوله سبحانه ﴿اثَّاقَلْتُم﴾ يمثل بلفظه وجرسه[١] الجسم المسترخي الثقيل الذي استقر على الأرض والذي كلما حاول الرافعون أن يرفعوه عاد إلى ثقله فسقط بين أيديهم، إنها ثقلة الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على فوات اللذائذ والشهوات، بينما الجهاد في سبيل الله هو التخلي عن ذلك كله للحفاظ على الكرامة الإنسانية، وإعلاء كلمة الحق والحِفاظ على دين الله.

﴿أَرَضِيتُم بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾ أي أيها المتاقلون إلى الأرض المعرضون عن الجهاد: أآثرتم الحياة الدنيا الفانية ولذائذها الزائلة على الحياة الآخرة ونعيمها الدائم ﴿فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ قَلِيلٌ﴾ فما التمتع بالدنيا ولذائذها إلى جانب متاع الآخرة إلا قليل تافه لا ينبغي أن يحرص عليه أحد.

---

(١) الجرس: الصوت الخفي.

وبعد هذا العتاب والتوبيخ تنتقل الآيات إلى التهديد والوعيد:

﴿إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُم عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي إن لم تخرجوا للقتال في سبيل الله حين يُطلَبُ منكم الخروج إليه يعذبكم الله عذاباً شديداً، والعذاب الذي يتهددهم به ليس عذاب الآخرة وحده بل هو كذلك عذاب الدنيا، إنه عذاب الذلة والمهانة التي تصيب القاعدين عن الجهاد في سبيل الله. وصدق الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حيث يقول: «أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة، وجُنّته[١] الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه[٢] ألبسه الله ثوب الذلّ وشمله البلاء..» هذا ما نقلناه عنه من مطلع خطبة له.

ويتابع القرآن: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُم﴾ ويأتي الله بقوم آخرين بدلاً منكم يستجيبون لله ولرسوله ولا يتخلّفون عن الجهاد ﴿ولا تَضُرُّوهُ شيئاً﴾ ثم إنكم لا تضرون الله بهذا التخلّف شيئاً ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والله عظيم القدرة على كل شيء لا يعجزه أمر، ولا يحول دون إنفاذ مشيته حائل أو مانع.

لقد عاتب الله بعض المؤمنين على تثاقلهم عن القتال لأن قوة الإيمان تدعو دائماً إلى أن يكون هناك استعداد مستمر للقتال، هذا الاستعداد يرهب الكفار ويمنع عدوانهم.

والباعث على تثاقل بعض المؤمنين عن تلبية نداء رسول الله ﷺ بالغزو هو أن تبوك تبعد عن المدينة المنورة مسافة كبيرة يستدعي قطعها مشياً وركوباً على الخيل والإبل بضعة أيام، ثم إن وقت هذه الغزوة كان صيفاً شديد الحرارة، وكان العام عام عسرة، فلم يكن مع الجيش ما يكفيه من طعام، ولم يتوفر له العدد الكافي من أدوات الركوب كالخيل والإبل، كما أن بعض ضعاف الإيمان كان يؤثر حياة الدعة والراحة

---

(١) جنه: ما يستتر به ويتحصن كالدرع.
(٢) رغبة عنه: زاهداً فيه.

والاستمتاع بلذائذ الحياة على الجهاد، ويأنف عن تعريض نفسه للمخاطر والاستشهاد.

هذا وقد كان رسول الله ﷺ إذا أراد الخروج إلى غزوة لا يخبر عنها أصحابه وجنده إلا عندما يَصِلونَ إلى ساحة المعركة، إلاّ هذه الغزوة فقد بيّن لهم رسول الله ﷺ وجهتهم لها قبل أن يغادروا المدينة لكي يستعدوا كامل الاستعداد للمشقة التي تنتظرهم.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

شرح المفردات:

ثاني اثنين: أحد اثنين وهما النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق.

الغار: فجوة في الجبل تشبه البيت والمراد به غار جبل ثور ويقع على بعد ساعة سيراً من مكة.

فأنزل الله سكينته عليه: ألقى في قلبه الأمن والطمأنينة فذهب عنه الخوف.

بجنود لم تروها: المراد بهم الملائكة لأنها لا تُرى.

نصرة الله لرسوله محمد ﷺ

ويتابع القرآن فينبه المتخلفين عن الجهاد بما كان من نصرة الله لرسوله محمد ﷺ حين هاجر من مكة، وحماية الله له دون أن يكون معه أحد منهم:

﴿إلاَّ تَنْصُروهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إذْ أَخْرَجَهُ الَّذِين كَفَروا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا في الغَارِ﴾

أي إن تركتم نُصرة رسول الله حين يُطلب منكم الجهاد معه، فقد نصره الله في وقت أشدّ وأقسى مما هو فيه، وَذَلِكَ حين أخرجه الكفار من مكة، وهو قد اضطر للهجرة بعد توالي إيذائهم له، وبعد أن تآمروا على قتله، وقد هاجر رسول الله ﷺ وبصحبته واحد فقط هو أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، فقد حماهما الله تعالى وهما يسيران وحدهما نحو غار ثور للاختفاء به حتى ينقطع الطلب عنهما، ثم حماهما وحرسهما بينما كانا في الغار ثلاث ليال ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي حين قال رسول الله لصاحبه أبي بكر وهما في الغار بعد أن رأى آثار الخوف على وجهه: لا تحزن إن الله معنا بالعون والحماية فلن تصل إلينا أيدي المشركين بسوء. وذلك أن أبا بكر أحس بحركة المشركين من فوق الغار فخاف خوفاً شديداً لا على حياته وإنما على حياة رسول الله، فلما رأى رسول الله ذلك أخذ في تسكين روعه وتخفيف قلقه وجعل يقول له: ﴿لا تَحْزَن إِنَّ اللَّه مَعَنَا﴾ يقول أبو بكر: قلت لرسول الله ـ ونحن في الغار ـ لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال رسول الله: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»[1] فأعماهم الله عن رؤيتهما فجعلوا يترددون حول الغار ولا يرون أحداً.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي فأنزل الله طمأنيته على رسوله ﷺ فَقَالَ لصاحبه ما قال، وأيّده بجنود خفية لم ترها أبصاركم وهي الملائكة، فلم يستطع المشركون بسبب هذه الحماية الربانية أن يصلوا إلى رسول الله بسوء ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِين كَفَروا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي وجعل الله كلمة الذين كفروا وهي كلمة الشرك بالله هي السفلى حيث غُلبت على أمرها، وكلمة الله وهي التوحيد ودين الإسلام هي العليا وذلك بأن نجى الله نبيه من كيد المشركين ونصره عليهم ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والله هو القوي الغالب، الحكيم في تدبيره لخلقه.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

قصة هجرة النبي ﷺ

وقصة هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة مشهورة نشير إليها باختصار. والداعي إليها أن قريشاً لما رأت أن المسلمين قد هاجروا بأعداد كبيرة إلى المدينة المنورة قالوا: هذا خطر له عواقبه السيئة علينا، فَأَجْمَعُوا أمرهم على قتل النبي ﷺ وذلك بأن تشترك جميع بطون قريش وعشائرها في قتله بأن يتدبوا من كل منها شاباً فيجتمع عليه هؤلاء الشبان فيضربونه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا تقوى عشيرته على حرب قريش كلها ويرضون بأخذ ديته.

أنبأ الله رسوله محمداً ﷺ عن طريق الوحي بما استقر عليه رأي المشركين وأمره باللحاق بأصحابه في المدينة المنورة في الوقت الذي يحدده له.

وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً ذا مال فكان حين استأذن رسول الله في الهجرة قال له رسول الله: لا تعجل لعلّ الله يجعل لك صاحباً، فطمع بأن يكون رسول الله هو الصاحب فابتاع راحلتين فاحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك.

تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: كان لا يخطىء رسول الله أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أُذن فيه لرسول الله في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله بالهاجرة[1] في ساعة كان لا يأتي فيها فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله هذه الساعة إلاّ لأمر حدث، قالت: فلما دخل... قال لأبي بكر إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. قال: الصحبة. تقول عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ. ثم قال أبو بكر: يا نبيّ الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذه الرحلة، ثم استأجرا عبد الله بن أرقط يدلهما على الطريق ودفعا إليه راحلتيهما عنده يرعاهما لميعادهما.

---

(١) الهاجرة: نصف النهار.

وفي الوقت الذي عزم فيه المشركون على قتل النبي ﷺ أتى الملك جبريل النبي فقال: لا تُبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. فلما كانت عتمة من الليل اجتمع هؤلاء الشبان على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه للفتك به فلما رأى رسول الله مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي وتسجَّ بِبُردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، فاستجاب عليّ لرغبة رسول الله. وهذا من أرفع مراتب الفداء والتضحية من عليّ لرسول الله، كما أمر النبي ﷺ علياً رضي الله عنه أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس وجعل هؤلاء الشبان من قريش ينظرون من فرجة إلى مكان نوم النبي فيرون في الفراش رجلاً فتطمئن نفوسهم إلى أنه لم يفرّ، فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج محمد ﷺ في غفلة منهم إلى دار أبي بكر وقد أعمى الله أبصارهم عنه، وخرج الرجلان من خوخة[١] لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمدا إلى غار ثور فدخلاه.

وفي الصباح الباكر دخل هؤلاء الشبان دار النبي وقام عليّ من فراشه فلما دنوا منه عرفوه فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، أَوَرقيباً كنتُ عليه أمرتموه بالخروج فخرج؟ وضربوه وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه.

ولما فقدت قريش رسول الله جعلت مائة ناقة لمن يرده عليهم كما أنها جعلت تطلبه بأحد متبعي الأثر حتى وقفوا على الغار فقال: هنا انقطع الأثر، فإذا العنكبوت بإلهام من الله قد نسجت خيوطها على فم الغار من ساعة وصولهما فأدركوا أنه لم يدخل أحد إلى الغار وإلاّ لتمزقت خيوطها ثم قفلوا راجعين إلى ديارهم.

وبعد أن أقاما ثلاثة أيام في الغار وسكن الطلب عنهما ارتحلا مع دليلهما إلى المدينة المنوّرة كما أردف[٢] أبو بكر عامر بن فهيره مولاه خلفه يخدمهما بالطريق.

---

(١) الخوخة: نافذة صغيرة.

(٢) أردفه: أركبه خلفه.

فضيلة أبي بكر الصدّيق

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ لم يكن قد كاشف أحداً بالهجرة غير صاحبه أبي بكر الذي كان أول من آمن به ممن دعاهم إلى الإسلام بعد أهل بيته، وكان أبو بكر صاحبه الملازم له ومستشاره الدائم.

وقد استنبط بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَين إذْ هُمَا في الغَار﴾ ما يدل على أن الخليفة بعد النبي هو أبو بكر الصديق لأن الخليفة بعد النبي ﷺ لا يكون أبداً إلا ثانياً. ويقول الإمام أبو العباس أحمد بن عمر: إنما استحق أبو بكر أن يقال له: (ثاني اثنين) لقيامه بعد النبي بالأمر ـ أي بواجب الشرع ـ كقيام النبي ﷺ به أولاً، وذلك أن النبي ﷺ لما توفي ارتدّ كثير من العرب عن الإسلام فقام أبو بكر يدعو الناس إلى الإسلام ويقاتلهم على الدخول في الدين كما فعل النبي ﷺ فاستحق من هذه الجهة أن يُقال له في حقه ثاني اثنين.

وقد جاء في السُّنَّة الصحيحة ما يدل على أنه الخليفة بعد النبي ﷺ، وذلك أن النبي لما مرض أمر أبا بكر أن يؤم الصلاة بالمسلمين مكانه، وإمامة الصلاة هي من أرفع المراتب قدراً، كما أن جمهور الصحابة بايعوه على خلافة النبي ﷺ بعد وفاته.

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿إذْ يَقولُ لِصَاحبه لا تَحْزَن إنَّ الله مَعَنَا﴾ هذه شهادة من الله بأن أبا بكر هو صاحب رسول الله ﷺ، والله لا يرضى بأن يكون لرسوله صاحباً إلا إذا كان في ذروة الإيمان والاستقامة، كما أن رسول الله ﷺ حاشاه أن يتخذ صاحباً إلا إذا كان على منزلة عالية من الخلق الكريم والصفات النبيلة والإيمان الصادق وهذا ما اشتهر عنه.

وتأمل قول النبي ﷺ لأبي بكر ﴿إنَّ اللَّه مَعَنَا﴾ بينما موسى قال لبني إسرائيل ﴿إنّ معي ربي سَيَهْدين﴾ فموسى خص نفسه بمعيته مع الله ولم تتعد المعية لأتباعه بينما النبي ﷺ تعدت منه المعية إلى أبي بكر ولم يقل «إن الله معي» بل قال: ﴿إنَّ اللَّه مَعَنَا﴾ لأنه أمدّ أبا بكر بنوره فشمله بالمعية.

فالطعن بأبي بكر والتعرض له بالسباب كما يفعل بعض الجهلة هو إيذاء لله ولرسوله.

أما الاشتغال بمن أحق بالخلافة بعد رسول الله ﷺ وإثارة الخلافات في ذلك فهو من أشد الثغرات التي استغلها أعداء الإسلام للتفرقة بين المسلمين، وما لنا بذلك نحن المتأخرين والله سبحانه يرشدنا إلى الطريق السليم الذي يعصمنا من الخطأ حيث قال الله سبحانه: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]. هذه الآية جاءت في صدد مناقشة اليهود وهي تنطبق على كل ما يُثار من مهاترات حول الخلافة.

كما أن القرآن حذّر المسلمين من التفرقة والاختلاف فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فصحابة رسول الله ﷺ وعلى رأسهم أبو بكر الصدّيق خليفة رسول الله ومن جاء بعده من الخلفاء عمر بن الخطاب وعثمان وعليّ[١] رضي الله عنهم هم من أجلّ الصحابة الذين رفعوا راية الإسلام وضحّوا بأموالهم وأرواحهم في سبيل الله، وهم نبراس لنا في دنيانا، وموقفنا منهم هو الدُّعاء لهم بالخير والمغفرة وعدم بغضهم والطعن بهم، وهذا ما رسمه الله لنا بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

---

(١) ليس هنالك من ينكر على أهل السُّنّة محبة عليّ وأبنائه وأخص منهم الحسن والحسين رضي الله عنهما فهم جميعاً في ضمير كل مسلم. وما من مسلم لم يحزن على تلك الفتنة العمياء التي أودت بحياة أحب الناس إلى رسول الله والمؤمنين. وما كان استشهادهم إلا في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة الحق والقضاء على الظلم والطغيان.

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

شرح المفردات:

انـفِروا خِفافاً وثقالاً: اخرجوا للجهاد نشاطاً وغير نشاط، شباناً وشيوخاً وفقراء وأغنياء.

عَـرَضاً قَريباً: غنيمة قريبة التناول.

سفراً قاصداً: سفراً متوسطاً بين القُرب والبُعد.

الشُّـقَّـةُ: السفر البعيد الذي يقطعه الإنسان بمشقة.

التعبئة العامة للجهاد في سبيل الله

ويتابع القرآن فيدعو المؤمنين جميعاً إلى الجهاد في سبيل الله عندما يداهمهم العدو بقصد الاستيلاء على ديارهم:

﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ أي اخرجوا للجهاد خفّت عليكم الحركة أو ثَقُلت: شباناً وكهولاً، أغنياء وفقراء، ركباناً ومشاة.

هذه الجملة من الآية تعلن النفير العام للقتال ويكون ذلك إذا داهم العدو بلداً من بلاد المسلمين، أو حرّك جيوشه لاحتلالها أو أراد بأهلها السوء والاعتداء: من أَسْرٍ أو قتل، أو ترويع، فعندئذ يكون الجهاد فرض عَيْنٍ على كل مسلم، كما يتعين الجهاد مثل ذلك على من كان قريباً من هذا البلد إذا عجز أهل هذا البلد عن دفع هجوم الأعداء عنه.

يقول ابن تيمية: إذا دخل العدو بلاد المسلمين فلا ريب أنه يجب دفعه الأقرب فالأقرب إذ بلاد المسلمين كلها بمنزلة البلدة الواحدة.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُم وَأَنفُسِكُم في سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والجهاد بَذْلُ ما في الوسع والطاقة لقتال العدو لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله، وقدّم القرآن المال لأن له الأهمية الكبرى في تزويد الجيش بالسلاح، ناهيك أن المال هو أَحَبُّ شيء للإنسان فَبَذْلُهُ في سبيل الله عنوان التضحية وصدق الإيمان، فمن قدر على الجهاد بنفسه وماله وجب عليه بذل الاثنين معاً، ومن قَدِرَ على الجهاد بالنفس فقط، أو بالمال فقط وجب عليه ما قدر عليه منهما ﴿ذَلِكُم خَيْرٌ لكم إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك الذي أمركم به الله هو خير لكم وأنفع إن كنتم تعلمون فضل الجهاد وثوابه، فاعملوا به ففيه عزّ الإسلام وسعادتكم، فإنه لا حياة عزيزة للأمم، ولا سيادة لها إلا بالقوة الحربية. أما القعود عن القتال في وقت الحاجة إليه فإنه يؤدي إلى استباحة العدو أرض المسلمين وسلبهم خيراتهم وإذلالهم.

ويتابع القرآن الكلام عن الذين تخلّفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً﴾ والعرض: ما يعرض للإنسان من منافع الدنيا ومتاعها أي لو كان ما دُعوا إليه نفعاً دنيوياً قريب المنال سهل المأخذ ﴿وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ﴾ والسفر القاصد: هو السفر المتوسط بين القُرب والبُعد، من القصد بمعنى التوسط والاعتدال في الشيء، أي لو كان هناك سفر بلا مشقة ولا تعب لاتبعوك طمعاً في الحصول على المغانم السهلة القريبة ﴿وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيهِمُ الشُّقَّةُ﴾ والشقة: هي المسافة التي لا تقطع إلا بتكبد المشقة والتعب، أي أن المشقة طويلة، وتبوك كما ذكرنا تبعد مسافة طويلة عن المدينة المنورة والوقت صَيفٌ شديد الحرارة، فلهذا تخلّفوا عن السير معك يا محمد للجهاد وآثروا الراحة والدعة.

﴿وسَيَحْلِفُون بِاللَّهِ لو اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُم﴾ وسيحلف بالله أولئك المتخلفون عن غزوة تبوك لكم ـ أيها المؤمنون ـ بعد رجوعكم منها قائلين: لو كنا

نستطيع الخروج معكم إلى تبوك لخرجنا إليها، يريدون بذلك أنهم لم تكن لهم القدرة على الجهاد لعدم وجود السلاح معهم أو لضعف الصحة. تأمل قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ واستخدام حرف السين يعني أن حدوث الأمر سيكون في المستقبل، أي أن المتخلفين عن الجهاد لم يكونوا قد قالوها بعد ولكنهم سيقولونها عند رجوعكم أيها المؤمنون من تبوك، وهذا ما حصل كما أخبر به القرآن، وهو من الأنباء الغيبية الكثيرة التي أخبر بها القرآن قبل حصولها ثم حصلت بعد ذلك.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُم وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُم لَكَاذِبُونَ﴾ أي وما داموا قد حلفوا بالله كذباً فقد أدخلوا أنفسهم في الهلاك، والله يعلم إنهم كاذبون فيما حلفوا به كذباً، وفيما انتحلوه من أعذار، وفي هذا النص القرآني دلالة على أن تعمد الحلف الكاذب يفضي إلى الهلاك، فليعتبر كل من يجرؤ على الحلف الكاذب في سبيل منفعة مادية عابرة.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُم﴾ أي عفا الله عنك ـ أيها النبي ـ فلم يؤاخذك في الإذن لهؤلاء المنافقين بالتخلف عن الجهاد معك. تأمل إلى هذا اللطف بالعتاب حيث بدأه الله بالعفو قبل أن يذكر الذنب، وفي ذكر العفو ما يدل على أن هذا الإذن من النبي ﷺ لهؤلاء المنافقين كان في موقع خلاف الأفضل وليس من باب ارتكاب الإثم ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِين صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ﴾ أي لماذا سارعت في الإذن لهم، وهلاّ تأنيت حتى يتبين لك صدق من هو صادق في عذره ومن هو كاذب منهم؟

فالنبي أَذِنَ للمنافقين بالتخلّف عن الجهاد لأنهم لو خرجوا معه ما زادوا جنده إلا ضعفاً وخذلاناً، وإذا كان أمرهم كذلك فلماذا عاتب الله رسوله بذلك؟

الجواب على ذلك هو أنهم كانوا سيتخلفون عن الغزو في كلتا الحالتين وقد عزموا على ذلك إذ قال بعضهم لبعض: استأذنوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، لهذا كان الأوْلى أن لا يأذن النبي ﷺ لهم بالتخلف عن الغزو ليكون تخلفهم بغير إذن منه، فعندئذ يظهر نفاقهم علانية بين المسلمين من أول الأمر، فلا يخالطونهم ويأخذون الحذر من مؤامراتهم.

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ارتابت: تشككت وتحيّرت.

يتردّدون: يتحيرون.

لأعدّوا له عدّة: لاتخذوا له أهبة من السلاح والزاد والراحلة.

انبعاثهم: خروجهم معك للغزو.

فثبطهم: فحبسهم وعوّقهم وصرفهم عن الرغبة فيه.

خبالاً: فساداً وشرًا.

ولأوضعوا خلالكم: ولأسرعوا بينكم بالنمائم لتفريق كلمتكم.

يبغونكم الفتنة: يطلبون لكم الفتنة والشر بإيقاع الخلاف بينكم.

وفيكم سماعون لهم: أي وفيكم أناس يسمعون حديثكم فينقلوه إليهم.

ابتغوا الفتنة: طلبوا تفريق المسلمين.

وقلبوا لك الأمور: دبروا لك المكايد والحيل وأجالوا الرأي في إبطال دينك.

مسلك المؤمنين والمنافقين

ثم يبيّن القرآن نفسية المؤمنين تجاه القيام بواجب الجهاد في سبيل الله:

﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِين يُؤْمِنُون بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أن يُجَاهِدوا بِأَمْوَالِهِم وأَنْفُسِهِم﴾ أي ليس من عادة المؤمنين الذين صدّقوا بوجود الله ووحدانيته، وصدّقوا بوجود اليوم الآخر أن يطلبوا منك يا محمد الإذن بالجهاد بالنفس والمال في سبيل الله، بل يبادرون إلى ذلك فوراً إذا سمعوا النداء العام منك إلى الجهاد في سبيل الله، فضلاً عن أنهم لا يستأذنونك في التخلف عنه ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ بِالمتَّقِينَ﴾ والله يعلم صدق نوايا المؤمنين وما اشتملت عليه قلوبهم من الإخلاص لله والاستجابة لداعي الجهاد.

وفي تخصيص المؤمنين بالإيمان بالله واليوم الآخر إيذان بأن الباعث على الجهاد هو الإيمان بهما، فمن آمن بالله حق الإيمان قاتل في سبيل دينه، ومن آمن باليوم الآخر هان عليه أن يُقتل في سبيل الله لما يعلم من ثواب الله على ذلك، وما أعد الله له من النعيم في الآخرة، ومن لم يؤمن بذلك كان في منأى عن ذلك.

هذا هو شأن المؤمنين أما المنافقون فهم على خلاف ذلك:

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الّذين لا يُؤْمِنونَ بِاللَّه وَاليَومِ الآخِرِ﴾ أي إنما يطلب منك الإذن في التخلف عن الجهاد الذين لا يصدّقون في قرارة أنفسهم بوحدانية الله ولا باليوم الآخر ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُم فَهُمْ في رَيْبِهِم يَتَرَدَّدونَ﴾ فهؤلاء قلوبهم في شك مما جئت به يا محمد من الوحي من عند الله، فهم في شكهم يترددون بين الإقدام على الجهاد وبين الإحجام عنه، ويتحيرون في قبول الحق الذي دعا إليه القرآن أو في رده.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الخُروجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي لو أراد هؤلاء المنافقون أن يخرجوا معكم أيها المؤمنون في غزوة تبوك لأعدوا لذلك ما ينبغي من الزاد والسلاح والجمال والخيل التي لا يستغني عنها المقاتلون في سفرهم الطويل، وكانت في مقدورهم وتحت أيديهم ولكنهم لم يريدوا ذلك، وهذا دليل على عزمهم على التخلف عن

الجهاد ﴿وَلكن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي ولكن كره الله نهوضهم للخروج معك إلى الغزو فمنعهم وحبسهم عن ذلك بما استقر في نفوسهم من الجُبْن والكسل وكراهة الغزو في سبيل الله ﴿وَقِيل[1] اقْعُدوا مَعَ القَاعِدينَ﴾ هنا ذم ولوم للمنافقين لأن القاعدين عن الغزو هم الضعفاء من صبيان ونساء وعميان وعجزة ومرضى.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم ما زَادُوكُم إلاَّ خَبَالاً﴾ أي لو خرج هؤلاء المنافقون معكم إلى الجهاد في سبيل الله ما زادوكم إلاّ فساداً وشراً وضعفاً في القتال، وخللاً في النظام كما حصل في غزوة حُنين، حيث فرّ المنافقون من ساحة القتال في أول المعركة فاضطرب لذلك الجيش كله ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ الإيضاع: سرعة السير، والمراد هنا الإسراع في الدخول بين المؤمنين بالنميمة والإفساد فيما بينهم بما يختلقونه من الأكاذيب ﴿يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة بأن يفرّقوا كلمتكم ويحدثوا الاختلاف فيما بينكم ﴿وَفِيكُم سَمَّاعُونَ لَهُم﴾ أي وفيكم ضعاف الإيمان يسمعون قولهم ويطيعونهم، أو بمعنى وفيكم جواسيس لهم يسمعون حديثكم لأجل نقله إليهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بالظَّالمينَ﴾ والله عليم بهؤلاء الظالمين محيط بضمائرهم وظواهرهم وما يحدث منهم.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ لقد رغب المنافقون وقصدوا الشر للمسلمين بتفريق كلمتهم، وتشتيت شملهم من قبل غزوة تبوك، وكان ذلك يوم معركة أُحُد حيث انسحب عبد الله بن سلول بمن معه من أتباعه وأنصاره من جيش المسلمين، كما أنهم يحاولون أن يفتنوكم عن دينكم حتى تنزلوا إلى مستواهم ويردّوكم إلى الكفر

---

(١) قيل: فعل ماضٍ مبنى للمجهول بما لم يُسَمَّ فاعله لإمكان أن يتعدد القائلون، فإذا كان الشيء من الله فكأنه قال لهم: اقعدوا بإذن الله لما يعلم من عدم أهليتكم للجهاد، وإذا كان القول من رسول الله فهو قد أذن لهم بالقعود والتخلف عن الجهاد لما استشف من تراخيهم وعدم رغبتهم في الغزو، وقد يكون القول من الشياطين الذين حسّنوا لهم بوسوستهم القعود وعدم الذهاب إلى الغزو، وقد يكون القول من بعضهم البعض، وهكذا أعطتنا كلمة واحدة وهي كلمة (قيل) معاني متعددة. نقلاً عن تفسير الشعراوي بتصرف.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾ أي ودبروا لك يا محمد الحيل والمكايد وأجالوا الآراء في إبطال أمرك ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ إلى غاية مجيء الحق وهو النصر والظفر لك ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وعلا دين الله بالنصر على المشركين ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ وهم كانوا يكرهون انتصار الإسلام لأنهم يرغبون في هزيمته وخذلانه، ولكن الله خيّب آمالهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

شرح المفردات:

ولا تفتنّي: ولا توقعني في المعصية بتخلّفي من غير إذن.

حسنة: نعمة والمراد بها هنا النصر والغنيمة.

مصيبة: شدة كهزيمة غزوة أُحُد.

كتب الله لنا: أثبت في علمه، أو في اللوح المحفوظ.

مولانا: متولّي أمورنا.

تربّصون: تنتظرون.

إحدى الحسنيين: النصر والغنيمة، أو الشهادة والمغفرة.

طوعاً أو كرهاً: أي طائعين أو كارهين.

فاسقين: متمردين خارجين على حدود الله.

نوايا المنافقين السيئة

ويتابع القرآن الكلام على المنافقين وما كانوا يتعللون به من أعذار كاذبة للتخلف عن الجهاد:

﴿وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ ائْذَن لي ولا تَفْتِنّي﴾ أي ومن المنافقين من يقول للنبي ﷺ ائذن لي في التخلف عن الجهاد ولا توقعني في المعصية والإثم إذا تخلفت بغير إذنك، متظاهراً بالحرص على رضاء النبي ﷺ ولكنه في الحقيقة سيء النية خبيث الطوية **﴿ألا في الفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾** ألا فليعلم هؤلاء أنهم في المعصية والإثم سقطوا، وذلك بعقدهم العزم على التخلّف عن الجهاد بلا عذر **﴿وإنَّ جَهنّم لَمُحِيطَةٌ بالكَافرينَ﴾** هنا وعيد وتهديد للمنافقين فإن مصيرهم نار جهنم ليعذّبوا بها في الآخرة، وإحاطة جهنم بهم مراد بها عدم إفلاتهم من عذابها.

ثم توضح الآية التالية بعض نوايا المنافقين:

﴿إن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُم﴾ أي إن تصبك ـ أيها النبي ـ في بعض الغزوات حسنة من انتصار وغنيمة كما حصل يوم معركة بدر، يسؤهم ذلك لفرط حسدهم وكراهيتهم لك **﴿وإن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾** أي وإن تصبك مصيبة تؤلمك كما أصابك يوم معركة أُحُد من هزيمة وكثرة ضحايا في جندك يقولوا على سبيل الشماتة: قد أخذنا الحيطة والحذر من قبل هذه المصيبة فلم نخرج

للقتال مع المسلمين وإلاّ لأصابنا ما أصابهم من ضحايا وخسائر ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ وينصرفوا عن المجلس الذي كانوا يتحدثون فيه بذلك وهم فرحون بما أصاب المسلمين من هزيمة.

هذه طبيعة المنافقين لأنهم لا إيمان لهم فهم يؤثرون السلامة والاستسلام للعدو على المخاطرة في دفعه، وما دروا ما يعقب ذلك من استيلاء العدو على ديارهم وتنكيله بهم وإذلاله لهم، وأن سلامة الأوطان لا تقوم إلا ببذل ضريبة الدم في سبيل العزة والكرامة.

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين الشامتين: لن يحدث لنا من مصيبة إلاّ ما قدّره الله علينا وقضاه، وما كتبه سبحانه في اللوح المحفوظ. هذه الجملة من الآية هي أكبر عزاء للمؤمنين عندما تداهمهم المصائب من جروح وضحايا وكوارث في الحروب، ومن أيقن أنه لن يصيبه في الحياة إلا ما كتب الله له اندفع إلى الجهاد ومقارعة الأعداء بروح معنوية عالية دون أن يشعر بخوف من الأعداء أو وجل.

ثم تأتي تتمة الآية: ﴿هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي أن الله هو مالكنا وناصرنا يتصرف بنا كيف يشاء فيجب الرضا بقضائه، فليفوّض المؤمنون أمرهم إلى الله وحده وليعتمدوا عليه.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين: ما تنتظرون أن يحل بنا إلاّ إحدى العاقبتين: كل واحدة منهما هي الحسنى من العواقب. إما النصر على الأعداء وفي ذلك المغنم والعزة والسلامة، وإما أن نُقتل بأيدي الأعداء وفي ذلك الشهادة والفوز بالجنة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بكم أن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أو بِأَيْدِينَا﴾ ونحن نتظر أن يصيكم الله بعذاب من عنده كما أصاب قبلكم الأمم الظالمة، كقوم عاد وقوم ثمود وغيرهما، أو تُصابون بعذاب القتل

والذلة على أيدينا عندما يأمرنا الله بذلك ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُتَرَبِّصُونَ﴾ التربص بمعنى الانتظار في تمهل، أي فانتظروا أمر الله فيكم ونحن معكم منتظرون أمره، وفعل الأمر هنا (فتربصوا) يحمل معنى التهديد والوعيد لهم.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أو كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُم﴾ أي قل ـ أيها النبي ـ لهؤلاء الذين يريدون أن يستروا نفاقهم بإنفاق المال في الجهاد وغيره، أنفِقوا ما شئتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل الله عملكم الذي أحبطه نفاقكم ﴿إنَّكُم كُنْتُم قوْماً فاسقين﴾ إنكم كنتم دائماً متمردين على دين الله.

هذه الآية وإن كانت خاصة في إنفاق المال من جهة المنافقين، فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وطلباً للجاه والشهرة.

ثم تذكر الآية التالية الأسباب لعدم تقبُّل الله لنفقاتهم:

﴿وَمَا مَنَعَهُم أن تُقْبَلَ مِنهم نَفَقَاتُهُم إلاّ أنّهم كفروا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ أي وما منع قبول نفقاتهم شيء من الأشياء إلاّ كفرهم باللَّهِ وصفاته على الوجه الحق، وكفرهم برسالة محمد ﷺ وما جاء به من الهدى من عند ربه ﴿وَلاَ يأْتُونَ الصَّلاةَ إلاّ وَهُم كُسَالَى﴾ أي أنهم لا يؤدون الصلاة في نشاط وإقبال منهم عليها برغبة وشوق، وهذا بسبب ضعف إيمانهم، بل يؤدونها وهم كسالى وخوفاً من مذمة الناس. فليحذر المؤمنون أن يُقْبِلوا على الصلاة بتكاسل أو رياء فإن ذلك من صفات المنافقين ﴿ولا يُنْفِقُون إلاّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي ولا ينفقون نفقة في سبيل الله إلا وهم كارهون لهذا الإنفاق في سرائرهم، وما حملهم على الإنفاق إلا الرياء والخوف من انكشاف أمرهم.

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

شرح المفردات:

تزهق: تهلك.

يفرقون: يخافون.

يجدون ملجأ: يجدون حصناً ومعقلاً يلجأون إليه.

مغارات: كهوفاً في الجبال.

مُدَّخَلاً: سرداباً في الأرض أو نفقاً.

لَوَلَّوْا: لانصرفوا.

وهم يجمحون: يسرعون أشد الإسراع للدخول فيه.

يلمزك: يعيبك ويطعن عليك.

يسخطون: يغضبون.

حسبنا: كافينا الله من فضله وقسمته.

سلوك المنافقين

ويتابع القرآن فيبين ما يعانيه المنافقون من قلق وعذاب بالنسبة لأموالهم وأولادهم:

﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُم ولا أَولادُهُم﴾ هذا الخطاب وإن كان مختصاً بالنبي ﷺ

إلا أن المراد به جميع المؤمنين. والإعجاب بالشيء أن يسر به سرور راضٍ به متعجب من حسنه، والمعنى: فلا تستحسن أموال المنافقين وأولادهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بها فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن الله تعالى ما أعطاهم الأموال والأولاد إلا للعذاب. فالمال ابتلاهم به الله بالآفات والمصائب وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير وهم كارهون ذلك، وأما عذابهم من جهة أولادهم فلأنهم يرونهم قد نشأوا في الإسلام واطمأنت به قلوبهم وأنهم يجاهدون في سبيل الله، وكل هذه حسرات في قلوبهم.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُم وَهُم كَافِرونَ﴾ أي يريد الله أن تخرج أرواحهم من أجسادهم بصعوبة عند موتهم وهم كافرون بالله ورسوله محمد ﷺ فيعذبهم الله بسبب كفرهم في الآخرة.

والسبب أن الذي انغمس في شهوات الدنيا والمعاصي ولم يعمل شيئاً للآخرة بعد الممات فعندما يأتيه الموت ويوقن أن ما ينتظره هو العذاب عندئذ يعظم حزنه وتشتد حسرته ويكره أن يترك نعيم الدنيا إلى عذاب الآخرة فتخرج روحه من جسده بصعوبة وألم.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهم لَمِنكُم وَمَا هُمْ مِنكُم﴾ ويحلف المنافقون بالله أنهم على دينكم ـ أيها المؤمنون ـ ولكنهم في الحقيقة ليسوا على دينكم ﴿وَلَكِنَّهم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ والفرق: هو الخوف، فهم في خوف دائم من أن يفتضح أمرهم فيعزلهم المسلمون عن مجتمعهم ويحاربونهم كمحاربتهم للكفار، فالخوف على مصيرهم هو الذي جعلهم يحلفون كذباً لستر نفاقهم.

﴿لَوْ يَجِدُون مَلْجأً أو مَغَارَاتٍ أو مُدَّخَلاً﴾ أي لو يجد أولئك المنافقون ملجأ يلجأون إليه كحصن أو قلعة أو نحوهما أو كهفاً في الجبال يخفون فيه أنفسهم، أو نفقاً في الأرض يدخلونه ليستتروا عن أعين الناس ﴿لَوَلَّوْا إليه وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ لانصرفوا إليه وهم يُسرعون إليه إسراع الفرس الجموح الذي لا يثنيه اللجام عن الوقوف في مكانه،

والجموح: هو أن تفقد السيطرة على الفرس الذي تركبه فلا تقدر على كبح جماحه أو التحكم فيه.

ومن بديع نظم القرآن أنه ذكر أولاً الأمر الأعمّ وهو الملجأ من أي نوع كان، ثم ذكر الأماكن العالية التي يختفي فيها الخائفون وهي الكهوف في الجبال، ثم ذكر الأماكن المنخفضة التي يُختفى فيها وهي الأنفاق في الأرض فبيّن بذلك مبلغ حرصهم على الهروب من أي معركة يخوضها المسلمون مع أعدائهم، والسبب أنهم لا يؤمنون، فكيف يقاتلون في قضية لا يؤمنون بها؟

﴿وَمِنْهُم مَنْ يَلْمِزُكَ في الصَّدَقَاتِ﴾ واللمز: هو الطعن والعيب في الغير، والمعنى: ومن المنافقين من يعيبك ـ أيها النبي ـ ويطعن فيك عند قسمتك الصدقات وتوزيعها على مستحقيها ومن أقوالهم: والله لا يعطيها محمد إلا من أحب، ولا يؤثر بها إلاّ هواه.

﴿فَإِن أُعْطُوا مِنْها رَضُوا﴾ فإن أعطيتهم يا محمد من الصدقات ما يريدون وما يشتهون رضوا بها ﴿وَإِن لم يُعْطَوْا مِنْها إذا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ وإن لم تعطهم منها ما يحبون يغضبون من قسمتك الصدقات.

﴿وَلَوْ أنَّهم رَضُوا مَا آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسولُهُ﴾ أي ولو أن هؤلاء المنافقين رضوا بما أعطاهم الله ورسوله من عطاء لكان خيراً لهم. والتصريح بأن العطاء من الله إشعار بأن النبي ﷺ وزع الصدقات حسبما أوحى الله إليه فلا مجال إذن للطعن والعيب في النبي ﷺ ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ وقالوا: كافينا الله سيغنينا من فضله برزقه فيعطينا رسول الله أكثر مما أعطانا اليوم ﴿إنَّا إلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ إننا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون. وفي هذا إيحاء للمؤمنين بأن لا يبتغوا بإيمانهم الغنى والمناصب الدنيوية، وأن عليهم أن يبتغوا من الإيمان الفوز برضاء الله وسعادة الآخرة.

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

مصارف الزكاة

وبعد أن طعن المنافقون في عطاء رسول الله ﷺ للصدقات بينت الآية الكريمة مصارف الزكاة.

استهلت هذه الآية بلفظ (إنما) الذي يفيد الحصر، أي أن الصدقات مقصورة على الذين نصّت عليهم هذه الآية دون سواهم، والمراد بالصدقات هنا: الزكاة المفروضة، ولنبين بالتتابع ما نصّت عليه الآية:

﴿للفقراء﴾: جمع فقير وهو من له أدنى شيء من المال وليس له كسب يفي بحاجته وهو مع حاجته يتعفف عن مسألة الناس.

﴿والمساكين﴾: جمع مسكين وهو من لا شيء له من المال فيحتاج إلى المسألة والتذلل للناس للحصول على القوت.

وقيل: إن الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما في المعنى وإن افترقا في الاسم وإنهما صنفان يجمعهما الإقلال والفاقة.

ويقول الشافعي: من كان قوياً على الكسب مع قوة البدن وحسن التصرف حتى يغنيه ذلك عن الناس فالصدقة عليه حرام، واحتج بحديث النبي ﷺ «لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لذي مِرّة[١] سويّ[٢]»[٣].

﴿والعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهم القائمون على جمع الزكاة وهم من كلّفهم الإمام

---

(١) مِرّة: المِرّة هي القوة والشدة.

(٢) سويّ: السوي هو الصحيح الجسم.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي.

بجمعها وتحصيلها، ويدخل فيهم الحاسب والكاتب وأمين الصندوق ومن يوزع الصدقات وهؤلاء يعطون من بيت المال قدر أتعابهم، ولا يُشترط فيهم الفقر.

﴿والمؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم﴾ المراد بهم الأشخاص الذي يرى الإمام دفع شيء من أموال الزكاة إليهم تأليفاً لقلوبهم نحو الإسلام وهم أصناف:

صنف منهم تتألف قلوبهم لمعونة المسلمين.

وصنف تتألف قلوبهم لترغيبهم في الإسلام.

وصنف تتألف قلوبهم لكفّهم عن أذى المسلمين. فيجوز أن يُعطى كل صنف من هذه الأصناف من سهم المؤلفة قلوبهم، وعطاء هؤلاء من قبيل الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه.

﴿وفي الرِّقَابِ﴾ أي في تحرير العبيد من الرق، فقد كان من عادة العرب أن يتفق السيد مع عبده المملوك على مال معين إذا أداه له يعتقه من الرق فهذا يُعان من مال الزكاة، أو يُدفع من مال الزكاة لشراء الأرقّاء وعتقهم، لهذا أمر الله الحكومة الإسلامية أن تساهم في تحرير الأرقاء بأموال الزكاة، وقد ذهب الرق تقريباً من العالم، ومما يسجل في هذا المقام أن الدولة الإسلامية هي أول دولة ساعدت على تحرير الأرقاء في العالم.

﴿والغَارِمِينَ﴾ جمع غارم وهو من استدان في غير معصية ثم عجز عن الوفاء بدَيْنِهِ ولم يمهله صاحب الدَّين ولم يتنازل عن دَيْنِه، ففي هذه الحالة يقوم بيت مال المسلمين بالمساهمة في سداد هذا الدَّيْن من سهم الزكاة.

والجدير بالذكر أن الإسلام يجعل الديون العادلة تُؤدى من بيت مال الزكاة، وبهذا سبق الشرائع الإنسانية إلى هذا الفضل وخصوصاً الشرائع التي عاصرت نشأته، وحسبك أن تعلم أن القانون الروماني في بعض أدواره كان يسوّغ للدائن أن يسترقّ المَدين[1].

(١) جاء في القانون الروماني المسمى قانون الألواح الاثني عشر: المدين إذا عجز عن دفع ديونه يحكم عليه بالرق إن كان حراً ويحكم عليه بالحبس أو القتل إذا كان رقيقاً.

﴿وفي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ذهب جمهور الفقهاء إلى أن هذا الصنف هم المجاهدون المتطوعون للغزو في سبيل إعلاء كلمة الله الذين لا يتقاضون راتباً من الحكومة فيعطى كلٌّ من الغازي والمجاهد ما يحتاج إليه من سلاح وطعام، وعلى هذا الأساس يصحّ أن ينفق من الزكاة على الجيش وكل ما يتصل به من إعداد المعدات والأسلحة بكل أنواعها ما دام يجاهد في سبيل الله بعد استيفاء مصارف الزكاة السابقة.

والإمام أحمد أضاف إلى الغزاة من يريد الحج وليس له مال يكفيه فيعطى من مال الزكاة ما يساعده على أداء فريضة الحج.

ويرى بعض العلماء المعاصرين أن الجهاد لا ينحصر في الجانب المادي العسكري وحده وأنه يتسع لأنواع أخرى من الجهاد، فكل جهاد أُريد به أن تكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله أيًا كان نوع هذا الجهاد وسلاحه.

«ومن أهم ما ينفق في سبيل الله في زماننا هذا إعداد الدعاة إلى الإسلام وإرسالهم إلى بلاد الكفار من قبل جمعيات منظمة تمدهم بالمال الكافي... ويدخل فيه النفقة على المدارس للعلوم الشرعية وغيرها مما تقوم به المصلحة العامة. وفي هذه الحالة يعطى منها معلمو هذه المدارس ما داموا يؤدون وظائفهم المشروعة التي ينقطعون بها عن كسب آخر»[١].

«ويشمل في سبيل الله إنشاء صحيفة إسلامية تقف في وجه الصحف الهدامة وتصدع بكلمة الحق وترد عن الإسلام أكاذيب المفترين وشبهات المضللين...

ونشر كتاب إسلامي يحسن عرض الإسلام ويكشف عن مكنون جواهره، ويبرز جمال تعاليمه، وتعميم مثل هذا الكتاب على نطاق واسع»[٢].

﴿وَابنِ السَّبِيلِ﴾ السبيل هو الطريق، وقيل للسالك فيه (ابن السبيل) لمروره عليه

---

(١) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا.
(٢) فقه الزكاة للدكتور يوسف القرضاوي.

والمراد به المسافر الذي انقطع عن بلده وليس له مال يُرجعه إلى بلده كأن فُقِدَ منه أو سلب أو استهلكه في حاجة ضرورية، فهذا المسافر يُعطى من مال الزكاة.

﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ أي أن وجوب الزكاة وتوزيعها على الأصناف الثمانية المذكورة هو بحكم الله وفرضه ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله محيط علمه بكل شيء يفعل كل شيء بحكمة بالغة، ومنها وضع الصدقات في مواضعها النافعة.

توزيع الزكاة: الفقراء والمساكين هم أول الأصناف الذين تصرف لهم الزكاة، ويجوز صرفها إلى صنف واحد من الأصناف المذكورة في الآية مع الاجتهاد وتحري مواضع الحاجة من هذه الأصناف.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ (٦٣) ﴾.

شرح المفردات:

أُذُنٌ: أي يسمع كل ما قيل له ويقبله.

أُذُنُ خير: أي يسمع الخير فيما يجب سماعه وليس بأذن في غير ذلك.

من يحادد الله ورسوله: أي من يخالف الله ورسوله ويعاديهما.

الخزي: الذل والهوان.

إيذاء المنافقين للنبي ﷺ

وكان من صفات المنافقين إيذاء النبي ﷺ بأقوالهم الباطلة من ذلك ما ورد في الآية التالية قولهم:

﴿وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقولُون هُوَ أُذُنٌ﴾ هذه الآية نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون النبي ﷺ ويقولون: إنما محمد أُذُنٌ أي يسمع كل ما يقال له ويقبله ويصدِّقه. فقولهم ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ هو من تسمية الشخص باسم الأُذُن للمبالغة في وصفه بوظيفتها وهو كثرة السمع لما يقال وتصديقه، كقولهم للجاسوس (عين) ويطلق على لازمه وهو عدم الدقة في التمييز بين ما يسمع، وتصديق ما يُعقل وما لا يعقل. أرادوا بذلك بأنه ليس له ذكاء ولا يمحص القول الذي ينقل إليه ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ أي قل لهم أيها النبي إني أُذُن خير ولست بأذن في غير ذلك كسماع الباطل والكذب والغيبة والنميمة، فالنبي ﷺ لا يُلقي سمعه لشيء من ذلك وإذا سمعه لا يقبله.

وأكبر دليل على كون النبي ﷺ ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ هو معاملته للمنافقين بالحلم والحكم عليهم بظاهر حالهم، وقبول أعذارهم فلم يعاقبهم بما يبلغه عنهم، ولو كان يؤاخذهم بما يسمع عنهم لما سَلِمُوا من عقابه لأن أخبار السوء عنهم كثيرة.

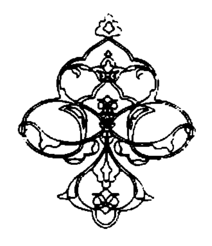
ثم وصف الله النبي ﷺ بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي يُصدِّق بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة على وحدانيته وما شاهد من الآيات الكونية التي تشهد بوجوده وقدرته وحكمته ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدقهم لما عَلِمَ فيهم من صدق وإخلاص وحسن سيرة ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي أن النبي ﷺ هو رحمة للذين آمنوا منكم، لأن النبي هو سبب إيمانهم وهدايتهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، وهذه الهداية رحمة للمؤمنين ﴿وَالَّذِين يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي والذين يؤذون رسول الله بالانتقاص من قدره والطعن فيه، أَعَدَّ الله لهم في الآخرة عذاباً شديد الألم.

وكان المنافقون يتكلمون بما لا يليق بالنبي ﷺ وبالمؤمنين ثم يأتون إليهم

وينكرون ما نُقِلَ على لسانهم في ذلك، ويؤكدون إنكارهم بالقسم: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكم﴾ أي يحلفون بالله لكم ـ أيها المؤمنون ـ أنهم ما أساءوا إلى رسول الله ﷺ بكلام يؤذيه.

يريد المنافقون بذلك أن ترضوا عنهم، وهم يحلفون بالله كذباً ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أن يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ والضمير في (يرضوه) هو بالمفرد ويرجع إلى الله سبحانه والمراد به تعظيم للجانب الإلهي، وكان الظاهر أن يُقال «يرضوهما» فعدل عن ذلك إلى قوله (يرضوه) لأن المقصود بجميع الطاعات والعبادات هو الله وحده فاقتصر على ذكر رضاء الله، ﴿إن كانوا مؤمنين﴾ أي إن كانوا مؤمنين حقًّا فليعملوا على إرضاء الله ورسوله بأن يطيعوا أوامرهما.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّم خَالِداً فِيهَا﴾
ألم يعلموا: الاستفهام هنا للتوبيخ على سوء حالهم. يحادد: يخالف ويعادي، والمعنى: ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن من يعادي الله ورسوله ويخالف أمرهما، فجزاؤه في الآخرة أن يُعذّب بنار جهنم ماكثاً فيها أبداً؟ ﴿ذَلِكَ الخِزْيُ العَظِيمُ﴾ أي ذلك الخلود في عذاب جهنم هو الفضيحة والذل والهوان لهم حيث ينكشف حالهم يوم القيامة على الناس جميعاً.



﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

شرح المفردات:

يحذر: يخاف. والحذر هو الاستعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع.

تنبئهم: تخبرهم.

مخرج ما تحذرون: مظهر ما تخافونه من الفضيحة.

نخوض: نتحدث ونخوض في الكلام.

المنافقون: الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

بعضهم من بعض: أي متشابهون في النفاق.

ويقبضون أيديهم: يمسكونها عن الإنفاق في سبيل الله ومرضاته.

الفاسقون: الخارجون عن طاعة الله ودينه.

صفات المنافقين وخوفهم من انكشاف أمرهم

كان النبي ﷺ يخبر المنافقين بما يضمرونه في أنفسهم من السوء وذلك بما ينزل عليه الوحي من السماء، ولهذا كانوا في خوف دائم من أن يُنَـزَّل على النبي ﷺ سورة من القرآن تفضحهم وتنشر خبرهم بين المؤمنين وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿يَحْذَرُ المنَافِقُونَ أن تُنَزَّلَ عَلَيهِم سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا في قُلُوبِهِم﴾ أي يخشى المنافقون أن يُنَزِّلَ الله على محمد ﷺ في شأنهم سورة تُتلى على المؤمنين تخبرهم بما كان المنافقون يتحدثون به فيما بينهم من سخرية واستهزاء بالنبي ﷺ وبما كانوا يتبادلونه بينهم من أقاويل الكفر والنفاق ﴿قُل اسْتَهزِئُوا إن اللّه مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرونَ﴾ الأمر هنا للتهديد، أي قل لهم يا محمد استهزئوا ما شئتم فإن الله معلن ومظهر على الملأ ما تحذرونه من إنزال الآيات القرآنية التي تفضحكم وتكشف أسراركم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم لَيَقُولُنَّ: إنَّما كُنَّا نَخُوضُ[1] وَنَلْعَبُ﴾ أي ولئن سألتهم يا محمد عما قالوا من الباطل والكذب، قالوا معتذرين: إنما كنا ندخل ونمضي في أحاديث مختلفة لا عن طريق الجد بل عن طريق اللهو واللعب.

قيل في أسباب نزول هذه الآية: إنه بينما كان رسول الله يسير في جيشه إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين قالوا: أيرجو هذا الرجل ـ أي رسول الله ـ أن يفتح قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات!! فأطلع الله رسوله محمداً على ذلك فقال: عليّ بهؤلاء النفر، فدعاهم فقال: قلتم كذا وكذا، فحلفوا: ما كنا إلا نخوض ونلعب. فلما قالوا ذلك أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يقول لهم على سبيل التوبيخ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُم تَسْتَهزِءُونَ﴾ أي كيف ساغ لكم أن تخوضوا وتلهوا مستهزئين بالله ودينه وبآيات القرآن المنزلة من عنده وبرسوله محمد ﷺ؟

﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إيمانِكُم﴾ أي لا تلتمسوا الأعذار الباطلة رغبة في دفع اللوم عنكم فقد ظهر كفركم بعد ادّعائكم الإيمان ﴿إن نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُم﴾ أي إن نتجاوز عن ذنوب جماعة منكم لتوبتهم عما قالوا ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهم

---

(١) نخوض: أصل الخوض الدخول في مائع من الماء والطين ثم كثر حتى صار اسماً لكل دخول فيه تلويث وأذى.

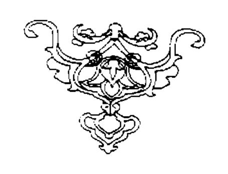
كَانُوا مُجْرِمينَ﴾ أي نعاقب جماعة أخرى بالعذاب الشديد لإصرارهم على النفاق والإجرام.

ثم يبين القرآن بعض صفات المنافقين:

﴿الـمُـنَـافِـقُونَ والمنَـافِـقَـاتُ بَـعْـضُـهُم مِنْ بَـعْضٍ﴾ أي هم صنف واحد متشابهون في أخلاقهم وسلوكهم يستوي في ذلك ذكورهم وإناثهم فمن سلوكهم أنهم **﴿يَـأمـرُونَ بِـالْـمنـكَرِ﴾** والمنكر خلاف المعروف أي يأمرون بالكفر بالله وبالمعاصي وكل ما هو قبيح في الشرع والعقل **﴿وَيَـنْـهَون عَـنِ الـمَـعْـرُوفِ﴾** وينهون الناس عن الإيمان بالله والفضائل الإنسانية والأعمال الصالحة **﴿وَيَـقْـبِـضُونَ أيـدِيَـهُم﴾** قبض اليد ضم أصابعها إلى باطن الكف وهو كناية عن شدة بخلهم بإنفاق المال في أي وجه من وجوه الخير والبر، كما أن بسط اليد كناية عن كثرة الإنفاق.

﴿نَـسُوا اللَّه فَـنَـسِيَـهُمْ﴾ النسيان: الترك، أي تركوا طاعة الله واتّباع أمره فهم لا يذكرون الله في شيء من أعمالهم فتركهم سبحانه من توفيقه وهدايته ورحمته، وجعلهم بمنزلة المنسيين من ثوابه **﴿إنَّ المنَـافِقينَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾** إن المنافقين هم الذين بلغوا الغاية في الخروج عن دين الله وطاعته والتمرد على تعاليمه.

فليحذر المؤمن أن ينسى الله فيكون من جملة المنافقين.



﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

شرح المفردات:

هي حسبهم: هي كافيتهم جزاء وعقاباً على كفرهم.

ولعنهم الله: طردهم من رحمته.

مقيم: دائم لا يزول ولا يتحول.

فاستمتعوا بخلاقهم: الخلاق هو النصيب من الشيء، أي تمتعوا بنصيبهم وحظهم الذي قُدّر لهم من دنياهم.

خضتم: الخوض هو الدخول في الباطل واللهو.

حبطت أعمالهم: بطلت وضاع ثوابها لكفرهم.

نبأ: خبر له شأن.

المؤتفكات: المنقلبات وهي قرى قوم لوط جعل الله عاليها سافلها.

إنذار شديد للمنافقين

وبعد أن بيّن الله صفات المنافقين وأعمالهم السيئة بيّن بعد ذلك ما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة يوم القيامة.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الوعد يكون للخير والوعيد للشر، فإذا ذكر القرآن الوعد هنا في معرض العذاب فهو تهكّم بالمنافقين الذين وعدهم الله نار جهنم يصلون سعيرها، ماكثين فيها أبداً لا يبرحونها ولا ينقطع عنهم عذابها ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي أن جهنم وحدها تكفيهم عقاباً وعذاباً لهم، وبالإضافة إلى ذلك ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ولهؤلاء نوع شديد من العذاب في النار دائم لا يفارقهم.

وبعد الكلام على المنافقين بصيغة الغائب يتحول القول إلى صيغة المخاطب[١] للتشديد عليهم:

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً﴾ أي أنتم أيها المنافقون وكفّار مكة حالكم كحال من مضى من الأمم قبلكم في تكذيب الأنبياء والمكر والخديعة والغدر، لقد كانوا أشد منكم قوة في الأبدان، كما كانوا أكثر غنى وذرية منكم.

﴿فاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِم﴾ والخلاق هو النصيب والحظ الذي يصيب الإنسان من أي نعمة، والمعنى: تمتع من قبلكم بنصيبهم المقدّر لهم في هذه الحياة الدنيا وكانوا منغمسين بملذاتها وشهواتها. والسين والتاء الداخلتان على تمتعوا ﴿فاستمتعوا﴾ تفيد الاستزادة والاستدامة في التمتع.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُم كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِين مِنْ قَبْلِكُم بِخَلاقِهِم﴾ أي

---

(١) وهو ما يسمى في البلاغة التفات من الغيبة إلى الخطاب.

وأنتم أيها المنافقون قد تمتعتم بنصيبكم المقدّر لكم من ملاّذ الدنيا وشهواتها كما تمتع الذين من قبلكم في ذلك ﴿وَخُضْتُم كالَّذي خَاضُوا﴾ ودخلتم في الباطل واللهو والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين كما خاض الذين من قبلكم في الباطل.

﴿أولَئِكَ حَبِطَت أَعْمَالُهُم في الدُّنْيَا والآخِرَةِ﴾ والحبط: السقوط والبطلان، والمراد أنهم لم يحصلوا من نفع على أعمالهم في الدنيا حيث أصابهم الفشل والخيبة فيما كانوا يكيدون للمؤمنين، أما في الآخرة فلن ينالوا ثواباً على أعمالهم إلا عذاب النار لأنها كانت فيما يسخط الله ويكرهه ﴿وَأُولَـئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ فهم خسروا الدنيا فلم يحصلوا منها على ما يبتغون وسيخسرون الآخرة لِمَا أَعدَّ الله لهم فيها من العذاب.

ثم تنتقل الآيات إلى تحذير المنافقين من أن يحل بهم من العذاب والهلاك مثلما حلّ بالأمم السابقة عندما كذّبوا رُسُلَ الله، قال تعالى:

﴿ألَمْ يَأْتِهِم نَبَأُ الَّذين مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إبراهيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ والمؤتَفِكَاتِ﴾ ألم يأتهم نبأ: الاستفهام هنا بمعنى التقرير والتحذير، أي لقد أتاهم ووصل إلى أسماعهم خبر الأمم التي كانت قبلهم، وهو ما فعلوه من الكفر والعصيان، وبلغهم ما فعل الله بهم من الإهلاك: فقوم نوح أهلكهم الله بالطوفان، وقوم عاد أهلكهم بريح صرصر عاتية، وقوم ثمود أهلكهم بالصيحة فقضت عليهم، وقوم إبراهيم أهلكهم بسلبهم وحرمانهم النعم التي كانوا عليها، وأصحاب مدين وهم قوم شعيب أهلكهم الله بعذاب يوم الظلة وهي غمامة أمطرتهم ناراً، والمؤتفكات: أي المنقلبات وهي قرى قوم لوط انقلبت فصار عاليها سافلها وسببت هلاك من فيها.

وقد ذكر الله هذه الأمم الست لأن آثار بعضهم باقية في الجزيرة العربية وبلاد الشام واليمن فكان العرب يمرّون عليها أثناء سفرهم للتجارة وغيرها، كما كانوا يعرفون الكثير من أخبارهم.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي هذه الأمم أتتهم رسل الله بالحجج الواضحات الدالة على وحدانية الله ووجوب إخلاص العبادة له وطاعته، كما أتتهم رسل الله بالمعجزات الدالة على صدقهم فيما يبلغونهم من أوامر الله لهم، فأنكروا ذلك وكذّبوا رسل الله فعاقبهم الله على هذا التكذيب ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي فما صح وما استقام أن يظلمهم الله، لأنه سبحانه لم يعجّل لهم العقوبة، بل أرسل إليهم رسله فأنذروهم وحذروهم من مغبة كفرهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وظلمهم كان بجحودهم نبوّة أنبيائهم وما جاءوا به من الهدى وكفرهم.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

شرح المفردات:

أولياء: جمع وليّ وهو الناصر.

خالدين فيها: ماكثين فيها إقامة دائمة.

جنات عدن: أي جنات إقامة وخلود.

صفات المؤمنين وثوابهم في الآخرة

وبعد أن بيّن الله صفات المنافقين أتبع ذلك بالكلام على صفات المؤمنين الحسنة التي هي ضد صفات المنافقين، والمقارنة بين الضدين تظهر الأمرين معاً في أجلى

صورة، وقديماً قال الشاعر العربي: والضد يظهر حُسنه الضد.

﴿والمُؤْمِنُونَ والمؤمِنَاتُ بَعْضُهُم أَولِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أولياء: جمع وليّ وهو الذي يهيىء للإنسان ما يبغيه من الخير وينفعه، كما أن الوليّ للمرء هو المحب والصديق والناصر. فالمؤمنون يجمعهم الإيمان وحسن الصحبة والتناصر والمودة، والتعاون على ما فيه الخير لهم. وهذا مقابل ما جاء في وصف المنافقين، ﴿بَعضهم مِنْ بَعْضٍ﴾ ولم تقل الآية: بعضهم أولياء بعض، لأن المنافقين قلوبهم مختلفة لا يجمعهم الحب والتناصر شأن المؤمنين.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ﴾ فهم يأمرون بالمعروف وهو كل ما عُرِفَ في شرع الإسلام من خير وبرّ وطاعة لله ورسوله. كما أن المؤمنين ينهون عن المنكر وهو ضد المعروف، والمنكر كل ما قبّحه الشرع وحرّمه وكرهه، وهذا في مقابل ما وصفه الله للمنافقين ﴿يَأمُرونِ بِالمنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعْرُوفِ﴾.

ومن صفات المؤمنين: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ أي يؤدون الصلاة المفروضة أداءً كاملاً من الخشوع والإخلاص. والصلاة تحتوي على ذِكْرِ الله وتقديسه ومناجاته ودعائه. وهذا كله في مقابل ما جاء في وصف المنافقين ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾.

ومن صفات المؤمنين أنهم ﴿وَيُؤْتُون الزكاة﴾ وهي الصدقة المفروضة شرعاً والتي تسد حاجات المعوزين والمحرومين. وهذا في مقابل ما وصف الله المنافقين ﴿وَيَقْبِضُون أَيْدِيَهُم﴾.

ومن صفات المؤمنين ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ﴾ أي يستمرون على طاعتهما فيما أمرا به وترك ما نهيا عنه، وهذا في مقابل ما وصف الله المنافقين ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ والفسوق هو الخروج عن طاعة الله.

ثم بيّن الله ثمرة أعمال المؤمنين والمؤمنات ﴿أولئك سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي أن الله

سيشملهم برحمته في مستقبل أمرهم في الدنيا والآخرة ما داموا مستمرين على طاعة الله وطاعة رسوله، وبذلك يحيون دائماً في رحمة الله التي لا تنقطع، بينما المنافقون قد بيّن الله مصيرهم فيما سبق بقوله: ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

ويختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي أن الله هو القوي الغالب الذي يضع كل شيء في موضعه بحكمة بالغة، فيكافيء المؤمنين ويعاقب الكافرين.

ومن الملفت للنظر أن القرآن شمل المؤمنات مع المؤمنين في الأمور الخيّرة والفضائل الإنسانية والرحمات الإلّهية، بينما كانت المرأة في كثير من المجتمعات الإنسانية في عصر ما قبل الإسلام منبوذه محتقرة، لا يُنظر إليها إلاّ على أنها أداة للشر والغوايه، وأنها غير مساوية للرجل في الإنسانية.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما أعدّ الله للمؤمنين والمؤمنات من ثواب في الآخرة:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ فالله وَعَدَ المؤمنين والمؤمنات ـ ووعد الله حق ـ وعدهم بجنات في الآخرة فيها أنواع النعيم مما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين تجري الأنهار من تحت أشجارها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها أبداً لا يزول عنهم نعيمها، بخلاف نعيم الدنيا القليل الزائل ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ وفي الجنة يسكنون منازل يطيب فيها العيش ليس فيها ما يسيء أو يزعج ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي وهم في هذه الجنات يقيمون فيها إقامة دائمة ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي وأعظم من ذلك كله رضاء الله عنهم. ورضوان الله عنهم هو نعيم روحي فيه من اللذة والسعادة ما يفوق نعيم الجنة، وهذا ردٌّ على الذين يدّعون بأن نعيم الجنة في الإسلام هو نعيم حسي يخلو من النعيم الروحي. وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «إن الله سبحانه يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده

أبداً»[1]. ويختم الله الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي أن ما أعطاه الله لهم من النعيم في الجنة والحصول على رضاء الله هو الفوز الذي بلغ الغاية في العطاء، فينبغي الحرص على طاعة الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه لننال رضاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

شرح المفردات:

اغلظ عليهم: شدّد عليهم ولا ترفق بهم.

مأواهم: مسكنهم ومقرّهم.

بئس: ساء.

المصير: المآل والمرجع.

وما نقموا: أي كرهوا غاية الكراهة.

يتولوا: يعرضوا.

وليّ: صديق ينفعهم أو سيد يتولى أمرهم.

---

(١) متفق عليه.

التشديد على الكفار والمنافقين

ظل النبي ﷺ فترة طويلة بعد هجرته إلى المدينة المنورة يعامل المنافقين باللين والرفق، ولكن هذه المعاملة منه لم تؤت ثمارها، بل ازداد المنافقون عِصياناً وتمرداً إلى أن جاء الوحي الإلّهي يرشد النبي ﷺ إلى كيفية التصرّف معهم بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّها النبيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ والمنَافِقينَ واغْلُظْ عَلَيْهِم﴾ أي يا أيها النبي ابذل جهدك في مقاومة هذين الفريقين بمثل ما تراه مناسباً لردهم عن عصيانهم وزجرهم عن تعدياتهم، واشدد عليهم ولا تأخذك بهم رأفة ورحمة ﴿وَمَأْوَاهُم جَهَنَّمُ﴾ ومكانهم ومقرهم الذي يأوون إليه في الآخرة هو جهنم ليكتووا بنارها ﴿وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ وساء المرجع الذي سيصيرون إليه.

وكان المنافقون يشتمون رسول الله ﷺ فيما بينهم ويسيئون إليه، وكان الوحي الإلّهي يخبر رسول الله ﷺ بما يصدر عنهم، من ذلك ما رُوي عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله جالساً في ظل شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاء فلا تظلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين فدعاهُ رسول الله فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله تعالى ما قالوا بما نُسِبَ إليهم حتى تجاوز عنهم النبي ﷺ، ونزل قوله سبحانه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ أي يقسم هؤلاء المنافقون بالله أنه ما صدر عنهم شَتْمٌ وقول سيء في حق رسول الله ﴿وَلَقَدْ قَالوا كَلِمةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ وكلمة الكفر هي سبّ رسول الله والطعن في الإسلام وبهذا ظهر كفرهم بعد أن كان باطناً في قلوبهم ﴿وَهمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ وهمت فئة من المنافقين باغتيال رسول الله عند رجوعه من تبوك فشعر بهم المرافقون لرسول الله ﷺ وأحبطوا كيدهم وكانوا بضعة عشر رجلاً. وقيل: ائتمروا بإخراج رسول الله من المدينة المنورة ليولوا عبد الله بن أُبيّ ملكاً عليهم.

﴿وَمَا نَقَمُوا إلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي ما كرهوا وما عابوا

على رسول الله ﷺ إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء وهو إغناء الله لهم من فضله. وقد كان هؤلاء المنافقون فيما مضى في ضيق من العيش، فلما قدم رسول الله إلى المدينة المنورة أغناهم الله من فضله ووسّع عليهم أرزاقهم من الغنائم وغيرها، فبدلاً من أن يخصّوا رسول الله بالشكر والمحبة والتفاني في نصرته، قابلوا ذلك بالجحود والإساءة إليه.

وعندما ذكرت الآية الكريمة: ﴿أغناهم اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ كان المتعارف في كلام البشر أن يقال «من فضلهما» ولكن الآية قالت ﴿من فَضْلِهِ﴾ أي الله، لأن الله لا يثنّى مع أحد.

﴿فَإِن يَتُوبوا يَكُ خَيْراً لَهُم﴾ أي فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق وحظيرة الإيمان يقبل الله توبتهم ويكون ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة.

وفَتْحُ باب التوبة رحمة من الله بالعباد فلو أغلق الله باب التوبة لأصبح كل من ارتكب إثماً مصيره النار يوم القيامة، ولكان ذلك تحريضاً للمذنب على التمادي في إثمه، بينما إذا علم المذنب أن باب التوبة مفتوح أمامه أقلع عن ذنبه وسار على درب الهداية ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً في الدُّنْيَا والآخِرَةِ﴾ وإن يعرض هؤلاء المنافقون عن الإيمان والتوبة، ويستمروا على ما هم عليه من الكفر والنفاق، يعذبهم الله عَذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والأسر والإذلال، وبالآخرة بأشد العذاب في نار جهنم ﴿وَمَا لَهُمْ في الأَرضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ وليس لهم في الأرض على كثرة أهلها صديق ولا ناصر يدفع عنهم عذاب الله.

* * * * *

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

شرح المفردات:

آتانا من فضله: أعطانا الله من نعمه.

إلى يوم يلقونه: إلى يوم يلاقون ربهم يوم القيامة.

فأعقبهم نفاقاً: جعل الله عاقبة بخلهم نفاقاً.

ونجواهم: ما تحدثوا به سرًّا فيما بينهم.

من صفات المنافقين

وبعد أن بيّن القرآن فيما سبق بعض جرائم المنافقين جاءت الآيات التالية تحكي لنا مثالاً آخر عن سلوك بعض المنافقين الذين لا يخلو منهم قوم ولا يخلو منهم زمان:

﴿وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين من عاهد الله تعالى وأقسم: لئن آتاهم الله من فضله مالاً وثراء ليشكرن الله على نعمه بالصدقة على الفقراء، وليكونَنَّ في عِدَادِ الصالحين الذين يسيرون على هُدى الله.

﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِنْ فَضْلِهِ بَخِلوا بِهِ﴾ أي فلما حقّق الله لهم ما سألوه من سعة الرزق وأعطاهم من وَاسِع فضله بخلوا بما آتاهم الله من المال الوفير ولم يتصدَّقوا بشيء منه كما عاهدوا الله عليه ﴿وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعرِضُونَ﴾ أي انصرفوا عن طاعة الله وهم قوم

عادتهم الإعراض عن الطاعات فلا يُنكر منهم هذا.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِم إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ فجعل الله عاقبة بخلهم نفاقاً متمكناً في قلوبهم ملازماً لها إلى يوم يَلْقَوْنَ الله يوم القيامة ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وعدُوهُ وَبِمَا كَانوا يَكْذِبُونَ﴾ أي بسبب أنهم لم يوفوا بما وعدوا الله به من التصدق على المحتاجين وبسبب استمرارهم على الكذب في جميع أقوالهم.

وذكر القرآن سببين هما من أخصّ صفات المنافقين وهما: خلف الوعد والكذب، فكيف إذا كان خُلْفُ الوعد مع الله مقروناً بالقسم؟

فالمنافق مضطر إلى الكذب لأنه في ظاهره يخالف ما يبطن من الكفر والعداوة لرسول الله فهو يكذب كي يستر نفاقه، كما أنه يخلّ بالعهد وهذه صفة راسخة في المنافق لا يتخلى عنها، لأن الوفاء بالعهد يترتب عليه واجبات عليه أن يقوم بها، وهو لا يريد أن يُلزم نفسه بشيء فيه أدنى تضحية. فليحذر المسلم تلك الصفات التي تُورث النفاق، وليذكر قول رسول الله ﷺ إذ قال: «ثلاث من كُنّ فيه كان منافقاً وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[1].

ثم يبين القرآن بأن الله لا يخفى عليه شيء من أحوال المنافقين:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُم ونَجْوَاهُم﴾ أي أغاب عن علم هؤلاء المنافقين الذين نقضوا ما عاهدوا الله عليه أن الله يعلم ما يخفون في صدورهم من النفاق ويعلم ما يتحدثون به سرًّا بعيداً عن سمع الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ علاَّمُ الغُيُوبِ﴾ وعلاّم: مبالغة في العلم، أي أن الله محيط علمه بكل ما يغيب عنهم وعن غيرهم فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وأكثر الروايات التي تذكرها كتب التفسير في أسباب نزول الآيات السابقة تشير

---

(١) رواه مسلم.

إلى أنها نزلت في شأن (ثعلبة بن حاطب) ولنذكر ما جاء في صدده باختصار.

روي أن ثعلبة بن حاطب أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً فقال النبي: يا ثعلبة قليل تؤدي حقه خير من كثير لا تطيقه، فراجعه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأُعطين كل ذي حق حقه، فدعا له رسول الله، فاتخذ غنماً فنمت وكثرت حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه واد، فقال يا ويح ثعلبة، ثم بعث النبي ﷺ اثنين ممن يعملون في جمع الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومرّا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب الله الذي فيه فريضة الزكاة، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية فارجعا حتى أرى رأيي[1]، فنزلت الآيات فيه وفي أمثاله من المنافقين.

---

(١) هذه القصة لم تصحّ لدى المحدّثين اللذين حققوا في أحاديث رسول الله. يقول الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء»: سنده ضعيف. ويقول ابن حجر في «تخريج الكشاف»: إسناده ضعيف جداً. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن ثعلبة هو ممن اشترك في معركة بدر وقد قال رسول الله في شأنهم لعمر: «ما يدريك لعلَّ الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

ويقول الضحاك كما جاء في تفسير القرطبي: إن الآيات نزلت في رجال من المنافقين نَبْتَل بن الحارث وجدّ بن قيس ومعتِّب بن قشير. ومما يؤيد ذلك أن القرآن ذكر قصة هؤلاء المنافقين بصيغة الجمع حيث قال: «فأعقبهم نفاقاً» ولو كان المقصود ثعلبة بالذات لقال «فأعقبه نفاقاً».

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

شرح المفردات:

يلمزون: يعيبون ويطعنون.

المُطَّوِّعين: المتطوعون الذين يفعلون الخير دون أن يكون واجباً عليهم.

جهدهم: طاقتهم ووسعهم (وهم الفقراء).

المخلّفون: الذين تخلفوا عن الجهاد دون حق.

بمقعدهم: بقعودهم.

خلاف رسول الله: أي بعد خروجه أو لأجل مخالفته.

لا تنفروا: لا تخرجوا للجهاد.

رجعك: ردك، والمراد رجوعك من تبوك إلى المدينة.

فاقعدوا مع الخالفين: فاقعدوا مع من تخلف من المنافقين، أو اقعدوا مع الفاسدين.

المنافقون يسخرون من المؤمنين

ويتابع القرآن فيذكر بعض مساوىء المنافقين تجاه المؤمنين:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِين مِنَ المؤمنين فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يلمزون: يطعنون. والمطوعين: هم المتطوعون المتبرعون بمالهم، والمراد بهم أغنياء المؤمنين الذين تبرعوا بأموالهم في الصدقات رغبة في رضاء الله ونيل ثوابه ﴿وَالَّذِينَ لا يجِدُون إلاَّ جُهْدَهُم﴾ جُهدهم: أي طاقتهم وما يبلغه قوتهم، والمراد بهم فقراء المسلمين الذين تصدّقوا بقليل من المال على الرغم من حاجتهم إليه. فالله يذم المنافقين الذين يطعنون بالمؤمنين المتبرعين بأموالهم في الصدقات سواء أكانوا من الأغنياء أم من الفقراء. وقد روي أن رسول الله ﷺ حث الناس على الصدقة فأتى عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال: كان لي ثمانية آلاف درهم فأمسكت لنفسي وعيالي أربعة وهذه الأربعة أقرضتها لربي، فقال رسول الله: بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت. . . وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر فقال: آجرت الليلة الماضية نفسي من رجل لإرسال الماء إلى نخيله فأخذت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالي وأقرضت الآخر ربي فأمر رسول الله بوضعه في الصدقات. فقال المنافقون: ما أعطى عبد الرحمن بن عوف إلاّ رياء. وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليُذكر مع سائر الأكابر والله غنيّ عن صاعه.

﴿فَيَسْخَرون مِنْهُم سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُم وَلَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ﴾ فهؤلاء المنافقون الذين سخروا من المؤمنين بسبب ما بذلوه من الصدقات، فالله في مقابل ذلك سيجازي المنافقين على سخريتهم بالإذلال والإهانة وذلك حين فضحهم في هذه السورة ببيان نفاقهم وجعلهم محلاً للاحتقار والازدراء، هذا في الدنيا أما في الآخرة فينتظرهم العذاب الشديد.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُم أو لا تَسْتَغْفِرْ لَهُم إن تَسْتَغْفِر لَهُم سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُم﴾

روي أنه لما نزلت الآيات المتقدمة في المنافقين وظهر نفاقهم للمؤمنين جاءوا إلى رسول الله يعتذرون وقالوا: يا رسول الله استغفر لنا، فقال رسول الله: أستغفر لكم، واشتغل رسول الله بالاستغفار لهم فنزلت هذه الآية فترك رسول الله الاستغفار، أي أن استغفارك لهؤلاء المنافقين وعدمه سيّان. وذكر العدد سبعين بقوله سبحانه ﴿سبعين مرة﴾ المراد منه الكثرة في الاستغفار فقد جرت العادة عند العرب في استعمال هذا العدد للتكثير لا للتحديد، أي مهما بالغت في الاستغفار فالله لن يغفر الله لهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهم كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي أن حَجْبَ المغفرة عنهم ولو بعد المبالغة في الاستغفار لهم هو بسبب كفرهم بالله ورسوله ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ والله لا يوفق إلى الحق والخير أولئك الذين خرجوا عن طاعته وآثروا الضلال على الهدى.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِم خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ المخلفون: هم الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ بأعذار كاذبة. والمراد بمقعدهم: جلوسهم في منازلهم وعدم خروجهم للجهاد. وخلاف رسول الله: أي مخالفة لأمره. والمعنى: فرح الذين تخلّفوا عن الجهاد مع رسول الله والمؤمنين بجلوسهم في منازلهم مخالفين بذلك رسول الله فيما دعاهم إليه من الجهاد ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوالِهِم وَأَنفُسِهِم في سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وكره المنافقون أن يبذلوا أموالهم وينفقوها في سبيل الله، ويضحّوا بأرواحهم لإعلاء كلمة الله، لأن قلوبهم خلت من الإيمان، وهم ليست لهم قضية يعملون لها ويقاتلون لأجلها، بخلاف المؤمنين الذين استجابوا لرسول الله ﷺ بالجهاد لإيمانهم بالله، ورغبتهم في نيل ثواب الله العظيم.

ولم يكتف المنافقون بتخلفهم عن الجهاد بل كانوا يثبطون هِمَمَ المؤمنين عن الخروج مع رسول الله إلى تبوك ﴿وَقَالُوا لا تَنفِروا في الحرِّ﴾ أي لا تخرجوا إلى الجهاد وقتال العدو في الحر. وقد كانت غزوة تبوك في الصيف، والحر شديد، والمسافة بعيدة، فأمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يردّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ

حرًّا﴾ أي أن نار جهنم التي سيدخلونها في الآخرة بسبب نفاقهم وتخلفهم عن الجهاد هي أشد حراً من حرارة الصيف التي تحذّرون الناس منها ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي لو كان المنافقون يفهمون ذلك لما فعلوا ما يستوجب عقابهم يوم القيامة بنار جهنم.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كثيراً﴾ فليضحكوا فرحين في هذه الدنيا الفانية بجلوسهم في منازلهم وعدم مشاركة المؤمنين في الجهاد، وسيعقبه بكاء كثير لا نهاية له في الآخرة ﴿جَزَاءً بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ جزاء ما ارتكبوه من السيئات ومخالفة رسول الله عندما دعاهم إلى الجهاد.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي فإن ردّك الله يا محمد إلى طائفة من هؤلاء المنافقين من غزوتك هذه ـ أي غزوة تبوك ـ وهم الذين تخلفوا عن الجهاد ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلخُروجِ﴾ وطلبوا منك أن تأذن لهم في الخروج معك للجهاد في غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخرُجُوا مَعِيَ أبداً وَلَنْ تُقَاتِلوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ فقل لهم يا محمد: لن تنالوا شرف الخروج معي إلى الجهاد أبداً، ولن تُقاتلوا معي عدواً لأنكم لستم أهلاً لنيل شرف الجهاد وشرف الاستشهاد، وإن أسماءكم قد شُطبت من ديوان المجاهدين ﴿إِنَّكُم رَضِيتُم بِالقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لأنكم رضيتم بالقعود في المدينة دون الخروج معي إلى تبوك حين دعوتكم إلى الجهاد أول مرة، فجزاؤكم هو حرمانكم من شرف الجهاد ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الخَالِفِينَ﴾ جمع خالف، أي اقعدوا مع من تخلف من المنافقين. وقيل: فاقعدوا مع الفاسدين[١].

* * * * *

(١) مأخوذ من خلف الشيء إذا فسد.

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

شرح المفردات:

تزهق: تهلك.

أولو الطَّوْل: أصحاب الغنى والسعة.

ذرنا: اتركنا.

الخوالف: جمع خالفة وتطلق على النساء اللاتي تخلفن عن أعمال الرجال وقعدن في البيوت ويقال: رجل خالفة أي لا خير فيه.

طبع الله على قلوبهم: ختم الله عليها فلا تقبل الهدى والصواب.

لهم الخيرات: لهم أنواع الخير من نعم الدنيا وثواب الآخرة.

المفلحون: الفائزون.

ثواب المؤمنين وموقفهم من المنافقين

ثم تأتي الآيات التالية وفيها الحديث عن المنافقين وكيفية التصرف معهم:

﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْـهُم مَاتَ أبداً﴾ أي ولا تُصلِّ يا محمد أبداً على أحد مات

من هؤلاء المنافقين الذين تخلّفوا عن الخروج معك إلى الجهاد، والمراد بالصلاة المنهي عنها صلاة الجنازة المتضمنة الدعاء والاستغفار للميت وطلب الرحمة من الله له ﴿ولا تَقُمْ على قَبْرِهِ﴾ أي ولا تقف على قبره عند الدفن أو بعده بقصد الزيارة والدعاء له ﴿إنَّهُم كَفَرُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي نهيناك عن ذلك لأن هؤلاء المنافقين جحدوا وحدانية الله وكذبوا نبوتك ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وماتوا وهم خارجون عن طاعة الله.

وكان من عادة النبي أن يصلي صلاة الجنازة على من مات من المسلمين وكان يعامل المنافقين بحكم الظاهر معاملة المسلمين حتى نزلت هذه الآية فما صلى بعدها على منافق ولا قام على قبره حتى توفي ﷺ. وقد روي أن رأس المنافقين وسيدهم عبد الله بن أُبيّ مات بالمدينة فأوصى قبل موته أن يصلي عليه النبي ﷺ وأن يكفّن في قميصه فكفّنه النبي ﷺ في قميصه وصلى عليه وقام على قبره فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً...﴾ الآية:

﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُم وَأَوْلادُهُم﴾ أي ولا يُثِرْ عجبك أيها الرسول ولا تستحسن ما عند المنافقين من أموال وأولاد مع سخطنا عليهم ﴿إنّما يُرِيدُ اللَّهُ أن يُعَذِّبَهُم بِهَا في الدُّنْيَا﴾ وسبب كون المال والولد عذاباً في الدنيا هو أن المنافق الذي خلا قلبه من الإيمان يجمع المال من الحلال والحرام، والذي يكسب المال من الحرام هو لص يخاف أن ينكشف أمره بين الناس فهو في قلق دائم من الفضيحة، والذي يُربّي أولاده بالمال الحرام لا يبارك الله في عيشه ويتأثر أولاده بسيرته فينشأون على الموبقات وتبذير أموال أبيهم والعقوق له فيكون ذلك أكبر عذاب لأهليهم ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُم وَهُم كَافِرون﴾ أي وتخرج أرواحهم من أبدانهم عند موتهم وهم مصرّون على الكفر والضلال فيكون مصيرهم العذاب في الآخرة، ومثل هذا الصنف من الناس لا يستحق الإعجاب بما عنده من مال وولد.

﴿وَإِذَا أُنزِلَت سُورَةٌ أن آمنوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي وإذا أنزل الله عليك

يا محمد سورة من القرآن تدعو المنافقين أن يؤمنوا بالله ويطيعوه في أمره ونهيه ويجاهدوا معك لإعزاز دين الله ﴿ٱسْتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُم﴾ أي طلب منك يا محمد أصحاب الغنى والسعة من المنافقين الذين يملكون مقومات الجهاد من عتاد ومركوب، أن تأذن لهم بالتخلف عن الجهاد وعدم الخروج للقتال ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ وقالوا لك: اتركنا يا محمد مع القاعدين في المدينة ممن لهم عذر في عدم الخروج معك واذهب أنت وأصحابك إلى القتال.

﴿رَضُوا بِأَن يَكُونوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ والخوالف: جمع خالفة وتطلق على النساء اللاتي تخلفن عن أعمال الرجال وقعدن في البيوت، ويقال: رجل خالفة أي لا خير فيه لقد رضي المنافقون أن يبقوا في بيوتهم مع هؤلاء ولا يخرجون مع رسول الله إلى الجهاد ولا يفعل ذلك إلا الجبناء ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ وترتب على نفاقهم وإعراضهم عن الجهاد أن خُتِمَ على قلوبهم ﴿فَهُم لا يَفْقَهُونَ﴾ فهم لا يفهمون ما في الإيمان والجهاد من سعادة الدنيا وثواب الآخرة.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وَأَنفُسِهِم﴾ أي إن تخلّف هؤلاء المنافقون عن الجهاد في سبيل الله، فقد استجاب له من هم خير منهم وهم رسول الله ومن معه من المؤمنين الصادقين، حيث ضحوا بأرواحهم وبذلوا أموالهم لإعلاء كلمة الله ونُصْرة دينه ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي لهم منافع الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وأولئك فازوا بالمطلوب وهو سعادة الدارين.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي هيأ الله لهؤلاء المؤمنين الصادقين الذين جاهدوا في سبيل الله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين فيها أبداً لا ينقطع عنهم نعيمها بالموت إذ لا موت للصالحين في الآخرة ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الجزاء الذي ينالونه هو الفوز الكبير الذي لا يدانيه فوز.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) ۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ (٩٦)﴾ .

شرح المفردات:

المعذِّرون: المعتذرون والمراد بهم المعتذرون كذباً.

الأعراب: سكان البوادي.

حرج: إثم أو ذنب.

لا أجد ما أحملكم عليه: لا أجد ما أعطيكم إياه من المركوب.

تولوا: ذهبوا وانصرفوا.

إنما السبيل: إنما الملامة والمعاتبة.

مع الخوالف: جمع خالفة، أي مع النساء.

طبع الله على قلوبهم: ختم عليها.

لتعرضوا عنهم: لتصفحوا عنهم.

فأعرضوا عنهم: فاتركوهم.

رجس: نجس وقذر.

تخلف الأعراب عن الجهاد

وبعد أن بيّن الله أحوال المنافقين الذين يسكنون في المدينة شرع بعد ذلك ببيان أحوال المنافقين من الأعراب وهم سكان البادية.

والأعراب جمع أعرابي ورجل أعرابي إذا كان بدوياً ويطلب مساقط الغيث والعشب. وعلى هذا فمن استوطن القرى والمدن فهم عرب ومن نزل البادية فهم أعراب.

وفي الآيات التالية يذكر القرآن أحوال المنافقين من الأعراب إلحاقاً بمنافقي المدينة:

﴿وَجَاء الْمُعَذِّرونَ[1] مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ والمعذرون هم المعتذرون، والاعتذار قد يكون عن طريق الكذب وقد يكون عن طريق الصدق، والمراد بهم هنا الذين يريدون أن يتخلفوا عن الجهاد بأعذار كاذبة، قيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيء على أهالينا ومواشينا، فقال النبي ﷺ: سيغنيني الله تعالى عنكم ﴿وَقَعَد الَّذين كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وتخلّف فريق آخر من

---

(١) المعذّرون: أصله المعتذرون أو بدلت التاء ذالاً وأدغمت في الذال التي بعدها فصارت التاء ذالاً مشددة.

منافقي الأعراب وبقوا حيث يسكنون فلم يجيئوا إلى رسول الله ليعتذروا ويطلبوا الإذن بالتخلف عن الجهاد، وقد ظهر بذلك أنهم كذبوا على الله ورسوله في ادعاء الإيمان حيث لم يحضروا إلى رسول الله ولم يعتذروا وهذا دليل كفرهم ﴿سَيُصِيبُ الَّذين كَفَرُوا مِنْهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيد شديد لهم، أي سينال هؤلاء المتخلفين الكاذبين الذين يدّعون الإيمان وهم لا إيمان لهم عذاب أليم بالقتل والأسر في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة.

ثم يبين القرآن أصحاب العذر الحقيقيين:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى المرضَى﴾ فالضعفاء هم الذين لا يستطيعون القتال إما لكبر سنهم أو لصغر سنهم وكذلك المرضى وأصحاب العاهات كالعمي ﴿وَلاَ عَلَى الَّذين لا يجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ﴾ وكذلك أعفى الله الذين لا يجدون ما ينفقونه في شراء دابة تحملهم إلى ميدان المعركة أو شراء معدات قتال يقاتلون بها. هذا وقد كان على المجاهدين في زمن النبي ﷺ أن يهيئوا لأنفسهم متطلبات الحرب من أموالهم إذا لم يجدوها عند النبي ﷺ ﴿حَرَجٌ إذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهؤلاء جميعاً الذين أعفاهم الله من الجهاد ليس عليهم إثم وذنب إذا أخلصوا النصح لله ورسوله. فالنصح لله يكون بالإيمان بوحدانيته والعمل بشريعته وترك ما يخالفها، ويدخل تحت النصح دخولاً أوّلياً نصح المسلمين ومحبة المجاهدين في سبيل الله، والسعي في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا للغزو، كما يدخل في النصح مواجهة الإشاعات الكاذبة التي يطلقها المنافقون للنيل من الروح المعنوية للمسلمين. أما النصيحة لرسول الله ﷺ فهي التصديق بنبوته وبما جاء به من عند الله، وطاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه والعمل بسنّته ﴿مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ما على المحسنين من أثم أو لوم، والمحسنون هم الذين يؤدون ما كلفهم الله به بالتمام على وجه حسن ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله واسع المغفرة كثير الرحمة.

﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إذا مَا أتَوْكَ لِتَحْمِلَهُم﴾ أي وكذلك لا حرج ولا إثم على

الفقراء الذين يرغبون في الجهاد ولكنهم لا يملكون من وسائله من السلاح والراحلة، هؤلاء جاءوا إليك ـ أيها النبي ـ يلتمسون إليك أن تهيىء لهم أسبابه وكانت المسافة الموصلة إلى ميدان المعركة بعيدة، والمقاتل يحتاج إلى بعيرين، بعير يركبه، وبعير يحمل عليه ماءه وزاده وسلاحه، فاعتذرت لهم وقلت لهم ﴿قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحمِلُكُم عَلَيْهِ﴾ أي لا أجد من الدوابّ ما أحملكم عليها، وعندما قلت لهم ذلك ﴿تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً ألاَّ يَجِدُوا ما يُنفِقُونَ﴾ أي انصرفوا عنك وأعينهم تسيل دمعاً غزيراً لحزنهم الشديد على عدم تمكنهم من الجهاد لأنهم لم يجدوا من المال لشراء المركوب والسلاح للاشتراك مع المجاهدين في القتال.

صورة من أرفع صور الفداء والتضحية في سبيل الله يقدمها القرآن للمؤمنين في كل عصر. فهؤلاء المؤمنون فاضت أعينهم بالدمع حزناً لعجزهم عن مصاحبة إخوانهم المؤمنين الذاهبين إلى الجهاد، غير عابئين بما يتطلبه الجهاد من مشقات وأخطار. بمثل هذه الروح العالية انتصر المسلمون الأولون ورفعوا راية الإسلام في كثير من بقاع الأرض.

وإن ما يعانيه المسلمون اليوم من اعتداء وذل في كثير من بقاع العالم ما هو إلا بسبب انعدام روح التضحية والإرادة القتالية في نفوسهم.

﴿إِنَّما السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يستأذنونك وَهُم أَغْنِيَاءُ﴾ أي وإذا كان الضعفاء والمرضى ومن في حكمهم لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد، فإن الإثم واللوم يقع على الذين يطلبون الإذن للقعود عن القتال وهم أغنياء يملكون كل مقومات الجهاد.

ولكن لماذا يستأذن هؤلاء من النبي لأن يتخلفوا عن الجهاد وهم أغنياء؟ السبب في ذلك أنهم منافقون وضعهم نفاقهم في موضع الذل والهوان ولذا قال الله في حقهم ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ﴾ فهم رضوا أن يكونوا مع الخوالف وهن النساء القاعدات في بيوتهن والصبيان ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ وبسبب

إصرارهم على النفاق ختم الله على قلوبهم وأقفل عليها فلا يدخل إليها الإيمان والهدى، فهم لا يعلمون ما في الجهاد من منافع في الدنيا وثواب في الآخرة.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُم إِذَا رَجَعْتُم إِلَيْهِم﴾ أي يعتذر إليكم هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الجهاد بالأعذار الكاذبة إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم. وهذه الجملة من الآية هي من الأنباء الغيبية التي أخبر الله بها رسوله والمؤمنين عن أحوال المنافقين ﴿قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُم﴾ أي قل لهم يا محمد: لا تعتذروا فلن نصدّقكم في اعتذاركم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُم﴾ قد أخبرنا الله بعض أخباركم المنافية للصدق ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ﴾ أي وسيرى الله ورسوله فيما بعد عملكم، أتتوبون من نفاقكم أم تظلون مصرين عليه ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ﴾ ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الله الذي يعلم السر والعلانية والذي لا يخفى عليه بواطن أموركم وظواهرها وما يشاهد منها ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ فيخبركم بأعمالكم كلها سيئها وحسنها فيجازيكم بها، الحسن منها بالحسن، والسيىء منها بالسيىء.

﴿سَيَحْلِفُونَ باللَّهِ لَكُم إِذَا انْقَلَبْتُم إِلَيْهِم لِتُعْرِضُوا عَنْهُم﴾ أي سيحلفون بالله لكم أيها المؤمنون إذا انصرفتم إليهم من غزوكم لتتركوهم وتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُم إِنَّهُم رِجْسٌ﴾ أي فأعرضوا عنهم إعراض احتقار وإهانة لا إعراض صفح وعفو لأنهم نجس وقذر، والرجس مبالغة في نجاسة أعمالهم، فبواطنهم خبيثة، وأعمالهم قبيحة، فلا ينفع فيهم توبيخ ولا عتاب فلا تجالسوهم ولا تكلموهم ﴿وَمَأْوَاهُم جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ومسكنهم في الآخرة نار جهنم ليعذبوا بها جزاء لهم بما فعلوا من السيئات.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُم لِتَرْضَوْا عَنْهُم﴾ أي يحلف بالله هؤلاء المنافقون اعتذاراً بالباطل والكذب لترضوا عنهم ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُم﴾ أي فإن رضيتم ـ أيها المؤمنون ـ

عنهم بسبب حلفهم لكم وقبلتم عذرهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾ أي فإن رضاكم غير نافعهم عند الله لأنه سبحانه يعلم ما يخفون من أمرهم ما لا تعلمون، ويعلم ما في قلوبهم من النفاق، والله لا يرضى عن القوم الخارجين عن طاعته.

* * * * *

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

شرح المفردات:

وأجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله: أخلق وأحرى بألاّ يعلموا فرائض الله وأوامره.

مغرماً: غرامة وخسارة.

يتربّص بكم الدوائر: ينتظر بكم صروف الدهر ومصائبه.

السوء: ما يسيء ويؤذي.

قربات: جمع قُربة وهي ما يتقرب به الإنسان إلى ربه.

صَلوات الرسول: دعوات رسول الله واستغفاره.

موقف الأعراب من الإسلام

وبعد أن ذكر الله أحوال المنافقين في المدينة المنوّرة أتبع بذلك بِذكْرِ أحوال المنافقين من الأعراب وهم سكان البادية، يقول الله تعالى:

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾ أي أن كفّار الأعراب ومنافقيهم أشد كفراً ونفاقاً من أمثالهم من أهل المدن، لأنهم أغلظ طباعاً وأقسى قلوباً وأقل مشاهدة لأهل الخير، وأقل علماً بحقوق الله، لأنهم يقضون جُلّ أعمارهم في رعي الأنعام وحمايتها من ضواري الوحوش واللصوص، كما أن الجو الحار والبرد القاسي في البادية له تأثير أيضاً على طباعهم، وبالإضافة إلى ذلك فليس لهم واعظ ولا مؤدب يرشدهم إلى الحق والصواب ﴿وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وهم أخلق وأحرى بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الأحكام والآداب والشرائع، وذلك لِبُعْدهم عن مجلس رسول الله ﷺ وحرمانهم من سماع أقواله وتوجيهاته ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله واسع العلم بشؤون عباده وأحوالهم من إيمان وكفر، وهو حكيم فيما يشرّعه لهم من الأحكام.

﴿وَمِنَ الأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرماً﴾ أي ومن الأعراب من يعتقد أن ما ينفقه في سبيل الله غرامة وخسارة إذ لا ينفقه عن إيمان بالله ورجاء لثوابه، وإنما ينفقه خوفاً من المسلمين أو مراءاة لهم ﴿وَيَتَربَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ والدوائر جمع دائرة وهي ما يحيط بالشيء، والمراد بها هنا ما يحيط بالإنسان من مصيبة ونكبة. والمعنى: ومن الأعراب من ينتظر أن يحل بكم مصائب الدهر فيتبدل حالكم من قوة إلى ضعف ومن نصر إلى هزيمة ﴿عَلَيْهِم دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ دعاء عليهم بمثل ما أرادوا بالمؤمنين، أي عليهم يدور البلاء والحزن فلا يرون في محمد ﷺ ودينه إلا ما يحزنهم ﴿واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والله سميع لأقوالهم السيئة عليم بنياتهم الخبيثة.

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ﴾ أي ومن الأعراب من يصدّق

بالله ويقرّ بوحدانيته، ويصدّق بالبعث بعد الموت، والثواب والعقاب من الله ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقربات: جمع قُرْبة، أي يعتبر أن ما ينفقه في سبيل الله يقرّبه من رضاه ومحبته ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي ويبتغي بما ينفق من الصدقات دعاء رسول الله والاستغفار له، فقد كان رسول الله ﷺ يدعو للمتصدّقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، ولذلك كان من السُّنَّة الدعاء للمتصدّق بالخير والبركة ﴿أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُم﴾ أي إن إنفاقهم المال في الصدقات قُرْبةٌ لهم عند الله، وهذا الموقف منهم هو شهادة من الله بصحة ما اعتقدوه وتصديق لرجائهم ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وَعْدٌ من الله بأنه سيشملهم برحمته الواسعة، ومن نال رحمة الله سعد في دنياه وآخرته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن الله سبحانه عظيم المغفرة واسع الرحمة.

ثم بيّن القرآن من لهم السبق والفضل من المؤمنين على غيرهم في الثواب:

﴿والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأنصارِ﴾ المراد بالسابقين الأولين من المهاجرين هم أوائل المؤمنين الذين استجابوا لرسول الله ﷺ في مكة وصبروا على الفتنة والتعذيب وخرجوا من ديارهم، وتركوا أموالهم فراراً بدينهم من الفتن وتعذيب الكفار لهم، فهاجروا أولاً إلى الحبشة ثم إلى المدينة المنوّرة، وذلك قبل أن تنقطع الهجرة بفتح مكة، أما الأنصار فقد كان لهم السبق أيضاً في الإيمان ونصرة رسول الله ﷺ وإيوائه بالمدينة المنورة عندما هاجر إليهم، وإيوائهم كذلك المهاجرين من مكة. فالهجرة في سبيل الله ونصرة رسول الله؛ هما الجهتان اللتان رُوعي فيهما السبق والأوليَّة في الإيمان.

ويشمل السبق بالإيمان جميع أصحاب رسول الله الذين قاتلوا المشركين في غزوة بدر، ومن أدرك «بيعة الرضوان» وهي التي عاهد فيها أولئك المؤمنون رسول الله ﷺ على نصرة الإسلام حتى الموت، والذين قال الله في حقهم: ﴿ ۞ لَقَدْ رَضِيَ

ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ويضيف القرآن إلى المهاجرين والأنصار ممن شملهم الله سبحانه برضوانه:

﴿والَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وهم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والأنصار في الإيمان ونُصْرة دين الله إلى يوم القيامة، هؤلاء جميعاً شملهم الله برضوانه، فتقبّل أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم، ورضوا عنه بما أسبغه عليهم من نِعَمِهِ الجليلة وبما أعد الله لهم من النعيم في الآخرة. ولا شك أن رضاء الله عن المؤمنين أعظم من رضاء المؤمنين عن الله، لأن الله رضي عن المؤمنين وهو مستغنٍ عنهم ورضوا عنه وهم بحاجة إليه، هذا فضلاً عن أن الرضى المنسوب إلى الله يختلف في المعنى عن الرضى المنسوب إلى المؤمنين.

﴿وَأَعَدَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِين فِيهَا أَبداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ لهؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان، هيّأ الله لهم في الآخرة جنّات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار مع الإقامة الدائمة فيها من غير انتهاء، وذلك هو الفوز الذي بلغ الغاية في العِظَم.

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره للقرآن:

«فقد أخبر الله سبحانه أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم وسبّهم، أو أبغض أو سبّ بعضهم ولا سيما سيّد الصحابة بعد رسول الله، وخيرهم وأفضلهم، أعني الصدّيق الأكبر، والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه... فأين هؤلاء من القرآن إذ يسبّون من رضي الله عنهم؟»

هذا وقد جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ قوله:

«لا تسبّوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ[١] ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم[٢] ولا نصيفه»[٣].

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

شرح المفردات:

مردوا على النفاق: دُرِّبوا واعتادوا عليه.

تزكّيهم بها: تنمي بها حسناتهم وأموالهم.

وصَلِّ عَلَيْهِم: ادع لهم واستغفر لهم.

---

(١) مثل أُحد: أي أنفق في سبيل الله ذهباً مثل جبل أُحُد.

(٢) مُدَّ أحدهم: المد هو ربع صاع في الوزن والصاع يساوي ٢١٧٦ غراماً أي لو أن أحداً عمل مهما قدر عليه من أعمال البر والإنفاق في سبيل الله ما بلغ هذا القدرُ اليسيرَ التافه من أعمال الصحابة.

(٣) أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم.

سكن لهم: طمأنينة وتثبيت لقلوبهم.

ألم يعلموا: «استفهام يراد به التقرير» أي قد علموا.

يقبل التوبة عن عباده: أي يقبل توبتهم ويعود عليهم بالمغفرة.

يأخذ الصدقات: يقبلها ويثيب عليها.

ستردون: سترجعون.

عالم الغيب والشهادة: أي أن الله يعلم الخفي والظاهر.

مُرْجَوْن لأمر الله: مؤخرون لأمر الله ليحكم فيهم.

اللّه سبحانه يقبل توبة التائبين

ويتابع القرآن الكلام على المنافقين، محذراً المؤمنين منهم، يقول الله تعالى:

﴿وَمِمَّن حَوْلَكُم مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُون وَمِن أَهْلِ المدِينَةِ﴾ أي وممن حولكم ـ أيها المؤمنون ـ من سكان البادية منافقون، ومن أهل مدينتكم أمثالهم من المنافقين ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي أقاموا على النفاق ومرنوا فيه واعتادوا عليه، وبلغوا الغاية في إتقانه بحيث لا يشعر بهم أحد ﴿لا تَعْلَمُهُم نَحْنُ نَعْلَمُهُم﴾ لا تعرفهم يا محمد لأنهم بلغوا الغاية في إخفاء نفاقهم، ولكن الله وحده هو الذي يعلم حقيقتهم.

والهدف من ذلك أن يعلم المنافقون أن الله يعلم أحوالهم ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، وأن عليهم أن يتوبوا قبل أن يفضحهم الله كما فضح غيرهم ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَرَّتَيْنِ﴾ وعيد من الله لهؤلاء المنافقين بأنه سيعذبهم مرتين قبل يوم القيامة، فالعذاب الأول هو أن يفضحهم الله أمام المؤمنين وفي هذا إيلام شديد لهم، والعذاب الثاني هو عذاب القبر أو عذاب القتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ ثم يرجعون إلى خالقهم فيعذبهم في الآخرة عذاب جهنم.

والمنافقون فريقان: فريق عُرفوا بأقوالهم وأعمالهم العلنية، وفريق اعتادوا على النفاق وأخفوه بحيث لا يشعر بهم أحد، وكلا الفريقين يوجد أمثالهم في كل عصر،

فعلى المؤمنين اليقظة التامة منهم، وأشد المنافقين ضرراً هم الذين يلتفون حول الرؤساء وأصحاب السلطة فيزينون لهم الشر بصورة الخير لمنافعهم الذاتية، وكذلك بعض الذين يلبسون لباس علماء الدين ويسخّرون الدين لأطماعهم ورغباتهم وشهواتهم.

ويتابع القرآن فيذكر فئة من المؤمنين تخلّفوا عن الجهاد:

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي وآخرون من المؤمنين أقرّوا بذنوبهم وأظهروا الندامة على تخلفهم عن الجهاد ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ والمراد بعملهم الصالح خروجهم مع رسول الله ﷺ إلى سائر الغزوات أما عملهم السيّىء فهو تخلّفهم عن غزوة تبوك وبقاؤهم في المدينة لا كفراً ونفاقاً بل كسلاً وتقصيراً ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ لعلّ الله أن يتوب عليهم، وعسى في كلام الله تفيد تحقق الوقوع أي أن الله سيتوب عليهم، وعبّر الله بعسى للإشعار بأن ما يفعله الله بهم من توبته عليهم هو على سبيل التفضّل منه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي ذو عفو لمن تاب، رحيم لمن أطاعه واتبع هداه.

هذه الآية نزلت في عشرة من المؤمنين تخلّفوا عن غزوة تبوك فندموا على ذلك أشد الندم، فربط سبعة منهم أنفسهم إلى سواري المسجد[1] توبة منهم من ذنبهم وكان ممر النبي عند رجوعه من تبوك في المسجد. فلما رآهم قال: من هؤلاء الموثقو أنفسهم بالسواري؟ فقالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلّفوا عنك يا رسول الله، فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم وقد اعترفوا بذنوبهم، فقال رسول الله: والله لا أُطلقهم حتى أومر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يعذرهم... فأنزل الله برحمته ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم..﴾ الآية فلما نزلت الآية أطلقهم رسول الله وعذرهم وتجاوز عنهم.

---

(١) سواري المسجد: أعمدة المسجد.

وحينما أُطلقوا قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا قال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً فأنزل الله قوله:

﴿خُذْ مِن أَمْوالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وَتُزَكِّيهم بِهَا﴾ وهي صدقة الفرض (أي الزكاة) وتشمل صدقة التطوع.

فالصدقة تطهِّر المحسنين من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء، كما تطهّر قلوب الفقراء من الحقد والحسد، فالفقير إن نال خيراً من محسن دعا له بالخير. أما معنى التزكية فهو النماء والزيادة، فهي تنمي نفوس المحسنين بالصفات الخلقية الفاضلة وتنمي الأموال بالزيادة والبركات ﴿وَصَلِّ[1] عَلَيْهِم إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُم﴾ وادع لهم واستغفر لهم ـ أيها النبي ـ إن استغفارك ودعاءك لهم بالرحمة طمأنينة لقلوبهم الحائرة وإيذان بأن الله يقبل توبتهم ﴿وَاللَّهُ سَميعٌ عَلِيمٌ﴾ والله يسمع اعترافهم بذنبهم، ويعلم بما في ضمائرهم وصدقهم في توبتهم.

وقد كان النبي ﷺ كلما أتاه قوم بأي صدقة قال: «اللّهم صلِّ عليهم» فأتاه أبو أوْفى بصدقته فقال: «اللّهم صلِّ على آل أبي أوْفى»[2].

﴿أَلَمْ يَعْلَموا أَنَّ اللَّه هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ أي ألم يعلم هؤلاء التائبون من ذنبهم أن الله وحده هو الذي يقبل توبة التائبين من عباده، وقبول التوبة هنا يتضمن معنى التجاوز والصفح عن ذنوبهم ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي يتقبّلها ويثيب عليها، ويضاعف أجرها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُو التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وتوّاب من صيغ المبالغة أي كثير التوبة عن عباده التائبين عظيم الرحمة بهم. هذا وقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «إن

---

(١) الصلاة في اللغة الدعاء وبه سميت (الصلاة) التي يقوم بها الإنسان بواجب العبادة لما فيها من الدعاء والاستغفار، وصلاة رسول الله على فلان هي الدعاء له والاستغفار له وطلب الرحمة له من الله.

(٢) متفق عليه.

الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره حتى أن التمرة لتكون مثل أُحُد»[١] أي مثل جبل أُحُد.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ والمؤْمِنُونَ﴾ أي اعملوا ما شئتم من الأعمال الصالحة فسيرى الله عملكم ويثيكم عليه، وعملكم لا يخفى على رسوله محمد ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال الخير، وأخلصوا أعمالكم لوجه الله، وراقبوه في سركم وجهركم، وجدير بمن يؤمن بأن الله يرى عمله أن يتقنه ويخلص له النية، فيقف عند حدود شرعه، فإن كان عمله طاعة لله حصل له منه الثناء في الدنيا والثواب الكبير في الآخرة، وإن كان عمله معصية لله حصل له منه الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ ثم تُرجعون يوم القيامة إلى الله الذي يعلم سرّكم وعلانيتكم، ولا يخفى عليه شيء من بواطنكم وظواهركم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ فيخبركم بما كنتم تعملون في دنياكم من خير أو شر، ويجازيكم بما تستحقونه من ثواب أو عقاب.

﴿وَآخَرُون مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُم وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِم﴾ مُرجَوْن: الإرجاء هو التأخير. والمعنى: ومن المتخلفين عن غزوة تبوك قوم مؤجل حكم الله فيهم: إما أن يعذبهم، وإما أن يقبل الله توبتهم فيكونوا من الناجين من عذاب الله. وهؤلاء لم يسرعوا بالاعتذار إلى النبي ﷺ عن تخلفهم عن الجهاد كما فعل غيرهم، وليس فيهم نفاق ولكن ندموا بعد ذلك أشد الندم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله عليم بما في قلوبهم حكيم بما يقضي بشأنهم.

وهؤلاء المُرجَوْن لأمر الله هم: هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع وكانوا قد تخلفوا عن غزوة تبوك كسلاً وميلاً إلى الراحة، وكل واحد منهم كان يملك

---

(١) رواه الترمذي.

راحلته[1] وعندهم المال وكل متطلبات الجهاد لذلك أصدر النبي ﷺ أمراً بمقاطعتهم إلى أن نزل الوحي بشأنهم، وسيأتي الكلام عليهم بإسهاب في الآية التالية رقم ١١٨ .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

شرح المفردات:

ضِراراً: للإضرار بالإسلام وأهله .

إرصَاداً: انتظاراً وترقباً .

الحسنى: الخصلة الحسنة .

لا تقم فيه: لا تؤد الصلاة فيه .

الشفا: الحرف والطرف من كل شيء .

الجُرُف: ما جرفه السيل أي استأصله وحفر ما تحته .

هار: مشرف على السقوط .

---

(١) الراحلة هي الناقة .

مسجد الضرار الذي بناه المنافقون

ويتابع القرآن فيذكر بعض مؤامرات المنافقين للتفريق بين جماعة المؤمنين، وكان الأسلوب الذي اعتمدوه هو بناء مسجد قرب مسجد قباء يكون مركزاً لمؤامراتهم، وانطلاقاً لنشاطهم في محاربة رسول الله ﷺ وهو الذي عُرِفَ باسم مسجد الضرار. قال تعالى:

﴿والَّذِينَ اتَّخَذوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المؤْمِنِينَ﴾ أي ومن منافقي أهل المدينة من بنى مسجداً للإضرار بالإسلام والمسلمين، ونصرة للكفر الذي يضمرونه في قلوبهم، وللتفريق بين جماعة المؤمنين الذين كانوا يُصلّون في مسجد واحد وهو مسجد قباء، فأراد المنافقون من بناء مسجد الضرار أن يفرقوا وحدة المؤمنين، وأن يجعلوهم يصلّون في أماكن متفرقة ﴿وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي واتخذوا المسجد ترقّباً وإعداداً لقدوم من حارب الله ورسوله وهو أبو عامر الراهب، الذي أعلن عداوته لدعوة الإسلام من قبل بناء مسجد الضرار ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إن أَرَدْنَا إلاّ الحُسْنَى﴾ وهم أقسموا وقالوا: ما أردنا باتخاذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين من التيسير على المعذورين والمرضى من السير إلى المسجد الآخر في ليلة شاتية، وإنهم بنوه لذكر الله والصلاة ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهم لَكَاذِبُونَ﴾ والله يعلم ويشهد بأن هؤلاء المنافقين لكاذبون في قسمهم هذا لأنهم ما أرادوا ببناء مسجدهم هذا إلا الإضرار بالمؤمنين وتفريق كلمتهم[١].

قصة مسجد الضرار: كان في المدينة المنورة قبل قدوم رسول الله إليها مهاجراً من مكة رجل من قبيلة الخزرج يقال له أبو عامر الراهب وكان قد تنصّر في الجاهلية

---

(١) جاء في تفسير القرطبي: قال علماؤنا: لا يجوز أن يُبنى مسجد إلى جنب مسجد، ويجب هدمه، والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغراً، إلا أن تكون المحلة كبيرة فلا يكفي أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ... وكل مسجد بُني على ضرار أو رياء وسُمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه.

وقرأ علم أهل الكتاب وله شرف في الخزرج وكلمة مسموعة لديهم، فلما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة واجتمع المسلمون حوله وصارت للإسلام كلمة عالية، وانتصر المسلمون في غزوة بدر زالت رياسة أبو عامر، فأظهر العداوة لرسول الله فخرج فارّاً إلى كفّار مكة يحضهم على محاربة رسول الله فأقدموا على ذلك، وجرت معركة أُحُد التي أُصيب فيها المسلمون بنكسة وخسارة. وأبو عامر هو الذي قال لرسول الله يوم معركة أُحُد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلاّ قاتلتك معهم، فلم يزل يفعل ذلك إلى يوم غزوة حنين فلما انهزمت قبيلة هوازن في تلك المعركة ولّى هارباً إلى الشام وأرسل إلى المنافقين كتاباً يأمرهم بأن يستعدوا بما يستطيعون من قوة وسلاح، وأنه ذاهب إلى قيصر ليأتي بجنود يُخرج فيها محمداً وأصحابه من المدينة المنورة، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده ويكون له ملاذاً إذا قدم عليهم، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وذلك قبل خروج رسول الله إلى غزوة تبوك. وجاءوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يأتيهم ليصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته لما بنوه، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة والحاجة في الليلة الشاتية. فقال رسول الله: إني على جناح سفر وحال شغل وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه. وعند رجوع رسول الله من تبوك نزل عليه الوحي من السماء يخبره خبرهم وما يبيّتون من الشر، فدعا رسول الله نفراً من أصحابه وقال: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه، وهذا ما فعلوه.

ويتابع القرآن الكلام عن مسجد الضرار بما خاطب الله رسوله محمداً بقوله:

﴿لا تَقُمْ فِيهِ أبداً﴾ أي لا تقم في مسجد الضرار مصلياً في أي وقت من الأوقات، وقد يعبّر عن الصلاة بلفظ القيام، يقال فلان يقوم الليل أي يصلّي فيه ﴿لَمَسْجِدٌ[1] أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أي والله إن مسجد

---

(١) لمسجد: اللام الداخلة على مسجد هي جواب قسم محذوف تقديره: والله لمسجد.

قباء الذي أُسس على التقوى من أول يوم دخل فيه رسول الله إلى المدينة المنورة مهاجراً، هذا المسجد لجدير بأن تُؤدى فيه شعائر الله، وهو أحق بالصلاة فيه من مسجد الضرار.

وقيل المراد بالمسجد الذي أُسِّسَ على التقوى هو المسجد النبوي بالمدينة المنورة كما جاء في الحديث الشريف، والآية لا تمنع إرادة أي من المسجدين: قباء أو المسجد النبوي لأن كليهما أُسِّسَ على تقوى الله ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّون أن يَتَطَهَّروا﴾ والطهارة هنا تشمل الطهارة الحسية من النجاسات في البدن والثوب والمكان، كما تشمل الطهارة من الذنوب والمعاصي والقبائح. والذين يحبون أن يكونوا طاهرين قد ارتأوا أن يتحلوا بصفاء الروح لأنهم تخلوا عن النجاسات ظاهراً وباطناً وتحلوا بالطهر والعبادة فأمدهم الله بنوره ﴿واللَّهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ﴾ ومحبة الله لهم هي الرضا عنهم والإحسان إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾ أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة وهي تقوى الله وطلب مرضاته خير عند الله ﴿أَم مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾أم من أسس بنيانه على الكفر والنفاق فهو كالبناء الذي بُني على حرف وطرف من جانب الوادي الذي جرف السيل تحته التراب والصخور فصار البناء واهياً مشرفاً على السقوط ﴿فَانْهَارَ بِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فسقط به في نار جهنم يوم القيامة.

وخلاصة المثل القرآني ثبات الإسلام وقوته وسعادة أهله، وبيان ضعف الباطل وانحلاله وقُرب زواله ﴿واللَّهُ لا يَهْدي القَوْمَ الظَّالِمينَ﴾ والله لا يوفق للرشاد في أفعاله من كان بانياً بناءه على الكفر والنفاق.

﴿لا يزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذي بَنَوْا رِيبَةً في قُلُوبِهِم﴾ الريبة: اسم من الريب بمعنى الشك والقلق والحيرة، أي لا يزال ما بناه هؤلاء المنافقون وهو مسجد الضرار سبب ريبة وشك في قلوبهم لكونه بني لتفريق كلمة المؤمنين وليثبتوا ما في قلوبهم من

كفر ونفاق، وإما أنه ريبة في حال هدمه فقد ملأ الغيظ قلوبهم والحسرة نفوسهم لأنهم لم ينالوا مأربهم من بنائه كما أنهم ظلوا في شك من أن يصيبهم رسول الله بسوء وعقاب على ما فعلوه ﴿إلاَّ أن تَقَطَّع[1] قُلُوبهم﴾ إلاّ أن تتصدع قلوبهم فيموتوا، أو تتقطع قلوبهم ندماً وأسفاً على ما بنوه وما أضمروه من السوء للمؤمنين ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله تعالى عليم بأفعال عباده، حكيم بتدبير أمورهم.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ومن أوْفى: لا أحد أعظم وفاء.

الحامدون: الذين يحمدون الله على كل حال، وهم الراضون بقضاء الله وقدره.

السائحون: الصائمون، سموا سائحين لتركهم الملاذّ، وقيل: الغزاة المجاهدون.

فاستبشروا: افرحوا بتحقيق ما عاهدتم الله عليه.

لحدود الله: لأوامره ونواهيه.

---

(١) تقطع: بفتح التاء والطاء المشددة بمعنى تتقطع حذفت إحدى التاءين منه.

الجهاد ثوابه الجنة

وبعد أن تحدث القرآن عن الذين تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ بيّن أن تخلّف هؤلاء ليس له أهميّة، لأن الله عوّض الإسلام بخير منهم، وهم المؤمنون الصادقون الذين باعوا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ هذا مثال لما يثيب الله المؤمنين في الآخرة من نعيم مقابل ما ضحوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وقد مثّل الله بهذا المثل بمن باع شيئاً له لآخر، مع العلم أن الله هو المالك لأنفسهم وهو الذي خلقها ورزقها، وهو غني عن أموالهم، وقد جعل الله تعالى البيع منهم والشراء منه كرماً وفضلاً، إذ كيف يشتري الله ما هو له أصلاً؟ ولهذا يقول الحسن: اشترى أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها لَكِنَّ هذا ذَكَرَهُ الله تعالى لحسن التلطف بهم.

أيُّ مؤمن لا يتأثر بهذا الواقع الإيماني الذي يربطه بالله عزّ وجلّ والذي يجعله يقدم على الجهاد برغبة واندفاع وحماس؟ وهذا ما حدث في عهد رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل يوم غزوة أُحُد فقال يا رسول الله: «أرأيت إن قُتلت فأين أنا؟» قال: «في الجنة»، فألقى تمرات في يده كان يأكلها ثم قاتل حتى قتل. لقد ألقى هذا المؤمن التمرات التي كان يأكلها من يده ودخل من فوره إلى القتال وكأنه يستعجل الجنة.

أين نحن اليوم من الذين يدّعون الإسلام وقد تركوا الجهاد بالأنفس والمال في سبيل الله والدفاع عن الأوطان إيثاراً منهم لملاذّ الحياة الدنيا وشهواتها؟ إنهم بعيدون كل البعد عن مفهوم الإيمان الحقيقي الذي صوّره القرآن في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ولنرجع إلى متابعة الآية: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ وهؤلاء الذين باعوا أنفسهم لله يقاتلون في سبيله وهو سبيل الحق والعدل المتمثل بدين

الإسلام فيكونون إما قاتلين لأَعداء الله، وإما مقتولين شهداء في سبيل الله، أي أنهم حينما دخلوا إلى المعركة وضعوا أنفسهم بين خيارين لا ثالث لهما: إما أن يُقتلوا وإما أن ينتصروا، وعلى هذا لم يراعوا جانب السلامة بالفرار من القتال ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ والقُرآنِ﴾ أي أن وَعْدَ الله للمجاهدين بأن لهم الجنة هو وَعْدٌ حق ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن، وهذا دليل على أن الجهاد في سبيل الله ومقاومة الظلم والطغيان دعت إليه جميع الشرائع السماوية ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا أحد أعظم وفاء بالوعد من الله سبحانه، وما دام الوعد من الله للمؤمنين بالجنة، فالجنة لا يملكها إلا الله سبحانه وتعالى.

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُم بِهِ﴾ أي فليفرح المؤمنون الصادقون غاية الفرح بهذا البيع الذي باعوا فيه أنفسهم لله، وهل يستبشر الإنسان بالبيع؟ نعم، لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغنى عنه عادة أو ليستبدله بأفضل منه فهم قد باعوا دنياهم وملاذّهم وشهواتهم التي سيصيبها الفناء بشيء نفيس لا يقدّر بثمن لأنه باقٍ أبد الدهر وهو نعيم الآخرة الذي لا يزول. ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العَظِيمُ﴾ وذلك الشراء والبيع هو الظفر الكبير لكم.

هذه الآية التي وعد الله بها المؤمنين بالجنة تشتمل على جملة تأكيدات:

منها: كلمة (وعْداً) ووعد الله حق. ومنها قوله تعالى (عليه) وكلمة على للوجوب. ومنها قوله: (حَقاً) وهو التأكيد للتحقيق. ومنها قوله سبحانه: ﴿في التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ وَالقرآنِ﴾ وذلك يجري مجرى إشهاد جميع الكتب الإلهية على هذه المبايعة. ومنها قوله سبحانه عن نفسه ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو غاية التأكيد. ومنها قوله: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العَظِيمُ﴾ تقرير وتأكيد لما سلف.

ثم وصف الله هؤلاء المؤمنين بجملة صفات استحقوا بها القرب من الله فهم:

﴿التَّائبون﴾ أي الراجعون إلى الله عن كل ما يبعد عن مرضاته كالكفر والنفاق والذنوب. والتوبة المقبولة تحصل بأمور أربعة: (١) الإقلاع عن الذنب مع الاستغفار

بسبب فعله. (٢) النّدم على فعل المعاصي فيما مضى. (٣) العزم على تركها في المستقبل. (٤) أن يكون الداعي إليها طلب رضا الله، مع رد الحقوق إلى أهلها إذا كان هناك اغتصاب لحق الغير.

﴿العابِدُون﴾ هم القائمون بالعبادات كلها على وجهها الصحيح لا يتوجهون إلى غير الله بدعاء ولا استعانة، والعابدون أيضاً هم الذين تذللوا إلى الله خشية منه وتواضعاً له.

﴿الحَامِدُون﴾ هم المعترفون لله تعالى بنعمه عليهم فيثنون عليه ويشكرونه في السراء والضراء.

﴿السَّائِحونَ﴾ هم الصائمون، وقيل: هم طلبة العلم الذين يسافرون من بلد إلى بلد في طلب العلم، وقيل: هم المتنقلون في الأرض للاعتبار ومشاهدة عجائب الله لتأكيد إيمانهم بربهم.

﴿الراكعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ يعني المصلين، وعبّر الله بالركوع والسجود عن الصلاة لأن بهما تتميز الصلاة عن غيرها من العبادات ولأن فيهما غاية الخضوع والتعظيم لله تعالى.

﴿الآمِرُونَ بِالْمعْروفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المنْكَرِ﴾ أي الذين يأمرون الناس بكل خير من إيمان بالله وطاعة له، وينهون الناس عن الشرك بالله والمعاصي وكل ما ينكره الشرع الإسلامي. والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا بد أن يكونوا بمنأى عن هذا المنكر، فليس معقولاً أن ينهوا عن شيء وهم له مزاولون.

﴿والحَافِظُونَ لِحُدودِ اللَّهِ﴾ أي العاملون بأحكام شرع الله والوقوف عند أوامره فلا يتعدونها ﴿وَبَشِّرِ المؤْمِنِينَ﴾ وأخبر أيها النبي من يسلكون هذا السلوك بما يسرّهم وبما وعدهم الله به من دخول الجنة، وتخصيص وصفهم بالإيمان هو للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الإيمان، وأن المؤمن الكامل هو من يتصف بهذه الصفات.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ما كان للنبي والذين آمنوا: أي ما صح وما استقام لهم.

يستغفروا: يطلبوا الغفران والرحمة.

أولي قُربى: أصحاب قرابة.

موعدة: وعْدٍ.

تبرأ منه: بَعُدَ عنه وتنزه عن مصاحبته.

لأواه: خاشع متضرع في الدعاء أو كثير التأوه من خوف الله.

حليم: صبور على الأذى.

ما يتقون: ما يجب اتقاؤه والبعد عنه.

وليٍّ: والٍ يلي أموركم ويدبر شؤونكم.

النهي عن الاستغفار للمشركين

وبعد أن بيّن الله وجوب البراءة من الكفار والمنافقين بيّن الله في الآيات التالية أنه يجب التبرؤ من أمواتهم ولو كانوا أقرباءهم:

﴿مَا كَانَ للنبيِّ وَالَّذين آمنوا أن يَسْتَغْفِروا للمُشْركين وَلَوْ كَانُوا أُولي قُرْبى﴾ أي لا يصح للنبي والذين آمنوا أن يطلبوا للمشركين المغفرة من الله لهم ولو كانوا أقرب الناس

إليهم نسباً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تبيَّن لَهُم أنَّهم أَصْحَابُ الجَحيمِ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنهم من أهل النار التي يعذبون بها في الآخرة، وذلك بسبب إصرارهم على الكفر وموتهم عليه.

فهذه الآية تتضمن تحريم الاستغفار للكفار والدعاء لهم بالرحمة.

هذه الآية نزلت فيما روي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان. فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ قال: أَوَلم يستغفر إبراهيم لأبويه؟ فذكرته للنبي ﷺ[1]، فنزلت الآية ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين...﴾.

ثم يبيّن القرآن بأنه لا حجة للمؤمنين في استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه:

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبراهيم لأَبيه إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيَّاه﴾ والموعدة: اسم للوعد. والمعنى: لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم لأبيه فإن ذلك كان على وعد من والد إبراهيم لابنه إبراهيم بالإيمان بالله وترك عبادة الأصنام، وقيل: الوعد صدر من إبراهيم عليه السلام إذ وعد أباه أن يستغفر له ﴿فَلَمَّا تَبيَّنَ لَهُ أنَّهُ عَدوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أي فلما تبيّن لإبراهيم أن أباه مستمر على كفره ومات عليه، علم أنه عدو لله لذلك تبرأ منه ولم يستغفر له ﴿إنَّ إبراهيمَ لأوَّاهٌ حَليمٌ﴾ والأوّاه: هو الخاشع المتضرع لربه الكثير الدعاء، وتضرع إبراهيم كان من خشيته لله. وحليم: صيغة مبالغة من الحلم وهو خُلُقٌ يجعل صاحبه صبوراً على الأذى صفوحاً عمن آذاه.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إذْ هَدَاهُم﴾ أي أن الله لا يوقع الضلال على قوم ولا يسميهم ضلاّلاً بعد أن هداهم إلى الإسلام وبين لهم شرائعه ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَا يتَّقُونَ﴾ أي حتى يبين لهم ما يجب أن يأتوا من الأعمال وما يجب أن يتركوا. أي أن يُقدم إليهم النهي عن ذلك الفعل، فأما قبل النهي فلا إثم عليهم في فعله ولا يؤاخذون

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والله محيط علمه بكل شيء لا تخفى عليه خافية من أقوالهم وأفعالهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ إن الله وحده مالك السماوات والأرض وما فيهما من كائنات وأجرام وكل الخلق عبيده، بيده حياتهم وموتهم، يحيى من يشاء منهم ويميت من يشاء ﴿وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللَّهِ مِنْ وليٍّ ولا نَصِيرٍ﴾ وليس لكم أحد سوى الله يتولّى أمركم، وليس لكم نصير ينصركم منه إن أراد بكم عقاباً لسوء أفعالكم، فهو وحده نعم المولى ونعم النصير.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

شرح المفردات:

ساعة العسرة: وقت الشدة والضيق في غزوة تبوك.

تزيغ: تميل عن الصواب وتعدل عن الحق.

خُلِّفوا: تخلفوا عن الغزو.

بما رحبت: على اتساعها.

لا ملجأ من الله: لا مفر ولا منجى من سخطه وعقابه.

ليتوبوا: ليداوموا على التوبة ويثبتوا عليها.

قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو

ثم يعود القرآن للكلام عمَّا صدر من المؤمنين من هفوات وزلآت مبيناً أن الله قد تفضل عليهم وعفا عنهم:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النبيّ وَالمهَاجِرينَ والأنْصَارِ الَّذِين اتَّبَعُوهُ في سَاعَةِ العُسْرَةِ﴾ ومعنى تاب الله على فلان: غفر له ولم يؤاخذه بما صدر منه من ذنب. فتوبة الله على رسوله محمد ﷺ هي عدم مؤاخذته بإذنه للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك، فإذنه ﷺ لهم بالتخلف هو من باب ترك الأفضل لا من باب فعل الذنب. وأما توبة الله على المهاجرين والأنصار فلأجل ما وقع في قلوبهم من الميل إلى القعود في المدينة والتخلف عن غزوة تبوك، لأنها كانت في وقت شديد الحرارة، ولكنهم استعانوا بالله واتبعوا رسول الله ﷺ وخرجوا معه إلى تبوك ولم يخالفوا أمره.

﴿سَاعَةِ العُسْرَةِ﴾ أي وقت العسر، والعسرة هي الشدة والضيق وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة، والجيش الذي سار إلى تبوك يسمى جيش العسرة بسبب ما لاقاه هذا الجيش من مشقات وأهوال، فقد كان الرجلان والثلاثة على بعير. وخرجوا إلى تبوك في حرٍّ شديد وأصابهم عطش فجعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها ويشربون ماءها، حتى إن الرجلين ليشقان التمرة بينهما. وقال من شهد المعركة: حتى إن الواحد منا كان إذا أخذ حفنة من شعير ليأكلها يمسك أنفه حتى لا يتأذى من رائحة الشعير بسبب العفن والفساد الذي طرأ عليه.

﴿مِن بعْدِ مَا كَادَ يزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ منْهُم﴾من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق ويشك في دين الله، بسبب ما ناله من المشقة والشدة في سفره وغزوه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم﴾ ثم غفر الله لهم ولم يؤاخذهم بما وقع في قلوبهم من خواطر السوء،

ورزقهم الله الإنابة والرجوع إلى الثبات على الإيمان ﴿إِنَّهُ بِهِم رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إنه سبحانه كثير الرأفة بعباده، عظيم الرحمة بهم فلا يكلفهم ما لا يطيقون.

ثم تأتي الآية التالية لتصف حال ثلاثة من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذر، فأمر النبي بالإعراض عنهم وعدم مكالمتهم إلى أن نزل الوحي الإلهي بقبول توبتهم:

﴿وَعَلى الثَّلاثَةِ الَّذين خُلِّفُوا﴾ هذا الشطر من الآية معطوف على صدر الآية ﴿لقد تاب الله على النبي﴾، أي وتاب الله على هؤلاء الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك كسلاً وحبًا للراحة ﴿حَتَّى إذَا ضَاقَتْ عَلَيهِمُ الأَرضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي حتى إذا ضاقت عليهم الأرض على سعتها بسبب مقاطعة المسلمين لهم ﴿وَضَاقَت عَلَيْهِم أَنفُسُهُم﴾ بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الغمّ والحزن ومجانبة الناس إياهم ﴿وَظَنُّوا أَن لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إلاَّ إلَيْهِ﴾ أي علموا وأيقنوا أن لا ملجأ ولا مهرب لهم من سخط الله إلا بالتوبة إليه والاستغفار ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبُوا﴾ ثم رجع الله عليهم بالرحمة والمغفرة، وأنزل آية من القرآن بقبول توبتهم ليرجعوا إلى الله ويندموا على ما وقع منهم من زلل ويتوبوا إلى الله توبة صادقة ﴿إنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي أن الله سبحانه كثير القبول لتوبة التائبين واسع الرحمة بهم.

هؤلاء الثلاثة الذين نزلت هذه الآية بقبول توبتهم هم: كعب بن مالك، وهلال ابن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار، وقد وردت قصتهم بإسهاب في الأحاديث الصحيحة المروية عن رسول الله ﷺ وفي كتب السيرة النبوية ولننقل باختصار ما رواه أحدهم بأسلوب مؤثر عمّا صادفه وزميليه من آلام وتبكيت ضمير وعذاب نفسي.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله توجه قافلاً[١] من (تبوك) حضرني

---

(١) قافلاً: راجعاً.

بثّي[١] فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بِمَ أخرج من سخطه غداً...؟ فأجمعتُ على كلمة الصدق.

وقدم رسول الله من سفره، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون (أي الذين تخلفوا عن الغزو) فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل رسول الله منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسَّمَ تبسُّم المغضب ثم قال لي: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: ما خلّفك؟ قلت يا رسول الله: والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر... ولكني والله لقد علمت لئن حدّثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد[٢] عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنك، فقال رسول الله: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك. فقمت، وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله بما اعتذر به المخلّفون، فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله، فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله فأكذّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحَدٍ؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي...

ونهى رسول الله الناس عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلّف عنه، فاجتنبنا الناس حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

---

(١) البث: أشد الحزن.

(٢) تجد: تغضب.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم[١]، فكنت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد وآتي رسول الله فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، وأقول لنفسي: هل حرّك شفتيه بردّ السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إليَّ وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسوّرت حائط أبي قتادة ـ وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليَّ ـ فسلّمت عليه فوالله ما ردَّ عليَّ السلام فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله[٢] تعالى، هل تعلمن إني أحبُّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت. .

مضت أربعون ليلة من الخمسين وإذ برسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربنها، وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي إلحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. . .

فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج فآذن[٣] رسول الله بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشرونا. . .

انطلقت قاصداً رسول الله يتلقاني الناس فوجاً بعد فوج يهنئونني بالتوبة ويقولون

---

(١) أشب القوم وأجلدهم: أي أصغرهم سناً وأقواهم.
(٢) أنشدك بالله: أي أسألك بالله.
(٣) آذن: أعلم.

لتهنّك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله جالس في المسجد وحوله الناس. . . فلما سلمت عليه قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدَتْكَ أمك، قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله. . . فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله؟ قال: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. . . وقلت: يا رسول الله إنما أنجاني الله بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلاّ صدقاً ما بقيت.

وتنويهاً بخصلة الصدق التي تحلّى بها هؤلاء الثلاثة نزل قوله تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه وكُونُوا مَعَ الصَّادِقين﴾ أي يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وكونوا مع جماعة الصادقين في أقوالهم وفي جهادهم وعهودهم وفي أقوالهم ووعودهم. فهؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله عليهم حين اعترفوا بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الباطلة كما فعل غيرهم.

فالصدق أحسن الفضائل ومصدر كل خصلة محمودة، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البرّ وإن البرّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صدّيقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يُكتَب عند الله كذّاباً»[1].

* * * * *

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه: أي لا يؤثرون أنفسهم عن نفسه بأن يرضوا لأنفسهم الراحة ولرسول الله المشقة.

نصب: تعب.

مخمصة: مجاعة.

يطأون موطئاً: يدوسون أرضاً.

ولا ينالون من عدوٍّ نيلاً: أي يصيبوا من عدوّ أسراً أو قتلاً أو هزيمة.

لينفروا كافة: ليخرجوا جميعاً إلى الجهاد.

فلولا نفر من كل فرقة طائفة: فهلاّ خرج من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة.

لينذروا قومهم: ليحذّروا قومهم ويخوفونهم من معصية الله.

يلونكم من الكفار: الأقرب منكم فالأقرب في الدار والنسب.

ثواب الجهاد والدعوة إلى التفقه في الدين

وبعد أن أمر الله المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين عاد إلى النهي عن التخلف عن الجهاد مع رسول الله ﷺ قال تعالى:

﴿مَا كَانَ لأَهْلِ المدِينَـةِ وَمَنْ حَوْلَـهُم مِنَ الأَعْرَابِ أن يَـتَـخَـلَّـفُـوا عَن رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي ما صح ولا استقام لأهل المدينة المنورة ومن حولهم من الأعراب من سكان البوادي أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله. فالله بهذا القول يعاتب الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ﴿وَلا يَـرْغَـبُـوا بِـأَنْـفُـسِـهِـم عَنْ نَـفْـسِهِ﴾ ولا أن يضنوا بأنفسهم عمّا بذل رسول الله فيه نفسه، ولا أن يؤثروا أنفسهم عن نفسه بأن يكرهوا لها المكاره والأخطار، ولا يكرهوها لرسول الله، بل عليهم أن يفدوه بأرواحهم، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه، عِلْماً بأن رسول الله هو أعز نفس على الله وأكرم خلق الله عليه.

ثم يشير القرآن إلى ما عاناه المؤمنون في غزوة تبوك من مشقة وعُسر وما سينالون بسبب ذلك من الثواب العظيم عند الله:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّـهُم لا يصيبُـهُـم ظَـمَـأٌ﴾ أي ذلك الذي كلفهم الله به من وجوب مصاحبة رسول الله في الجهاد هو أنه لا يصيبهم ظمأ وهو العطش الشديد، وقد كان المقاتل منهم من فرط ظمأه يذبح بعيره ويصفّي الماء الذي في معدته ليبلّ ريقه وريق زملائه ﴿ولا نَصَبٌ﴾ أي ولا تعب، وقد كانت غزوة تبوك متعبة بعيدة عن المدينة المنوّرة وكان الوقت صيفاً والجو حاراً ﴿ولا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والمخمصة هي المجاعة، وقد كان المسلمون يأكلون التمر الذي أصابه الدود، والشعير الذي انتشر فيه السوس من فرط جوعهم، وقد تحملوا ذلك للجهاد في سبيل الله ﴿ولا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَـغِيظُ الكُفَّارَ﴾ ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأقدامهم أو بحوافر خيولهم من أجل إغضاب الكفار وإزعاجهم ﴿ولا يَـنَـالُـونَ مِـنْ عَـدُوٌ نَـيْـلاً﴾ ولا ينالون من عدو غرضاً بقتله أو أسره أو هزيمته أو الغنيمة منه ﴿إلاّ كُـتِـبَ لهم بِـهِ عَـمَـلٌ صَالِـحٌ﴾ إلا كُتِبَ لهم بكل واحد مما ذُكِرَ عمل صالح في صحائف أعمالهم ينالون بسببه الثواب

الجزيل من الله ليجازيهم عليه أحسن الجزاء يوم القيامة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ والله لا يضيع أجر الذين أحسنوا في أعمالهم من التضحية بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله. وفي الآية دليل على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه حسنات مكتوبة في صحائف أعماله.

﴿وَلاَ يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً﴾ وكذلك لا يبذل المؤمنون أي مال ينفقونه في سبيل الله صغيراً كان أم كبيراً ﴿ولا يَقْطَعُونَ وَادِياً إلاَّ كُتِبَ لَهُم﴾ ولا يجتازون وادياً من الوديان في مسيرهم إلى عدوهم أو في رجوعهم عنه إلا كتب الله لهم ثواب ذلك وجعله في سجلّ حسناتهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ليجازيهم الله على ذلك أحسن الجزاء يوم القيامة.

وبعد ذلك الترغيب الذي بينه القرآن للذين يكابدون مشقات الجهاد، قال المؤمنون: والله لا نتخلف عن شيء من الغزوات مع رسول الله ولا عن سرية يبعثها فلما قدم المدينة المنورة وبعث السرايا[1] نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوا رسول الله وحده فنزلت الآية التالية.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِروا كافَّةً﴾ أي ما صح وما استقام أن يخرج المؤمنون جميعاً إلى الجهاد ويتركوا رسول الله وحده ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُم طَائِفَةٌ﴾ فليكن الأمر أن تخرج من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم إلى رسول الله ﴿لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ﴾ والفقه هو الفهم، أي ليفهموا دينهم ويتعلموا من رسول الله الأحكام الشرعية ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إذا رَجَعُوا إِلَيْهِم لَعَلَّهم يَحْذَرُونَ﴾ أي ليخوّفوا قومهم وينذروهم من عصيان الله إذا رجعوا إليهم من الغزو لعلّهم يحذرون عقاب الله فيطيعونه في أمره ونهيه ويتجنبون ما يضرهم.

---

(١) السرايا: جمع سريّة، فحين كان رسول الله يخرج للقتال فالمهمة تسمى غزوة، أما إذا أرسل رسول الله جماعة للقتال بدونه سميت العملية بـ السريّة.

والمعنى المراد من الآية: لا يجوز أن يذهب المؤمنون كلهم إلى الجهاد، بل الأفضل أن يكونوا طائفتين: طائفة تبقى في جوار رسول الله تتعلم منه الأحكام الشرعية وطائفة تذهب إلى الجهاد، لأن الإسلام في ذلك الوقت كان محتاجاً إلى الجهاد وقهر الكفار. فأما الطائفة المقيمة مع رسول الله فهم الذين يتفقهون في الدين بسبب ملازمتهم رسول الله. فإذا رجعت الطائفة التي ذهبت إلى الغزو علمتهم الطائفة المقيمة مع رسول الله ما تعلموه من أمور دينهم. والآية تشمل الذين يأتون من الأماكن البعيدة عن المدينة ليجلسوا إلى رسول الله ويتعلموا منه أمور دينهم ثم يرجعوا إلى قومهم ويعلموهم ما تعلموا منه.

فالآية تدل على وجوب تعميم العلم بأحكام الشريعة الإسلامية والتفقه في الدين في المجتمع الإسلامي، وتخصيص فئة لهذا الغرض، وهؤلاء المتخصصون في فقه الدين بنيّة خالصة لإرشاد الناس إلى سبيل الله وتعليمهم أمور دينهم لا يقلون في الدرجة عن المجاهدين في سبيل الله. فمن تفقه في الدين لهذا الغرض كان على المنهج الصحيح والصراط المستقيم، ومن طلب الدنيا بالدين واتخذ الدين مكسباً مادياً له أو للحصول على الجاه فأولئك الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

﴿يا أيُّها الَّذين آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِين يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ﴾ يلونكم: أي الذين بقربكم، فالله أمر المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الأقرب فالأقرب إلى ديار الإسلام، لهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً شرع في قتال الروم الذين هم أقرب إلى جزيرة العرب فبلغ تبوك ثم رجع لأجل الجهد الذي حلّ بالجيش.

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُم غِلْظَةً﴾ أي وليجد الكفار منكم شدة وقوة وشجاعة عند قتالهم ﴿واعْلَمُوا أَنَّ اللَّه مَعَ المتَّقِينَ﴾ واعلموا أن الله بعونه ونصره مع المتقين الذين يخافون الله ويجتنبون ما نهاهم عنه.

ولما توفي رسول الله قام خلفاؤه بالفتوحات العظيمة، ولكن لما وقعت الفتن ودبت الاختلافات بين حكام المسلمين ومال الناس إلى شهوات الدنيا وعصيان الله طمع فيهم الأعداء فنهبوا ديارهم وقتلوا شبابهم وأذلوهم وكانت عندئذ فتنة أصابت المسلمين بأفدح الخسارات وصدق الله فيهم إذ قال: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

شرح المفردات:

رجساً إلى رجسهم: كفراً إلى كفرهم ونفاقاً إلى نفاقهم.

عزيز عليه ما عنتم: يشق عليه ضلالكم.

يفتنون: يبتلون بالشدائد.

لا يفقهون: لا يفهمون.

حسبي الله: كافيني الله ومعيني.

حريص عليكم: حريص على إيمانكم وهدايتكم.

رؤوف: شديد الرحمة.

نظرة المنافقين إلى القرآن الكريم

ويتابع القرآن الكلام على المنافقين مبيناً نظرتهم إلى القرآن الكريم، يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إيماناً﴾ أي وإذا أنزلنا عليك سورة يا محمد قال بعضهم لبعض: أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ يقولون ذلك على وجه الإنكار، أو يقول المنافقون ذلك لضعفاء المسلمين على وجه الاستهزاء.

ولقد ردَّ الله عليهم بأن هناك فرقاً بين المنافقين والمؤمنين في سماعهم القرآن الكريم:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرون﴾ أي فأما الذين آمنوا فقد زادتهم السورة يقيناً وخشية من الله إضافة إلى إيمانهم السابق لما فيها من الهدى، وهم يفرحون بنزولها فترى الفرحة بادية على وجوههم لما سمعوا فيها من بواعث الطمأنينة والاستبشار بما أعد الله لهم في اليوم الموعود.

﴿وَأَمَّا الَّذين في قلوبهم مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِم﴾ وأما المنافقون الذين في قلوبهم مرض من كفر خفيّ وسوء عقيدة فزادتهم السورة التي أنزلها الله كفراً مضافاً إلى كفرهم السابق، وإثماً إلى إثمهم، وسمى الله الكفر والإثم رجساً لأنه أقبح الأشياء. وأصل الرجس في اللغة الشيء المستقذر ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرونَ﴾ وماتوا وهم جاحدون وحدانية الله وآيات القرآن المنزلة على رسوله.

وهكذا حال من لا يدينون بالإسلام من الملل الأخرى، فإن أقبلوا على دراسة القرآن بنفس صافية بريئة يبتغون الوصول إلى الحقيقة انشرحت صدورهم واطمأنت له نفوسهم لما يرون فيه من الحقائق والهدى والعدالة الاجتماعية والمثل العليا، فعندها يؤمنون عن اقتناع بأنه كلام الله حقاً، ولا سيما أن القرآن الكريم ساحر في بيانه معجز في أسلوبه يلامس القلوب ويستحوذ على المشاعر والعقول.

وأما من يُقْبِل على دراسة القرآن بتعصب وكراهية فإنهم لا يرون فيه ما يروق لهم، وكان حالهم كحال المنافقين على عهد رسول الله ﷺ.

﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُم يُفْتَنُونَ في كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أو مَرَّتَيْنِ﴾ يفتنون: يبتلون، وابتلاء المنافقين كان بكشف نفاقهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، وهم يفتنون حين يرون انتصار المسلمين رغم كيدهم لهم. وهم يفتنون بدعوتهم إلى الغزو والجهاد، فمع كونهم كافرين فقد عرّضوا أنفسهم للقتل من غير فائدة. والمراد بالمرة والمرتين مجرد التكثير لا بيان الوقوع في الفتنة على حسب العدد المذكور ﴿ثُمَّ لا يتوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ثم لا يتوبون عن هذا النفاق ولا يندمون عليه ولا يستغفرون الله مما حدث منهم، ولا يتعظون بما أعطى الله رسوله ﷺ من النصر والظفر على الأعداء.

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَت سُورَةٌ نَظَر بَعْضُهُم إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ وإذا أوحى الله لرسوله محمد سورة من القرآن فيها توبيخ للمنافقين وهم في مجلس رسول الله تأذوا من سماعها ونظر بعضهم إلى بعض نظراً مخصوصاً دالاً على الطعن والاستهزاء بها وقال بعضهم لبعض بصوت منخفض: هل يراكم أحد من المسلمين إذا خرجتم متسللين؟ فإن لم يرهم أحد انصرفوا عن مواضعهم لأنهم لا يطيقون أن يسمعوا الوحي الإلهي وهو يشهّر بهم كما أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا ما يكرهون ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهم قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ صرف الله قلوبهم عن الإيمان بسبب أنهم لا يفهمون ما يتلى عليهم من القرآن ولا يفهمون ما فيه نفعهم.

ويختم الله هذه السورة ببيان ما يتحلى به رسوله محمد ﷺ من رأفة ورحمة لقومه وإخلاصه لهم:

﴿لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُم﴾ لقد جاءكم ـ أيها العرب ـ رسول من عند الله وهو من أنفسكم ليس بغريب عنكم بل هو واحد منكم قادر على التفاهم معكم، وهو من أكرم البيوت فيكم حسباً ونسباً، تعلمون تاريخه ونشأته وسلوكه حتى سميتموه قبل نزول الوحي عليه بالصادق الأمين، فمجيئه من عند الله رسولاً منه إليكم يرفع من ذكركم ويعلي من شأنكم، كما أنه رسول من عند الله إلى الناس كافة ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم﴾ أي يعز عليه مشقتكم فقد جاءكم بالشريعة السهلة السمحة، أو بمعنى: يشق عليه ضلالكم كما يشق عليه وصول شيء من آفات الدنيا والآخرة إليكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ حريص على هدايتكم ووصول النفع إليكم ﴿بِالمؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا الرسول شديد الرأفة والرحمة بكم أيها المؤمنون. وقد قال بعض العلماء: لم يجمع الله تعالى لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه سبحانه إلا لرسوله محمد ﷺ حيث قال سبحانه في شأن محمد ﷺ: ﴿بالمؤمنين رَؤوفٌ رَحيمٌ﴾ وقال سبحانه عن ذاته في القرآن ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإن أعرض قومك يا محمد عن الإيمان بالله وتصديق أنك رسول الله وأعرضوا عن طاعة الله فقل: يكفيني الله ويُعينني عليكم ﴿لا إِلَه إلاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا معبود بحق إلا الله سبحانه عليه اعتمدت، وفوّضت أمري إليه، فلا أرجو سواه ولا أستعين إلا به ﴿وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ والمراد بالعرش ـ والله أعلم ـ السلطان والملك، أي أن الله سبحانه هو مالك الملك ورب الكون وصاحب السلطان العظيم.

قراءة القرآن في المآذن

هناك ظاهرة في لبنان وبعض الدول الإسلامية وهي قراءة القرآن في المآذن قبل الأذان للصلوات الخمس بربع ساعة أو أقل أو أكثر، وهي بدعة لم يأت بها شرع الله، وكل بدعة مرفوضة، لأن الأذان قبل الصلاة من ضمن العبادات، وليس لأحد أن يزيد شيئاً عليها. كما أن في ذلك إساءة للقرآن وتعريضه للامتهان بما ظهر لي من المعطيات الآتية:

١) القرآن لا يقرأ للتنبيه إلى وقت الصلاة، بل الأذان هو الوسيلة لذلك.

٢) الغاية من إنزال القرآن هو تدبر معانيه والعمل بأحكامه، قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

كما أن الغاية من تلاوة القرآن تثبيت الإيمان في قلوب المؤمنين، ولهذا وصف الله المؤمنين الصادقين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقراءة القرآن في المآذن لا يتحقق بها شيء من تلك المعاني السامية والمقاصد العالية، ناهيك أن القرآن الذي يتلى في المآذن لا يصل معناه إلى الأذن بصورة واضحة يستوعبها العقل، والتعبد بتلاوة القرآن لا تقوم إلا على تدبره وفهمه والعمل به.

٣) إن الأشرطة المسجلة التي تذاع فيها تلاوة القرآن تذاع بصوت عال[1] فلا تفهم مما يذاع منها شيئاً وبالأخص إذا كنت بعيداً عن المسجد فلا تسمع إلاّ نغماً مشوشاً لأحد المقرئين فيكون في ذلك إضرار وتشويش على المصلي في صلاته، وعلى طالب العلم في تحصيله العلمي، وعلى قارىء القرآن في تعبده بتلاوته، وعلى الذي يقوم بعمل فكري يحتاج إلى التركيز، أضف إلى ذلك ما تسببه من إقلاق راحة المسنين والأطفال والمرضى.

---

(١) من المشاهد في بعض المساجد أن القائمين عليها يرفعون صوت الأذان بصورة مرتفعة جداً بما يسبب الضيق والحرج لجيران المسجد، فيجب ضبط الصوت بصورة معتدلة بحيث لا يسبب الأذى للأذن والأطفال.

إن تلاوة القرآن من أفضل الأعمال الصالحة التي يتقرب بها المؤمن إلى الله سبحانه، ولكن ليس في المآذن والناس منهمكون في أشغالهم وطلب معاشهم أو لهوهم، والله سبحانه يخاطب المؤمنين: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. فيكون ذلك سبباً لوقوع الكثير من الناس في الإثم لأننا نراهم لا يصغون إلى ما يُتلى عليهم من القرآن ولا ينصتون له بل يستمرون في أحاديثهم ولهوهم، هذا إذا وصل الصوت نقياً إلى الآذان، ولكن ما يحصل هو اختلاط الصوت بضجيج السيارات وغيرها من الأصوات.

لهذا نصّ فقهاء الإسلام على عدم جواز قراءة القرآن في الأسواق والمحافل العامة المتشاغلة بمصالح المعاش والكسب وطلب الرزق، وذهبوا إلى تأثيم من يفعل ذلك لأنه يُعرّض القرآن للامتهان بتشاغل الناس عن سماعه وتدبّره، إذ لا يجب عليهم ترك ما هم بصدده من أسباب الرزق والمعاش ليتفرغوا إلى سماع تلك التلاوة.

جاء في كتاب فتح القدير[1]: رجل يكتب الفقه وبجنبه رجل يقرأ القرآن فلا يمكنه استماع القرآن فالإثم على القارىء، وعلى هذا لو قرأ على السطح والناس نيام يأثم. ويقول العلامة ابن عابدين في حاشيته: إنما يأثم القارىء لأنه يكون سبباً لإعراضهم عن استماعه أو لأنه يؤذيهم بإيقاظهم.

والتسبيح والأناشيد التي يتغنى بها قبل أذان الفجر بوقت طويل هي من البدع التي يجب تركها، جاء في كتاب الإقناع وشرحه من كتب الحنابلة: وما سوى التأذين قبل الفجر من التسبيح والنشيد ورفع الصوت بالدعاء ونحو ذلك في المآذن ليس بمسنون وما من أحد من العلماء قال إنه يستحب، بل هو من جملة البدع المكروهة لأنه لم يكن في عهده ﷺ ولا في عهد أصحابه.

وعليه فينبغي على أولياء الأمر القائمين على تنظيم الشؤون الدينية إرشاد العاملين في المساجد إلى ترك هذه العادات الممنوعة شرعاً، والاكتفاء بالأذان وحده للإعلام بدخول وقت الصلاة.

---

(١) فتح القدير: هو من الكتب المعتمدة في المذهب الحنفي وهو من تأليف ابن الهمام.

من المراجع

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي.

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي.

تفسير الكشاف للزمخشري.

تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا.

تفسير التحوير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور.

التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

تفسير الشعراوي للشيخ محمد متولي الشعراوي ـ أخبار اليوم، قطاع الثقافة.

تفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ـ دار الفكر.

تفسير الماوردي لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي المصري.

تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري.

الجهاد والقتال في السياسة الشرعية للدكتور محمد خير هيكل.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم لمحمود الألوسي.

سورة الأنفال للدكتور مصطفى زيد ـ دار الفكر العربي.

فتح القدير للشوكاني.

في تفسير سورة الأنفال والنجم للدكتور علي الجندي.

اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص عمر بن علي الحنبلي.

وهناك بعض المراجع ذكرناها في حواشي هذا التفسير.

وفـــي الـخـتـــام

أقدم شكري وامتناني لأصحاب دار العلم للملايين الأجلاء على ما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص .

كما أقدم شكري لفضيلة القاضي المستشار الشيخ حسين غزال ولفضيلة الأستاذ الشيخ محمد شريف سكر . على ما قدماه لي من معونة وملاحظات قيمة .

وأقدم شكري إلى الدكتورة هدى سنو على جهودها في تصحيح هذا التفسير عند الطبع .

وأخص بالشكر أيضاً الأستاذ توفيق الحوري عميد كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية على ما يسّر لي من المراجع في مكتبتها هذه .

وأخيراً أشكر جامعة بيروت العربية لما قدمته لي مكتبة كلية الآداب فيها من مراجع علمية وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام .

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً لما يحبه
ويرضاه وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه
الكريم وأن يجزيهم الله خير الجزاء

عفيف عبد الفتاح طبارة

الفهـــرس

سورة الأنفال

سورة التوبة

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية

روح القرآن

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يَس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر : الكهف ـ مريم ـ طَه
- تفسير سُوَر : الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر : يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورة يونس ـ وسورة هود
- تفسير سورة الأنفال ـ وسورة التوبة



- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين